



حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي

تعريب

محمد نوشاد النوري القاسمي

يصدرها

مجمع حجة الإسلام

الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند الهند

الإسلام والمسيحية:
دينًا وحضارةً

الإسلام والمسيحية: دينًا وحضارةً
تاليف: حكيم الإسلام المقرئ محمد طيب القاسمي
تعريب وتحقيق: محمد نوشاد النوري القاسمي
الطبعة الأولى: ١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٤م

الرقم الدولي: ٥-٣١-٨٤٧٧٥-٩٣-٩٧٨

مجمع حجة الإسلام، الجامعة الإسلامية دارالعلوم وقف ديوبند

ISBN NO. 978-93-84775-31-5

Hujjat al-Islam Academy
Aljamia al-Islamia Darululoom Waqf Deoband
Eidgah road, P.O 247554, Deoband,
Distt: Saharanpur, U.P. INDIA
Tel: +91-8439412767, Mob: +91-9897076726
Email: hujjatulislamacademy2013@gmail.com
hujjatulislamacademy@dud.edu.in
Website: http://www.dud.edu.in



الإسلام والمسيحية:
دينًا وحضارةً

تأليف

حكيم الإسلام المقرئ محمد طيب القاسمي

رئيس دار العلوم ديوبند الأسبق

تعريب وتحقيق:

محمد نوشاد النوري القاسمي

قام بنشره

مجمع حجة الإسلام

الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند الهند

الإهـــــــداء

إلى

حكيم الإسلام الشيخ المقرئ

محمد طيب القاسمي رحمه الله

الرئيس الأسبق للجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند ومؤسس

وأول رئيس لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند

حبًا .. وتقديرًا.. ووفاءً.

مقدمة

فضيلة الشيخ مُحَمَّد سفيان القاسمي حفظه الله ورعاه

رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند، الهند

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وأتباعه بإحسان وبعد!

"الإسلام والغرب"، و"المسلمون والأمم الغربية" وما إليها يُعَدُّ من المواضيع التي طال حولها النقاش منذ قديم إلى يومنا هذا، وتتفرع مناحي البحث إلى جوانب شتى، فهي موضوعات قديمة وجديدة معًا من حيث البعد الزماني، وواسعةٌ مترامية الأطراف من حيث البعد المكاني والمعنوي، فقد كُتب حولها الكثير، وسيُكتب الكثير في ظل التغيرات المتجددة والأحداث المتتابعة، وجاء تاريخُ الأمة المسلمة الممتد لأربعة عشر قرنًا دليلًا صارخًا على أن عهد الأمة المسلمة باليهود والنصارى أشد وأكثر من سائر الأمم، سواء كانت هذه الأمم مشركي مكة والعرب في بداية الإسلام، أو المجوس في إيران، أو القبائل المختلفة دينًا وحضارةً في مختلف أقطار العالم، فكان عهد الأمة المسلمة بها لفترة قصيرة محدودة، ثم تلاشت هذه الأمم، كما تلاشى المجوس في إيران أو انخرطت في سلك الإسلام، وكانت جزءًا من الأمة الإسلامية، وإن بقي بعضها على دينها فكانت قليلة التأثير، خفيفة الوطأة، لاتتعدى آثارها حدود منطقة ودولة؛ ولكن اليهود والنصارى يحملون خلفية

تاريخية مشرقة، فكانت لهم قبل الإسلام وبعده حكومات وانتصارات وحضارات زاهية، مما أقام بينهم وبين المسلمين مواجهات عنيفة مباشرة في كل الميادين من أول يوم الإسلام إلى يومنا هذا وإلى قادم الأيام حتى يقضي الله بيننا، وقد شملت هذه المواجهة كلا من الجوانب المادية والروحية والاتجاهات الفكرية والعملية والحاجيات والأولويات وما إليها، مما أحدث –ويحدث في الحاضر والمستقبل– ذبذبةً هائلةً في العلاقات بين الأمة المسلمة وبين اليهود والنصارى، اختلفت في الشدة والخفة، والحلاوة والمرارة.

وهناك كثير من الآيات القرآنية التي تدل في سياقاتها المتنوعة –بشكل مستور أو مكشوف– على أن الأمة المسلمة سوف تعاني من اليهود والنصارى ما لاتعانيه من أية أمة من الأمم، ويرتبط مسيرها بهاتين الأمتين ارتباطًا خاصًا، وفي هذا الصدد يجب أن نركز على أمر، هو في غاية الأهمية، وهو أن سورة البقرة وسورة آل عمران من أطول سور القرآن، ولحكمة وضعها الله سبحانه في بداية القرآن الكريم، وسماهما الرسول المصطفى المعصوم صلى الله عليه وسلم بالزهراوين، فيجب أن نتدبر ما هو الوصف المشترك بين السورتين؟ فالتفكير يهدينا إلى أن سورة البقرة اشتملت على عقائد بني إسرائيل وأحكامهم، وما أنعم الله عليهم من نعم وأفضال، وكفران اليهود وما تبعه من أحداث وعواقب وما إليها، ولم يُذكر النصارى إلا بشكل ضمني، أما سورة آل عمران فعلى العكس من ذلك تخص النصارى بالذكر والبيان، ولم يأت ذكر اليهود إلا قليلا، فجاءت السورة تسهب في ذكر تاريخ النصارى وعقائدهم، وأسباب انحرافهم وضلالهم مع تزويدهم بتوجيهات خلقية وأحكام عملية، وكل هذا سيق تذكرةً للأمة المسلمة بأن هاتين

الأمتين قد عُزلتا عن منصب الإمامة الكبرى والخيرية المطلقة، وأن الأمة المسلمة قد أعطيت هذا المنصب العظيم، فلتكن على شعور عظيم بالمسؤولية وإدراك لما نيط بها من دورإنساني عالمي، ولما ستواجهه من قِبل اليهود والنصارى من معاناة وتحديات، مما يوجب على الأمة المسلمة أن تتنبه لهذا الأمر، وتأخذ له العدة والأسباب، وهذا المنشأ الرباني واضح بالنظر في تفسير الزهراوين.

وقبل أن أدخل في صلب الموضوع في ظل الكتاب المطروح: "اسلام اور مسيحي اقوام" يجب أن نضع في الاعتبار أمرًا هامًّا آخر، وهو تعيين مراد "الغرب أو المغرب" عند نقاشنا للعلاقة بين الإسلام والغرب، هل نريد به منطقة جغرافية تقع في الجانب الغربي من منطقتنا؟ أو نريد به معنى آخر؟ فإنا إذا أردنا المنطقة الجغرافية الواقعة في الجانب الغربي فهو يسبب مغالطات عجيبة، تحول دون الوصول إلى المقصود، فإن الإسلام لايعطي الارتباط الجغرافيائي من الأهمية ما أعطاه القوميون منذ القديم إلى يومنا هذا، والذي انتشر بشكل واسع في ظل الحضارة الأوربية السائدة حتى عادت القومية والوطنية مَثَلًا حضاريًّا لا يقبل التغير والنقاش، أما الإسلام فهو يرى القومية سببا للتعارف والتناصر من منظور فكري عالمي ذو أبعاد واسعة، والذي يقرره الحكم الإلهي القطعي: **"يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"** (سورة الحجرات: ١٣)، والذي مثَّلته في الماضي تلك الكلمة الشهيرة المضروبة المثل، التي قالها القائد العظيم طارق بن زياد عند ما أحرق سفنه: "إن كل دولةٍ دولتُنا فهي دولة ربنا"،[1] وهذا من صميم عقيدة المؤمن، فقد

(١) لعل الشيخ أشار إلى ما قاله شاعر الشرق العلامة محمد إقبال في كتابه پيام مشرق:
طارق چو بر کنار ره اندلس سوخته گفتند کارِ تو به نگاه خرد خطا ست ٥٥ دوریم از سوادِ وطن باز چوں رسیم ٥ ترکِ سبب زروئے شریعت کجا رواست ٥٥ خندید ودست خویش بشمشیر برد وگفت ٥ ہر ملک ملکِ ماست کہ ملکِ خدائے ماست (علامہ

قال تعالى: "**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**" (سورة البقرة: ١٠٧) وقال في موضع آخر: "**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**" (سورة الحديد: ٢) فالإسلام لا يحمل شيئًا من التقيد بحدود المنطقة والجغرافيا أو بحدود الزمان والمكان، ثم المغرب قد يطلق على منطقة من مناطق العالم الإسلامي، يدخل فيها كل من المغرب الأقصى (Morocco) والجزائر والأندلس المسلمة المفقودة، كما أنا أردنا بذلك البلاد الأوربية والأمريكية وغيرها من البلاد فهذا أيضا لايستقيم؛ فلا يعيشها غير المسلمين فحسب؛ بل يعيشها عدد هائل من المسلمين منذ قديم، ويرتفع عددهم في العصر الحاضر بشكل مبهر أقلق أعيان تلك البلاد فبدأؤا يبدون مخاوفهم بشأن هذا الارتفاع السريع حتى قال كبارهم: إن الإسلام سيكون ديانةَ الأكثريةِ في البلاد الغربية حتى عام ٢٠٥٠م، فشكَّلُوا لجانًا مستقلةً تبحث هذا الموضوع بكل جدية، واتخذوا تدابير متنوعةً للحد من انتشار الإسلام، أما هؤلاء المسلمون فقد استقاموا في بلادهم على الإسلام متحلِّين بمقومات الثقافة وعناصر المدنية المتطورة، مما جعلهم شعبًا متميزًا بفطنته وذكاءه، وإنسانيته ومساعيه الاقتصادية والسياسية والخيرية واهتمامه بالمنهج التعليمي المعاصر النافع ذي المعطيات الإيجابية، بجانب الاهتمام بالدعوة إلى الله سبحانه والتأثير الفعال في عقلية الشباب الغربي المعاصر، فالإسلام في البلاد الغربية يتعرض من جهةٍ لحملات فكرية عنيفة؛ ولكنه يتغلب عليها لمحاسنه وخصائصه الجميلة، ويؤثر في الشباب المعاصر تأثيرًا مباشرًا، فيندفعون نحو الإسلام باعتباره دينًا شاملًا لجميع نواحي الحياة، ومنسجمًا مع الفطرة الإنسانية والعقلية المعاصرة، كما تؤكدها التقارير الصادرة عن

اقبال، پیامِ مشرق،)- الترجمة: طارق بن زياد عندما أحرق سفنه في طريقه إلى الأندلس قال لنفسه: إن عملك خطأ من منظور العقل، فأنت بعيد عن الوطن فكيف ترجع الآن إلى وطنك؟ فإن ترك السبب حرام شرعًا، فبدأ بالضحك وقال واضعًا يده على سيفه: إن كل ملكٍ مُلكُنا فهو ملكُ ربنا.

المؤسسات الغربية، وهذا دفع أعيان تلك البلاد إلى اتخاذ تدابير شاملة، تمثلت في وضع أسس الكراهية للإسلام (Islamophobia)، وتمزيق صفوف المسلمين ودفعهم إلى بؤرة الاضطراب والقلق.

وقد جرى القلم بهذا كلِه استطرادًا، والحاصل أنَّا إن أردنا بالغرب المنطقة الجغرافية فتدخل فيه مئات الآلاف من المسلمين ، ويشكِّلُ تمثيلًا خاطئًا للغرض المقصود، فالمراد بالغرب هنا تلك الحضارة والمدنية والاتجاهات الفكرية، التي ظلت تُعارِض الإسلام منذ قرونٍ بأشكالها المتنوعة، وتتباعد عن الإسلام بُعدَ المشرقين، فالواقع أن الغرب يجب أن يُطلَق على هذه الحضارة الماديَّة ذات الاتجاهات المعارضة للإسلام فكرًا ومنهاجًا، وأنَّ كلَّ من دان لهذه الحضارة وآمن بهذه الاتجاهات الفكرية فهو غربي، سواء كانوا سكان أوربا من المستشرقين وغيرهم أو كانوا سكانَ آسيا من المستغربين وغيرهم، فالإسلام لا يولي المواقع الجغرافية كثيرَ اهتمام؛ بل يركز دائمًا على الفكر والمنهج، ويعتبره دائمًا أساسَ العلاقة والارتباط، وهنا ينبغي أن نستحضر أن قوة العلم وقوة الحجة والبرهان مما يميز الأمة المحمدية، وهذه تمثلت في أول ما وُجِّه إلى النصارى من الدعوة الإسلامية المصبوغة بالصبغة الاستدلالية، والتي تركتْ أثرًا إيجابيًّا في المدعووين وأفكارهم ومزاجهم، وقد بدئت هذه العلاقة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما بَعَثَ نبيُّنا المصطفى عليه السلام صاحبَه دحية الكلبي برسالته المباركة سفيرًا إلى قيصر عظيم الروم، كما بعث إلى الأمراء الآخرين الخاضعين لقيصر سفراءَه، وكان منهم النجاشي ملك الحبشة، الذي يحكم الحبشة (الآن إثيوبيا Ethiopia) كممثلٍ لإمبراطورية قيصر الروم، ومنهم ملك مصر جريح بن متي المقوقس، الذي كان يحكم مصرَ والإسكندريةَ باسم قيصر، وقد ظهر هذا اللون الدعوي الحكيم في كلمة الصحابي

الجليل جعفر الطيار ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم أمام النجاشي ملك الحبشة، والتي تركت أثرًا بِدائيًّا مشرقًا في قلب الملك النجاشي، وكانت النقطة المركزية التي ذكرها الرسول في رسائله إلى الملوك النصارى ما جاء في قول الله تعالى:
"قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾".

وكانت هذه الدعوة الإسلامية بأسلوبها المحبَّب وقوتها العلمية جعلت الأممَ النصرانيةَ يفكرون بجدية في الأمر، واستمالت قلوبهم، وفتحت للدعوة أبوابًا واسعةً في بلاد القارة الإفريقية، فكان المنهج الدعوي القرآني أولَ صلة رسمية بين الحضارة الإسلامية والحضارة النصرانية المتعارضتين، وإن كانت العلاقة بين المسلمين واليهود والنصارى قائمة منذ بداية الإسلام بواسطة، وكانت الآيات القرآنية تنزل بين فينة وأخرى لتؤكد على أن العلاقة بين المسلمين واليهود والنصارى سوف تظل علاقة ضاربة الجذور في قادم الأيام القريبة والبعيدة، وتتمثل في الحرب والسلم والحرارة والبرودة وما إليها من المظاهر المتنوعة، وقد ظهرت لها نتائج إيجابية بعيدة المدى، حيث إن الإسلام دعا إلى توحيد الله وربوبيته وأقام على ذلك براهين علمية؛ ولكن اليهود والنصارى أقاموا على ذلك براهين الحس والمشاهدة، فكأن منصب الدعوى وإثباتها بالدلائل العلمية فُوِّض إلى الأمة المحمدية؛ وذلك لما لها من قوة في العلم وسعة في الفكر، أما إثبات الدعوى بدلائل الحس فهو مُفَوَّض إلى اليهود والنصارى، فعليهم تكوينيا أن يقيموا دلائل الحس والمشاهدة على الدعاوي القرآنية الممتدة من الأرض إلى السماء، ليتم توازن شامل بين الدعوى والدليل، إلا أن تعريف أمم العالم بحقائق الأشياء الكونية في ضوء الكلام الرباني أُسْنِدَ أمرُه إلى الأمة المسلمة وتلاميذِ المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وكان الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي رحمه الله الرئيس الأسبق للجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند من العلماء الأعلام في القرن العشرين، حيث رزقه الله حظًا كبيرًا من قوةٍ في الفكر، وسعةٍ في العلم، وعمقِ النظر في المصادر الإسلامية، واستحضارٍ للعلوم والمعارف، ومقدرةٍ فائقةٍ على شرح أصول الدين وإثباتها ببراهين عقلية ونقلية مسلَّمة، وملكة عجيبة في تحليل النصوص، واستقراء المعلومات واستنباط اللطائف والفوائد العلمية، ومن ثم تعتبره الأوساط العلمية ورجالها ومشاهيرها في الهند وخارجها أحدَ أعلام الإسلام ورمزًا من رموز الفكر والوسطية وشخصيةً موسوعيةً متعددةَ المواهب ومتنوعة النبوغ، وكانت معارفُ حكيم الإسلام وعلومُه أحقَّ بأن تكون مواضيعَ البحث وبؤرةَ الاهتمام، فبعد إلحاح متواصل من علماء الهند وخارجها أقيم في رحاب الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند مجمع حجة الإسلام للبحث والتحقيق، لينهض بأعباء البحث والتحقيق ويزود الشبابَ الإسلاميَّ بمايحتاج إليه من معلومات إسلامية سليمة وتحقيقات علمية نادرة بأسلوب علمي معاصر، وتحقيقًا لهذه الأهداف نشط المجمع في أعمال البحث والتحقيق والترجمة والتحليل، وترجمةُ كتاب اسلامي تعليمات اور مسيحي اقوام للشيخ حكيم الإسلام المقرئ محمد طيب القاسمي إلى اللغة العربية من ثمار هذه الجهود المتواصلة، وبما أن هذا الكتاب يبحث بأسلوب علمي العلاقة بين المسلمين والنصارى وما طرأ عليها من شدة وخفة، وحرب وسلم، نرجو أن هذا الكتاب سيلعب دورًا إيجابيًّا رائعًا في الموضوع، وسيتقبله الوسط العلمي بقبول حسن بإذن الله.

إن هذا الكتاب يقوم بدراسة تحليلية إيجابية لما تميزت به الأمة المسلمة والأمة المسيحية من أحوال العلم والمعرفة والحضارة والاجتماع، ويبحث إيجابيات

وسلبيات القاسم المشترك بين الأمتين في ضوء الأصول العلمية، ويخلص إلى أن خصائص اليهود والنصارى الاجتماعية والحضارية والنفسية كما عملت في الماضي في تطوير النظام الكوني بشكل تدريجي، ولكنها الآن تشكل دلائل قاطعة على دعاوي الإسلام، فالكتاب يتناول أساسًا موضوع عوامل بناء مزاج الأمم الثلاث وعناصره، والموازنة بينها على أساس العلم والحضارة، والوصول إلى الحقائق الإيمانية المبهرة من خلال نتائج وآثار هذه الأمم، ويشرح الأمور بترتيب طبيعي، أوله: أن الأنبياء تلاميذ الرحمان، فالرحمان يعلمهم ويربيهم، ومنهم تستفيد الإنسانية في كل مكان، وذلك أن لكل نبي شأنا مميزا، وهذا الشأن المميز يترك أثره في أمته، وبذلك تصطبغ الأمة بصبغة نبيه، وبتعبير آخر: إن كل نبي من أنبياء الله يستفيد من صفة مخصوصة من صفات الله سبحانه، فبهذه الصفة تتشكل شخصيته وبها تفيد أمته وتربيها ذهنيا وعقليا.

ومعلوم أن كل نبي من أنبياء الله سبحانه له شخصية جامعة بين صفات الفضل والنبل والصلاح والكمال البشري، إلا أن لكل نبي لونًا خاصًا يميزه عن سائر الأنبياء، عليهم السلام، كأن كل نبي اختُص بصفة إلهية، تمثلت في أعماله وسلوكه.

وعلى سبيل المثال فقد اختص إبراهيم عليه السلام أحد أولي العزم من الرسل بصفة القدوسية الإلهية، وقد ظهرت آثاره في مشركي مكة والبراهمة الهنود، فهم يمارسون أعمال الحرز والاحتراز، والطيرة والتشاؤم، بأشكاله المتنوعة، فاستفادوا من هذه الصفة بشكل غير شرعي، مما دفعهم إلى حضيض الشرك، بينما تمثلت صفة التقليب الربانية في أعمال موسى عليه السلام، فظهرت آثارها في أمته أيضا، كما ظهرت في حياة عيسى بن مريم عليهما السلام صفة الإحياء والتصوير الربانية، وفي هذا اللون التصويري اصطبغت الأمم المسيحية، فالأمم المسيحية في

مزاجها التصويري مدينة لنبيها المسيح بن مريم، فكان الإحياء والتصوير من معجزات سيدنا المسيح بن مريم عليه السلام، وإن ما يتم الآن بأيدي الأمم المسيحية من أنواع المخترعات وصنوف الاكتشافات؛ فكل ذلك راجع إلى الشأن التصويري الذي تميز به نبيهم المسيح بن مريم عليه السلام، وإن كان النصارى قد حادوا عن الطريق السوي باعتبارهم الوسائطَ غاياتٍ، فقد وضعوا هذه الاختراعات نصب أعينهم، فركزوا كل عناياتهم على الاختراع والإيجاد، وتركوا غاية هذه الوسائل، فكان عليهم دعوة الناس إلى الله، وربطهم بربهم وكتابه ونبيه، وتفنيد القيل والقال ببيان الحقائق الكونية؛ ولكنهم ضلوا الطريق، وتركوا دعوة نبيها، فوقفوا مواهبهم التصويرية على التنوع المادي والافتنان الاختراعي، وأَبْعَدَهُم عن مقصد الحياة الأصيل استغراقُهم في المادية وانقطاعُهم إلى الوسائل والاكتشافات، حتى عادت من الصعب -إن لم يكن مستحيلا- عودتهم إلى الطريق الحق والغاية الصحيحة.

وبعد هذا كلِّه سرِّح طرفَك على آخر لبنةٍ أكملت بناء قصر النبوة: محمد رسول الله خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم الذي ميَّزه الشأن العلمي المبهر المتمثل في قوله عليه السلام: أوتيت علمَ الأولين والأخرين، سرح طرفك وبدقة متناهية على أقواله وأفعاله وأحواله تجد أن العلم والإدراك والمعرفة والدراية هي التي تتحكم في جميع شؤونه وأحواله، في كلياته وجزئياته، وفي أصوله وفروعه؛ بل علومه مجمع العلوم، ومعارفه منبع المعارف، بها تفتح ألوف من مغاليق المعارف، وبها تستضيء ألوف من مجاهيل الدراية، وبناء على الأصل المقرر قد أثَّر هذا الوصفُ المميزُ في عقلية الأمة المسلمة، فنشأت لديها عقليةٌ مثقفةٌ وملكةٌ علميةٌ قويةٌ، ففي ضوء هذه العقلية العلمية المتميزة سارت الأمة المسلمة أشواطًا علميةً بعيدةً،

وقطعت مسافاتٍ عرفانيةً شاسعةً؛ بل ملأت الدنيا علمًا وعرفانًا، وفجَّرت ينابيع الدراية والحكمة، نَهِلَ من هذه المناهل الأقارب والأباعد، والأصدقاء والأعداء، واصطبغت الأقوام كلها بهذه الصبغة العلمية، فكل أمة تحلَّتْ بحلية العلم، فذاك فيض من فيوض الأمة المسلمة، وإن انكشفت للناس المراحل الكونية المغلقة، والأسرار العلمية الغامضة فذلك أثر من آثار التعليمات القرآنية، والهداية الربانية، فكأن القرن السادس الميلادي يمثل طلوع الفجر الأبلج بالنسبة إلى البشرية، فقد جاء مبشرا بالتقدم الإنساني الشامل لجميع نواحي الحياة، وإعلاناً بأن العقل الإنساني قد دخل في مرحلة الشباب والكهولة بعد قطع مراحل بدائية مختلفة، وأن كل تقدم ستشهده البشرية في قادم الأيام فهو راجع إلى التعليمات المنورة من القرآن الكريم؛ بل ستكون هذه التعليمات أساس المعارف والحكم، التي تسعد بها البشرية إلى يوم القيامة، فلاغناء للبشرية عن التعليمات القرآنية.

ولا أريد بذلك أن القرون التي سبقت نزول القرآن كانت خالية من العلوم والمعارف، بل البشرية مازالت مستفيدة من علوم الأنبياء السابقين، وسالكة طريق العلم والحكمة بفضل هذه العلوم، فسلسلة التقدم العلمي في مجالات الروح والمادة، التي بُدئت منذ سيدنا وأبينا آدم عليه ظلت جارية حسب المنشأ الرباني، ومضت تفيد الأقوام والملل تدريجيا، إلى أن انتهت بسيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فعهد رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم هو عهد زاهر، هو عهد بلوغ العقل البشري غايته، فكأن عهد آدم عليه السلام هو عهد بداية العقل البشري، وعهد بداية الإدراك والمعرفة، المتمثل في قوله تعالى: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (سورة البقرة: ٣١)، ثم قطع العقل البشري مراحل متنوعة من الإدراك والتميز حتى دخل في مرحلته الأخيرة، حيث بلغت مرحلة إدراك كليات الدين وجزئياته؛ بل مرحلة

إدراك الأسرار الكونية وفتح أقفال الأسباب والعلل، وخلاصة هذا التفكير أنَّ القرآن الكريم وتعليماته هي النقطة البدائية لجميع العلوم والمعارف والاكتشافات والإنتاجات المدهشة التي شهدها العالم طوال أربعة عشر قرنًا وفي هذا القرن الذي نعيشه نحن وأبناؤنا، وليس هذا زعما محضا؛ بل هي دعوى أيَّدتها الوثائق العلمية العديدة والشهادات الكثيرة، فإن أنكرها أحد بعد مشاهدة الشهادات المبعثرة من الأرض إلى السماء فماذا نقول سوى ما قاله سبحانه: **"لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"** (سورة الأعراف: ١٧٩) .

فهناك شواهد كونية لاتعد ولا تحصى على صدق ما قلت؛ ولكني أكتفي في النهاية بشاهد قرآني واحد، فقد كتب العالم المتميز في شبه القارة الهندية سلطان بشير في كتابه: In search of reality ما حاصله: إن بعض وكالات الأبحاث العلمية الأميركية قد أقامت بعض بحوثها ودراساتها العلمية على أساس القرآن الكريم، وآياته الكونية المذكورة في السياقات المتنوعة، فتوصلوا إلى نتائج مدهشة، فتحت لهم أبوابا جديدة للتفكير، فيقول المؤلف: إن آية: **"أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ"** (سورة البقرة: ١٩) تشير إلى أن الماء العذب الذي يُستخدم في الأرض للشرب يتوقف على نزوله من السماء، ويكشفه العلم الحديث بأن ارتفاع البخار من البحار يعتمد على الشمس، وإذا اجتمعت في الجو هذه البخارات متمثلة في السحاب، احتاجت هذه البخارات إلى الذرات البرقية لتتحول ماءً، وهذه الذرات هي الأخرى تتنزل من السماء، لكونها ماخوذة من الأشعة الكونية الخارجة من السيارات الأخرى، فإذا لم تتواجد هذه الذرات لن تتحول البخارات ماءً، ولن ينزل المطر أبدا، فعلى السماء يتوقف تحول الماء بخارا، وهبوب الرياح وحصول الماء ،

الذي جعل الله منه كل شيء حي، فهذا إعجاز علمي للقرآن، يكشف بكلمات عن الحقائق الكونية العظيمة التي يحتاج شرحها إلى مجلدات، وقد اختصر القرآن كل هذه الفلسفة بكلمتين: أو كصيب من السماء، فالمؤلف يرى أن المقارنة بين الدين والعلم الحديث قد تؤدي بنا إلى محور مشترك ونقطة جامعة بينهما، وهي البحث عن الحقيقة، فهذه هي الغاية المشتركة بينهما، فعلماء الدين من خلال علومهم الدينية وعلماء الطبيعة من خلال بحوثهم العلمية يحاولون البحث عن الحق والصدق، شعروا أم لم يشعروا، وإن لم يكن الأمر كذلك فلا أقل من أنهم يمهدون الطريق المستقيم للآخرين من أصحاب الفكر والنظر؛ ولكن الوصول إلى هذه الغاية لن يتأتي بدون الاعتراف بالوحي الإلهي.

جاء هذا كله استطرادا، وأظنه لايخلو من الفائدة، والحاصل أن دراسة هذا الكتاب تفيد القارئ، وتساعده في شرح جهات عديدة للفكر والنظر، وتزوده بمعلومات نادرة بإذن الله، وكان من حق هذا الكتاب أن يترجم إلى لغات عالمية مختلفة، وعلى رأسها اللغة العربية: لغة الكتاب والسنة، ومن ثم أخذ مدير مجمع حجة الإسلام الدكتور محمد شكيب القاسمي قرارا جميلا، تمثل في ضرورة الترجمة إلى العربية، وفوَّض عملية الترجمة إلى الأستاذ الباحث المترجم القدير محمد نوشاد النوري القاسمي، الذي قام بعملية الترجمة خير قيام، فجزاه الله خيرا، ونفع بهذا الكتاب، ووفق المجمع والعاملين فيه للاستمرار على درب البحث والتحقيق بكل تفان وإتقان، آمين يا رب العالمين.

محمد سفيان القاسمي

رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند

تصدير

بقلم فضيلة الشيخ الدكتور مُحَمَّد شكيب القاسمي

نائب رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند

ومدير مجمع حجة الإسلام

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد!

فمنذ أن قام مجمع حجة الإسلام بمهمة نشر المآثر العلمية لعلمائنا باللغات العالمية المختلفة عن طريق التحقيق والتسهيل والترجمة؛ منذ ذلك اليوم مازال سائرًا على هذ الدرب العلمي الدؤوب، فقد وفقه الله سبحانه ليعطي ثماره ويؤتي أُكُلَه بين فينة وأخرى، وقد أشاد العلماء والأكاديميون في الهند وخارجها بأعمال المجمع واصفين إياها بضرورة العصر الحاضر.

إن ترجمة كتاب "اسلامي تعليمات اور مسيحي اقوام" للشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي تأتي ضمن هذه السلسلة العلمية المباركة، وكان من حق الكتاب أن يترجَم إلى اللغات العالمية، فقد تناول الشيخ هذا الموضوع ببيانٍ منطقيٍ عجيبٍ، أملاه عليه علمه الغزير وعقله المنير، وقلبه البصير، فهو يتحدث عن الأمة المسلمة والأمة المسيحية، وما بينهما من قواسم مشتركة وعناصر مفترقة، وفي هذا الصدد يستطرد إلى طرق تشكيل الأمة، وكيفية تكوين المزاج القومي،

وأسس تغييره، كما يوضح الشيخ أن ما بين الأمتين من نقاط الاختلاف لم يحدث مصادفة، وإنما قام وفق سنن الله في الخلق، وأن الاكتشافات الحضارية الغربية قد قدَّمت ولا تزال تقدم دلائل على صدق نبوة نبينا محمد وحقية الإسلام وموافقته للعقل والفطرة، مهما كره الكارهون، وأن القضايا الكبرى التي ينتظرها العالم لاسيما أتباع الديانات السماوية كخروج الدجال ونزول المسيح بن مريم والملاحم العظيمة وأنواع الفتن ستقلب الأمور ظهرًا لبطن، وتُحدث ذبذبةً هائلةً في العالم، ولكنها في نهاية الأمر تُوَحِّد الأمتين والأمم الأخرى، وتعلو كلمة الله على الأهواء والأنظمة البشرية الأخرى، بهذا الأسلوب الحكيم فنَّد هذا الشيخ الحكيم الاعتراضات الواهية المثارة ضد الإسلام، وأثبت صلاحية الإسلام لكل عصر ومصر، وأن التقليد الأعمى للحضارة الغربية يجر على الإنسانية كلها شرًّا وبيلًا، وخطرًا مستطيرًا.

وبذلك كان الكتاب فريدًا في بابه؛ بل قد لايوجد في المكتبة الأردية كتاب يماثله في الفكر والأسلوب، ومن أجل ذلك كان هناك شعور شديد في أوساطنا العلمية بضرورة ترجمته إلى اللغة العربية وغيرها من لغات العالم، وظل مجمع حجة الإسلام منذ أول يومه مهتمًّا بنشر وتحقيق وترجمة المآثر العلمية، وقد تم إنجاز نحو ثلاثين من أعمال البحث والتأليف والترجمة، وهذا راجع بعد فضل الله سبحانه إلى الباحثين المخلصين، الذين يواصلون أعمالهم ليل مساء، ويدأبون على المهمات العلمية، ويحققون مشاريع مجمع حجة الإسلام بكل تفانٍ وإخلاص، جزاهم الله خيرا.

أما بالنسبة إلى ترجمة هذا الكتاب فقد تم تفويض هذه المهمة إلى الباحث الضليع، المترجم الخبير، الأستاذ محمد نوشاد النوري القاسمي، الذي قد سبق أن

صدرت بقلمه أعمال علمية عديدة، حصدت إعجاب واستحسان الأوساط العلمية، فقد أكمل هذه المهمة في غضون شهور، وبشكل بحثي مقبول، فجزاه الله خيرا الجزاء، وأجزل له أجرا.

واللهَ أدعو أن ينفع بهذا الكتاب ويتقبل أعمال مجمع حجة الإسلام وأعضائه ويجعلها خالصة لوجهه الكريم آمين يا رب العالمين.

أ.د. محمد شكيب القاسمي

مدير مجمع حجة الإسلام

ونائب رئيس الجامعة الإسلامية

دار العلوم وقف ديوبند

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد!

فالإسلام والمسيحية وما بينهما من نقاط الاتفاق والاختلاف موضوع كُتب حوله الكثير، واختلفت الرؤى والزوايا الفكرية باختلاف الكُتَّاب والباحثين، ومن أهم الكتب المؤلفة في الموضوع كتاب "اسلامي تعليمات اور مسيحي اقوام" للشيخ حكيم الإسلام المقرئ محمد طيب القاسمي رحمه الله، وذلك لما انفرد به الكتاب من موضوع طريف، وبحث دقيق، واطلاع واسع، ومقارنة صائبة، فلم يطرق الشيخ الموضوع بنظرة عاجلة؛ بل بنظرة فلسفية عميقة، تتضح خلالها طبيعةُ الأمَّتين: المسيحية والإسلامية، وتتجلى المباحث الحضارية الأخرى، بما فيها: كيفيةُ تَشَكُّلِ الأمةِ وكيفية تكَوُّنِ الطبيعة القومية، وطرق استخدام المواهب القومية، بالإضافة إلى إبراز موقف الأمة المسلمة من الأمم الأخرى، لاسيما الأمة المسيحية، وبيان ما بين الإسلام والمسيحية من قواسم مشتركة ومن فوارق في الفكر والمعتقد والطبيعة والحضارة، فالكتاب كله متعة روحية ولذة علمية من حيث السرد المعقول، والاستنباط المشرق، والمباحث النفيسة، والروائع الفكرية، والنتائج المرضية.

وليس هذا غريبًا على الشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي[١٨٩٧م – ١٩٨٣م] الذي يلقبه العلماء في الديار الهندية بـ "حكيم الإسلام"، والذي عُرف بسعة اطلاعه وامتلاكه لناصية البيان، ومقدرته العجيبة على شرح الفكر الإسلامي الأصيل بأسلوب حكيم، وفي غاية من الاتزان والاعتدال.

إن هذا الموضوع هام للغاية في وقتنا هذا، فهو يتصل أساسًا بموضوع مقارنة الأديان، وهو موضوع قد كثُر حوله الجدل، واختلفت المناهج، مما خَلَطَ الحابلَ بالنابلِ، ولَبَسَ الحقَّ بالباطلِ، فالدراسة المقارنة للأديان ليست بحثًا عن الحق والصواب، ولا محاولةً للمعرفة بأجمل الشرائع والملل، فالإسلام هو خير الأديان وآخرها وناسخ غيرها من الملل السماوية وغيرها، ومن أجل ذلك لم يقصد مؤلف هذا الكتاب دراسةً مقارنةً بين الإسلام والمسيحية وفق المصطلح الشائع؛ ولكن بَحَثَ الموضوعَ بروح الحوارِ البناء والتحليل العلمي والنقد الهادف، وانصبَّ اهتمامه على الجوانب الاجتماعية والحضارية أكثر من الجوانب الدينية والعقائدية، وخَلَصَ إلى أن العلاقة بينهما علاقة الحقيقة والصورة وعلاقة الظاهر والباطن، وأنه مهما تعَمَّق بينهما نزاع، وتوسَّعت بينهما فجوة؛ ولكنهما تجتمعان عاجلا أو آجلا إلى نقطة التلاقي والاتفاق كما أخبر به الحديث النبوي.

ونقطة التلاقي والاتفاق التي هدف الشيخ إلى إبرازها هي النقطة الغائبة اليوم عن المجتمع البشري، فالمجتمع البشري عاش -ولا يزال- قرونًا من الدهر تحت كابوسٍ مروعٍ من الحقد والكراهية والتعصب، وهو اليوم متعطش إلى من ينظم البشرية في سلكٍ من الود والوئام، ويُخَلِّصُه من هذه البراكين الثائرة، وقد تنبَّه لهذا المجتمعُ العالميُّ وأعاد للتعايش السلمي قيمته؛ حتى عاد موضوعُ الحوار والتعايش السلمي من أساسيات المجتمع الإنساني، اجتمع الناسُ على أهميته والتشبث بمبادئه، وقد تناول الشيخ حكيم الإسلام هذا الموضوعَ في كتابه هذا، وتحدَّث عنه بروح الفيلسوف وعالم الاجتماع، مشفوعًا بالصبغة الدينية العلمية ذات الوسطية والأسلوب الحكيم.

وكانت الحاجة ماسَّة إلى ترجمة هذا الكتاب إلى اللغات العالمية وعلى رأسها اللغة العربية واللغة الإنجليزية، وقد شعر بهذه الحاجة الدكتور محمد شكيب القاسمي مدير مجمع حجة الإسلام ونائب رئيس الجامعة، فأسند إليَّ مهمة ترجمته إلى اللغة العربية، وقد شكرت له على هذا، وبدأت الترجمة باسم الله، حتى أكملتها في غضون شهور، ولله الحمد.

وقد راعيت في الترجمة الجمع بين روح الكتاب وبين طبيعة اللغة العربية، لتكون الترجمة معبرة عن المعنى، ووسطا بين الترجمة الحرفية وبين الترجمة الحرة التي تطغى على مراد المؤلف، كما قمت بتخريج الآيات والروايات بعزوها إلى المصادر.

وأشكر الله سبحانه على ما وفقني لهذا العمل وأسأله أن يكتب له النفع والقبول بفضله، كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى رئيس الجامعة فضيلة الشيخ محمد سفيان القاسمي وإلى أخي الفاضل الدكتور محمد شكيب القاسمي نائب رئيس الجامعة ومدير مجمع حجة الإسلام على حسن ظنهما بي وعلى كتابة سطور قوية، زادت الكتاب قيمةً والمترجمَ شرفًا وتشجيعًا، فجزاهما الله خير الجزاء وتقبل منهما جهودهما العلمية والفكرية آمين.

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

محمد نوشاد النوري القاسمي

١٥/ ٠٩/ ٢٠٢٣م

تعريف موجز بمؤلف الكتاب

هو العالم البارز الكبير الشيخ محمد طيب القاسمي بن الشيخ الحافظ محمد أحمد القاسمي بن الإمام حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي، ولد في محرم ١٣١٥هـ، الموافق يونيو ١٨٩٧م في مدينة ديوبند، وتلقى كلا من الدراسة الابتدائية والمتوسطة والعليا في العلوم الشرعية في الجامعة الإسلامية/ دارالعلوم ديوبند.

تخرج الشيخ في الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند عام ١٣٣٧هـ، الموافق ١٩١٩م، وكان من أجل تلامذة الإمام العلامة سيد أنور شاه الكشميري، وقد تخرج في التزكية والإحسان على كل من شيخ الهند محمود حسن الديوبندي والشخ محمد أشرف علي التهانوي، كما حصلت له إجازات حديثية من أعلام الحديث في عصره.

وفي العام التالي ١٣٣٨هـ عُين الشيخ أستاذًا بالجامعة، وبدأ يدرس الكتب العلمية المختلفة، ولم تنقطع صلته عن التدريس طوال حياته.

لمحات بارزة من حياته:

أ- رئاسة الجامعة الإسلامية/ دارالعلوم ديوبند لمدة أكثر من خمسين سنة (من ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م إلى ١٤٠١هـ/ ١٩٨٢م):

عين الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي نائب رئيس الجامعة الإسلامية/ دارالعلوم ديوبند في عام ١٣٤١هـ الموافق عام١٩٢٤م، ثم أسند إليه منصب رئاسة الجامعة في ١٣٤٨هـ الموافق عام١٩٢٩م، وبقي عليه حتى آخر حياته.

كان حكيم الإسلام الشيخ محمد طيب القاسمي رئيساً موفقـاً للجامعـة، زاد من قدر الجامعة وشعبيتها على الصعيد العالمي، ففي عهـده المبـارك بـرزت الجامعـة كأكبر جامعة إسلامية أهلية على وجه الأرض، وهـب العلـماء الكبـار يتوافـدون إلى الجامعة يسجلون انطباعاتهم العالية تجاه الجامعة، وفي هـذا العهـد الميمـون شـهدت الجامعة تطورات علمية وإنجازات بنائية هائلة، فأدخلت تحسينات موسعة في المبـاني القديمة، وتم بناء عدد من المسـاجد والمبـاني الجميلـة الرائقـة، والبوابـات الرشـيقة وقاعة الحديث والفصول الدراسية بشكل سار.

ب–نبوغه في الخطابة:

كان حكيم الإسلام الشيخ محمد طيب القاسمي خطيبـاً ذلـق اللسـان قـوي العارضة، شديد البرهان، كان يتحدث باستمرار ساعات طويلة كسـحابة ممطـرة، لا تمل ولا تنقطع، وكان أخطب العلماء في عصرـه، وأفصـحهم عـلى الإطـلاق، حتـى قيل: انتهت إليه رئاسة الخطابة في عصره.

ج– مهارته في الكتابة:

كان الشيخ كاتبا رشيقا، سهل الأسلوب، عفوي البيان، فقد ظهر نبوغه في الكتابة في وقت مبكر، كان وثيق الصلة بالقلم، لايفارقه في الحل والترحال، كان ينطق قلمُه إذا سكت لسانه، وكان سلطان قلمه كسلطان لسانه، إذا خطب استمع إليه الحضور بشوق ولهف، وإذا كتب تناولته الأيدي بنهم ورغبة.

وألف الشيخ حكيم الإسلام أكثر من مائة كتاب علمية دعوية قيمة.

د- موهبته الشعرية:

الشعر له وقع حسن ومفعول ساحر في القلوب، يملك الشعر الواحد من التأثير والهزة والإثارة مالا تملكه خطب طويلة وعريضة.

كان الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي شاعراً مجيداً، بدأ الشعر في أيام الطلب بالجامعة، وكان يقول الشعر باللغات الثلاث: العربية والفارسية والأردية، ومعظم الأبيات باللغة الأردية، كان ينتحل اسم "عارف" في أشعاره، وله عدة دواوين، منها: ١- جنون الشباب، و ٢- عرفان عراف، و٣-قصة العين، و٤- أمنية دار العلوم، وكلها مطبوع، مما يدل على ذوقة الأدبي وامتلاكه لناصية البيان.

هـ- مؤهلات القيادة الرشيدة:

كان مع ذلك قائداً سياسياً بارزاً، له مشاركة فعالة في الحركات السياسية، قام بدور ريادي في تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند، وهي رصيف سياسي مركزي للمسلمين في الهند، يجمع بين الانتماءات والمذاهب الإسلامية المختلفة، ولها مواقف مشكورة في خدمة الإسلام والمسلمين.

وفاته:

توفي الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي يوم الأحد في السادس من شهر شوال عام ١٤٠٣هـ الموافق ١٧ يوليو عام١٩٨٣م عن ٨٨ عامًا ، وصلى عليه نجله الأكبر الشيخ محمد سالم القاسمي، ودُفن في المقبرة القاسمية بديوبند، رحم الله الشيخ الجليل وتقبل منه مساعيه المشكورة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

و–مؤلفاته:

١- *تعلیمات اسلام اور مسیحی اقوام* (الإسلام والمسيحية: دينًا وحضارةً)

٢- *اسلام کا اخلاقی نظام* (النظام الخُلُقي للإسلام)

٣- التشبه في الإسلام

٤- *اسرائیل کتاب وسنت کی روشنی میں* (إسرائيل في ضوء الكتاب والسنة)

٥- *اصول دعوت اسلام* (مبادئ الدعوة الإسلامية)

٦- *انسانیت کا امتیاز* (المميزات الإنسانية)

٧- *ایک قرآن* (القرآن الواحد)

٨- *حدیث رسول کا قرآنی معیار* (المعيار القرآني للأحاديث النبوية)

٩- خاتم النبيين- صلى الله عليه وسلم

١٠- روايات الطيب

١١- *سائنس اور اسلام*(الإسلام والعلم)

١٢- *شان رسالت* (شأن الرسالة المحمدية)

١٣- *شہید کربلا اور یزید* (حسين شهيد كربلا ويزيد)

١٤- علم الغيب

١٥- *علماء دیوبند کا دینی رخ اور مسلکی مزاج* (علماء ديوبند مذهبًا ومنهاجًا)

١٦- *مسلک علماء دیوبند* (مذهب علماء ديوبند)

١٧- *فلسفہ نماز* (فلسفة الصلاة)

١٨- كلمة طيبة (الكلمة الطيبة)

١٩- مقالات طيب (المقالات الطيبة)

٢٠- *اسلامی آزادی* (الحرية الإسلامية)

٢١- عالمی مذہب (الدين العالمي)

٢٢- مقامات مقدسہ (الأماكن المقدسة)

٢٣- خطبات حکیم الاسلام

٢٤- نونية الآحاد

٢٥- فلسفہ نعمت ومصیبت (فلسفة النعمة والنقمة)

٢٦- فتوی دار العلوم اور اس کی حقیقت (حقيقة فتوى لدار العلوم)

٢٧- اسلام اور فرقہ واریت (الطائفية في الإسلام)

٢٨- سفر نامہ افغانستان (مذكرات رحلة أفغانستان)

٢٩- عرفان عارف (ديوان مطبوع).

أولاده:

كان للشيخ أربعة أبناء وأربع بنات، وهم كما يلي:

١- الشيخ محمد سالم القاسمي، وهو أكبر أولاده، ولد في يناير ١٩٢٦م، وتوفي في عام ٢٠١٨م، كان عالما جليلا، ومفكرا شهيرا، أسَّس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند بعد اختلاف إداري، وبلغ بها ذورة الارتقاء والشهرة، شغل مناصب هامة، منها نائب رئيس هيئة الأحوال الشخصية لعموم الهند، ومنها رئاسة الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند، ومن أولاده الشيخ محمد سفيان القاسمي، الذي يرأس هذه الجامعة في هذه الأيام، كما يشغل الدكتور محمد شكيب القاسمي ابن الشيخ محمد سفيان القاسمي منصب نائب رئيس الجامعة.

٢- الشيخ محمد عاصم القاسمي، وهو ثاني أولاده، وقد توفي في الرابع عشر من عمره في ٧ من شهر مايو عام ١٩٤٢م.

٣- الشيخ محمد أسلم القاسمي: ولد في عام ١٣٥٧هـ الموافق ١٩٣٨م، تلقى الدراسة كلها في دارالعلوم ديوبند، وعمل موظفا في مختلف الأقسام فيها، كما شغل منصب رئاسة التدريس في الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند، توفي في عام ٢٠١٦م، كان من العلماء المبرزين والخطباء النابهين.

٤- الشيخ محمد أعظم القاسمي: ولد في عام ... تلقى التعليم في دار العلوم ديوبند ثم التحق بجامعة علي جراه الإسلامية، وأكمل الدكتوراه في عام .. ثم عين أستاذا في جامعة علي جراه، وقد أحيل إلى المعاش عام ....

٥- الآنسة فاطمة بيكم: وكانت من أكبر بنات الشيخ محمد طيب القاسمي، تم زواجها من الأستاذ رشيد أحمد المتوطن في مديرية بريلي، وبعد تقسيم الهند هاجرت إلى باكستان، وتوطنت في مدينة كراتشي، وهنا توفيت ودفنت.

٦- الآنسة هاجرة بيكم: تم زواجها من الشيخ حامد الأنصاري غازي عضو المجلس الاستشاري لدار العلوم ديوبند ومدير صحيفة "المدينة" الصادرة عن مدينة بجنور، كانت كاتبة روائية، فلها أكثر من ١٨ رواية أردية شهيرة، توفيت في عام ٢٠٠٦ في مدينة علي جراه، ودفنت في مقبرة جامعة علي جراه.

٧- الآنسة حميراء بيكم: تم زواجها من السيد احتشام الكاظمي، وهاجرت إلى باكستان بعد تقسيم البلاد، ثم انتقلت إلى أمريكا.

٨- الآنسة عذراء بيكم: تم زواجها من الدكتور أفضال الديوبندي، وبعده بعم ونصف عام انتقلت إلى رحمة الله عن عمر يناهز ٢١ عاما، ودفنت في المقبرة القاسمية بديوبند[1].

---

(١) انظر: محمد شكيب القاسمي وآخر، حيات طيب، (الهند: مجمع حجة الإسلام، ط٢، ٢٠١٤م).

مقدمة المؤلف

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد!

فإن بريق الحضارة المادية المعاصرة ومنجزاتها الباهرة خلب العقول وخطف الأبصار إلى حد أن الحقيقة غابت عن الأنظار، وحلت الوسائل محل الحقيقة والغاية، وعادت الأمم والحكومات بشكل فردي واجتماعي تعتبر هذه الوسائل المادية سِرَّ التقدم والتطور، إن هذا اللمعان الخادع للحضارة المادية أثَّر تأثيرًا سلبيًّا في الحياة الاجتماعية للأمم؛ بل استعبد عقولها وتملَّك على قلوبها، وأصبحت الحياة الروحية- وهي منبع الملذات الدائمة ومصدر السعادة الخالدة- غريبةً على الدنيا، لايُلتفت إليها.

دع الأممَ وشأنها، وفكر في المسلمين الذين أقاموا نظامًا روحيًا وخلقيًا عالميًا، أزرى بنور الحضارات المادية كلها، كيف انبهروا بالحضارة المادية الغربية المعاصرة؛ حتى لايستطيعوا الاستفادة من نور فجرهم المتبلج، وقد بلغ هذا الانبهار إلى حد أن كثيرًا من الكتاب المسلمين أصبحوا يعتبرون اكتشافات علم الحديث الباهرة قوامَ الحياة ومدارَ المدنية، وبعضهم يعتبرون هذه الوسائل المادية مقاصدَ الإسلام السامية، وبعضهم يعتبرون استخدام قوة الذرة والآلات الكهربائية عينَ المنشأ الرباني والمقصد القرآني؛ وقد بلغت عبوديةُ بعضهم إلى أنهم لايقيمون وزنًا لمآثر المسلمين الغُرِّ أمام الإنجازات الحضارية المعاصرة؛ بل عاد بعضهم يستخفون

بالحقائق الإسلامية، فكأن الرقي منحصر في أعينهم في الإشادة بالحضارات المادية المعاصرة، وصدق الشاعر الأردي عند ماقال:

نئی روشنی نے اندھیرے میں ڈالا غضب ہے کہ ظلمت کو سمجھے اجالا

إن النور الجديد هو الذي ألقى في الظلام...ومن العجب أن الظلام يُعتبر ضياءً.

ففي هذه الحالة كنت أرى من اللازم أن أهدي الناس الذين التبست عليهم الحقائق واختلَّت عندهم الموازين إلى الحقيقة الواضحة، وأُخرجهم من الادعاءات، فأُثبت في ضوء البراهين العقلية والنقلية والتجريبية حقيقة الحضارة المادية، وماذا فعلت في العالم قيودُها وأغلالها؟ وماذا يقول فيها أبناؤها وأعلامها بعد التجارب الطويلة.

ففي هذا الصدد تحدثتُ عن أربع أمم كبرى في العالم: المشركين واليهود والنصارى والمسلمين، وما تميزوا به من عقلية ونفسية وما تأثروا به من أسباب وعلل، وما قدموه من علم وفلسفة وحكمة، ثم توصلتُ إلى أن أثنين من الأمم هما اللذان يستطيعان إدارة دفة الأمور وقيادة العالم، وهما المسلمون والنصارى، وأن المنافس الأول الدائم للمسلمين هم النصارى، كما أبرزتُ النسبة بين المسلمين والنصارى، وأيهما أكثر تقدما وأبرز تفوقا؟

وفي هذا الصدد ذكرت أن المنافسة الحقيقة قائمة بين الحضارة النصرانية والحضارة الإسلامية، وأن ما هي النسبة بين الاكتشافات العلمية والفكرية المعاصرة وبين النظام الأخلاقي للإسلام، وأن أي النظامين أكثر استعدادا لنشر الأمن والسكينة في العالم، كما أوضحت مصير الحضارة المعاصرة، والهدف الذي لابد أن يصل إليه النظام الإسلامي.

وفي هذه المناسبة إن سميتُ هذا الكتاب بـ "فلسفة عقليات الأمم" كان مناسبا.

وإنى لعلى علمٍ بأن الموضوع دقيق وجوانبه الفكرية شديدة التعقيد، وكان فوق أن يتناوله طالب قليل العلم مثلي، ويمر في مثل هذا الوادي المحفوف بالأشواك؛ ولكنني أعلم أن هذه السطور ليست من مخترعات ذهني وفكري، فإني أعرف عقلي القصير، ومؤهلاتي المزجاة، وما كنت أستطيع أن أكتب سطورًا حول هذا الموضوع بعد كل الإرادة والتفكير.

بل كل المعاني ملهمة من الله، وقد رتبت هذه المعاني كما ورد في خاطري، فهي ليست مني؛ أجل! إن كان فيها ما يخالف الحق والصواب فهو من نفسي، وأستسمح أهل الفضل والكرم من القراء على ذلك راجيا منهم الدعاء بالخير والصلاح.

وما أروع ما قاله الشاعر الأردي:

کیا فائدہ بیش وکم سے ہوگا — ہم کیا ہیں جو کوئی کام ہم سے ہوگا

جو کچھ ہوا، ہوا کرم سے تیرے — جو کچھ ہوگا تیرے کرم سے ہوگا

الترجمة: ما فائدة التفكير في الربح والخسارة؟ ومن نحن حتى نستطيع إنجاز عمل هام؟

ما حدث، حدث بفضلك وكرمك، وما الذي سيحدث، سيحدث أيضا بفضلك وحدك.

محمد طيب القاسمي

رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند

غرة ذي الحجة، عام١٣٥٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم

لايولد الإنسان متميزًا:

إن كل ما يوجد في هذا العالم المظلم من أشعة الخير والصلاح فهو من المعطيات الربانية، سواء تمثلت في مواهب الأنبياء والمرسلين أو مناقب الصلحاء والربانيين أو مآثر الحكماء والفلاسفة، فإن الإنسان -أي إنسان كان- لايكون صاحب الحكمة والثقافة بحكم ولادته، فلايولد مثقفًا وحكيمًا، نعم! قد يختار الله سبحانه فردا من أفراد الإنسان منذ الأزل، ليودع طبعه خصائص ومواهب، يستطيع أن يبلغ بها أعلى منازل العز والسعادة، ويفوق أقرانه وأترابه بشكل مدهش، فهذه هبة ربانية؛ ولكن هذا الفرق بين الموهبة والاكتساب لايؤثر في كونه عطاءً ربانيًا.

أجل! قد ينشأ فرق من جهة أخرى، بحيث يُعطَى بعض الإنسان تلك المواهب بواسطة الأسباب، وقد يُعطَى بعضهم بلاسبب طبيعي، فيرتقي إلى أعلى منازل الكمال دفعةً؛ ولكنه وغيره من مدارج الكمال في العالم هو عطاء رباني، ولايملكه الإنسان بحكم الطبع والفطرة.

مثال على اختلاف الطبائع والكمالات بين النابهين:

إن إلقاء نظرة على الكمالات الإنسانية والشخصيات المتميزة في العالم تفيد أن أهل الفضل والكمال درجات وأنواع، هذا كامل في حسنه، وذلك متميز في فضله،

وهذا معروف في قوته وشجاعته، وذاك مشتهر بعقله وفراسته، وهذا منفرد بجوده وسخائه، وهذا مائل إلى الزهد والقناعة، وذاك شهير بالإيثار والتواضع، والبعض معدود بين أهل الوقار والرزانة.

والحاصل أن الله سبحانه وزَّع الفضل والكمال بين عباده حسب الاستعداد والتوفيق.

وأضرب على ذلك مثلًا، فمثله كمثل أستاذ موسوعي جامع للفنون والعلوم، يختلف إليه طلاب العلوم والفنون الكثيرة، ويستفيدون كلهم من هذا الأستاذ في فنونهم وعلومهم، ثم يقدِّمون خدمات عظيمة في تلك المجالات، فبالاطلاع على أحوال التلامذة يتجلى أن كل طالب في أي علم استفاد من أستاذه، فإن كان الطالب معروفًا باهتمامه بالنصوص والنقول تجلى أنه استفاد في العلوم النقلية، وإن كان معروفًا باهتمامه بالمعقولات ثبت أنه تلميذ لأستاذه في العلوم العقلية، وإن كان طبيبًا ثبت أنه استفاد منه في علم الطب، وإن كان شاعرًا ثبت أنه تلمذ عليه في علم العروض، والحاصل أن أحوال الطلاب تكشف عن الجوانب العلمية التي استفادوا فيها من أساتذتهم.

الأنبياء تلاميذ الرحمن:

الأنبياء والمرسلون -عليهم السلام- تلاميذ الله الأوَّلون، فقد تولى الله سبحانه تعليمهم وتربيتهم، وبفضلهم عرفت الإنسانية معاني العلم والفضل، وإلقاءُ نظرةٍ على كمالاتهم المتنوعة واختصاصاتهم المتعددة يفيد أن صفات الكمال موزَّعة بين الأنبياء عليهم السلام بشكل جامع، فكل نبي امتاز بلون خاص من

الفضل والكمال، ولكل منهم شأن خاص في حياته وسيرته، يميزه عن سائر الأنبياء، فظهرت نبوات بعضهم في الملك والعظمة، وتمثلت نبوات بعضهم في الفقر والمسكنة، وتجلت نبوات بعضهم في الجلال والحشمة، اختار بعضهم الخلوة والعزلة، واشتهر بعضهم بحب الاجتماع والجلوة، فكان كل نبي –عليه السلام– على الرغم من اتصافه بصفات الكمال البشري– انفرد بميزة خاصة، ميزته عن سائر الأنبياء، مع أن كل صفة من صفاتهم موهوبة من الله عز وجل، وفي تعبير آخر: كانت صفة جليلة من الصفات الإلهية هي التي صارت منبعَ فيضٍ لكل نبي، وتلك الصفة الربانية هي التي تولت تربية ذلك النبي فكريًا وعلميًا وخلقيًا، أما تعيين تلك الصفة فهو يتم عن طريق النظر في أعمال كل نبي ومآثره كما يظهر بالتالي:

الميزة الخاصة لسيدنا إبراهيم عليه السلام هي السلامة:

كان سيدنا إبراهيم عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وإن فكرنا في أحواله وجدنا أن صفة القدوسية والسلامة هي التي تظهر في كل عمل من أعماله، ومن مظاهر هذه الصفة هي السلامة من كل عيب ونقص، وقد بلغ سيدنا إبراهيم عليه السلام في هذه الصفة إلى أنه ظل باطنُه سليماً من كل عيب وشر، ومن كل آفة ونقمة، كما أن ظاهرَه لم يمسه شيء من الآفات والحوادث، أو اقترب منها شيء ومالبث أن زال، أو مكث برهة ليكون مصدر كثير من الخيرات والبركات، فشخصية سيدنا إبراهيم غلبت على الحوادث، ولم تؤثر الحوادث في شخصيته؛ حتى استطاعت أن تبدل من شرها خيرًا، ومن نقمتها نعمةً.

سيدنا إبراهيم عليه السلام يُلقى في نار نمرود، والنار تصيبه؛ ولكنها تنقلب بردًا وسلامًا على إبراهيم، وبقيت شخصيته سليمة من كل شر.

يؤمر إبراهيم عليه السلام بذبح وحيده: إسماعيل، فيستعد لذلك، ويحد سكينه، ويلقيه على جبينه، ولا شك أنها مصيبة عظيمة ليس بعدها مصيبة بالنسبة إلى الوالد العطوف؛ ولكن رحمة الله أدركت إبراهيم دفعةً، والسكين الحاد يرتد مثلولًا منكسرًا، ويُذبح الضأن فداءً لإسماعيل.

يؤمر بترك زوجته وولده الرضيع إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع من أودية مكة فيقوم ممتثلًا لأمر ربه، ولا شك أنه أمر ثقيل بالنسبة إلى الحياة المعيشية؛ ولكن هذه المصيبة تحمل في طيها خيرات كثيرة ومجموعة من الألطاف الربانية للأم والولد، مع سلامة الجسد وعافية الروح، فسعيُ هاجر عليها السلام بين الصفا والمروة مذعورةً باحثةً عن الماء لتسقي ابنها يعطينا حكمًا شرعيًا لهذا السعي المبارك في مناسك الحج والعمرة، وعطشُ إسماعيل عليه السلام يعطينا ماء زمزم المبارك، وهذا الصبر على الابتلاء الرباني من قبل الشخصيات المقدسة منحنا بيتَ الله المبارك وبلدَ الله الأمينَ.

الحاصل أن الابتلاءات أحاطت بإبراهيم وذريته؛ ولكنها انقلبت نعمةً، وإن مسهم شيء منها فحمل في طيه كثيرًا من الأنعام والأفضال، مما ينتج أن القدوسية والسلامة من الصفات الربانية هما يتجليان في كل جانب من جوانب حياة إبراهيم عليه السلام، فكان إبراهيم مظهرًا من مظاهر السلامة والقدوسية، فكان من المستحيل أن يصل إليه شر من شرور ظاهرة وباطنة، وإن وصل لم يبق على حالته الأصلية.

الميزة الخاصة لموسى عليه السلام هو تقليب الماهية:

وبإلقاء نظرةٍ على حياة وأعمال سيدنا موسى كليم الله يتضح لنا أن صفة التقليب كانت تتجلى في أعماله، والتقليب من صفات الله العليا، قال الله تعالى: يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(سورة النور: ١٤) وقال تعالى: **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا** (سورة الفرقان: ٧٠)، كما أن الله سبحانه يقلب قلوب الكفار من الكفر إلى الإيمان، وقد يقلب قلوب الإيمان من الإيمان إلى الكفر، فقد جاء في الحديث: إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ[1].

وهذا الشأن الرباني يتمثل في جميع معجزات موسى عليه السلام وأحواله العامة، انظر إلى عصا موسى، كيف تتقلب إلى ثعبان عظيم، ثم تعود إلى سيرتها الأولى، والمعلوم أن كون العصا ثعبانًا هو خروج الشيء من نوع النبات إلى نوع الحيوان، ثم انظر إلى آثار تلك العصا، ظهرت أنواع من الانقلاب، إذا وقعت العصا على الحجر انفجرت عيونًا، وإذا وقعت على البحر المائج سكن ماؤه وتجمَّد كالحجر، والظاهر أن تصيير الأرض – وهي جماد كثيف- ماءً، -وهو سيال لطيف- أو بالعكس هو تقليب للماهية، وتغيير للأنواع.

انظر إلى اليد البيضاء، إذا كانت خارجةً من جيب موسى فهي يد كثيفة من اللحم والدم، وإذا ضمها موسى إلى جناحه خرجت بيضاء كالشمس المشرقة، وهذا انتقال من عالم العنصر إلى العالم العلوي، وهو تقليب للماهية.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، ج٣، ص١١٥، رقم٢١٤٠.

فأحوال موسى عليه السلام ومعجزاته وأعماله ظهرت فيها صفة التقليب من صفات البارئ سبحانه، فكانت هذه الصفة مربيةً له.

الميزة الخاصة لعيسى روح الله التصوير والإيجاد:

وإذا تأملنا سيرة سيدنا عيسى روح الله خاتم أنبياء بني إسرائيل وجدنا أن صفتي الله: التصوير والخلق تتجليان في حياته وأعماله، فكل عمل من أعماله جاء مصبوغا بصبغة التصويروالخلق.

فكان من معجزاته أنه كان يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله ، ثم ينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وينادي الموتى ويخرجهم من القبور بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، فيعود إلى الأعمى والأكمه نور البصر بإذن الله، كما يزول من الأبرص بياضه الجلدي ويعود للجلد لونه الطبيعي؛ كل ذلك من المعجزات التي ظهرت فيها صفتا التصوير والخلق، ففي بعضها تجلت صفة التصوير كما هو ظاهر من تكوين هيئة الطير، وفي بعضها تجلت صفة الخلق وإعطاء حياةٍ جديدةٍ ذات شعورٍ وإحساسٍ، كما هو ظاهر من إحياء الموتى، وفي بعضها أصلح الهيئة الفاسدة، كما يظهر في إبراء الأبرص والأكمه.

فخلاصة جميع معجزاته عليه السلام تتمثل في تصوير المادة وتزيين الصورة الحسية، والصورة تتعلق بالمادة، فكأن أعمال عيسى روح الله وكلمته تبرز في المادة والصورة وإعطائها جديدًا من الحياة أو الهيئة، فكانت حياته مظهرًا من مظاهر صفتي الله: التصوير والإحياء.

العلم والحكمة هما الشأن المميز لنبينا محمد خاتم النبيين ﷺ:

وينبغي الآن أن نلقي نظرةً عابرةً على حياة خاتم النبيين واللبنة الأخيرة من قصر النبوة، والتي اكتمل بها قصر النبوة للأبد، فالنظر في سيرة وأحوال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يشهد بأن كلًّا من العلم والحكمة يسري في جميع أعماله وأقواله، فكل عمل من أعماله مُلِيءَ علمًا وحكمةً، في أصوله علم وحكمة، وفي أحكامه علم وحكمة، فتح أبواب العلوم، وكشف عن خزائن الحكمة، فتفجر العلم والحكمة من بين جوانحه، ويلمس الإنسان في كل قول من أقواله وفي كل فعل من أفعاله جلال الحكم وشفقة المربي وحكمة المدبر، وأن كل حكم شرعي قائم على علة من العلل أو حكمة من الحكم، وأن العقل مستور في كل نقل، وأن في باطن كل أمر أسرارًا كثيرةً، وأنه في كل جزئي يُستر الكلي، و كل كلي يشمل ألوفًا من الجزئيات، ثم العلل جاءت شاملةً بحيث لا تخرج منها الحوادث إلى قيام الساعة، وكل جزئي جاء محدَّد المعالم، حتى يسهل العمل به، وتم ربط الجزئيات بالكليات بشكلٍ لايخرج به جزئي من إطار النوع أو الجنس، وكل جنس مرتبط بالصفة الإلهية، وجاءت الكليات واسعةً منبسطةً، تتدفق فيها فروع الجزئيات، فهكذا جاءت الشريعة كلها في غاية التنظيم، يحسبها البصراء متسقة الفروع والأصول، مما يدل على أن العلم هو الذي أحاط بهذه الشريعة؛ بل جعلها عين العلم.

ومن هنا جاءت كبرى معجزاته متمثلةً في العلم، وهو القرآن الكريم، الذي مازال نورًا ساطعًا منذ ثلاثة عشر قرنًا، يرسل أشعة العلم والعرفان مع كل التحديات، ويظهر معجزاته العلمية إلى قيام الساعة مع كل المشكلات، لاحكمة إلا

وقد أحاط بها إحاطةً معجزةً، ولا جانب من جوانب الحياة الإنسانية –مستورًا كان أو مكشوفًا– إلا وقد رسم له مبادئ تهذِّبه وتكمله.

فهذا الكتابُ المبينُ يحيط بكل من أصول الديانة ودساتير السياسة وقوانين المدنية ولوائح تدبير المنزل ومبادئ تهذيب النفس وعلوم المعاش والمعاد وأخبار الأمم، وأسباب العروج والزوال، والمواعظ والنصائح والعِبر والأمثال، والحكم والأسرار، وقصص الملوك وسوانح الأنبياء وما إليها من الأمور الشرعية والكونية، التي عجز عن الوصول إليها حكماءُ العالم وفلاسفتُه، وقصر عن تصورها الفصحاءُ والبلغاءُ، وقد فتح القرآن الكريم العقول والقلوب فتحًا مبينًا.

ومن جهة أخرى انظر إلى تفسيرٍ أولَ للقرآن الكريم: أي أحاديث رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أوتي علم الأولين والآخرين، وقد تم تدوين هذه الأحاديث في الكتب الحديثية المتداوَلة بين أهل العلم، انظر إلى هذه الأحاديث يتضح لك الشأن العلمي للشريعة الإسلامية، كيف استوعبت هذه الشريعة مهمات الماضي والحاضر والمستقبل، كيف كشف علم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن كثيرٍ من أسرار الماضي، التي كانت خافيةً عن الأنظار: أنظار التاريخ والبشرية، وكيف سرد وقائع وأحداث الأمم السالفة: الصالحة والطالحة سردًا علميًا، يكشف من جهة عن ألغاز الأخبار، ومن جهة أخرى عن فلسفة التاريخ، ومن جهةٍ ثالثةٍ عن الأحكام وفلسفتها، ويرتب الأمور ترتبيًا عقليًّا، يربط المستقبل بالماضي.

خذ أحداثَ المستقبل تجد أن أهم الحوادث الواقعة إلى قيام الساعة، التي تتصل بها هداية الأمم وضلالها، قد فصَّلها رسول الإسلام تفصيلًا لائقًا، يطلع به

الذكي البصير بالأمور على ما سيحدث في العالم من أمورٍ مستقبليةٍ، فأخبار الفتن القادمة، وأسماء الفاتنين وأحوالهم وإفساد ثلاثين من الدجالين، وكثرة دعاةِ النار والضلالة، وكثرة خطباء اللسان دون القلب، وقلة الفقهاء الربانيين، واتباع الأمة المسلمة للأمم الأخرى، والتبشير بالمجددين للدين الإسلامي، وفتوحاتهم وخلافتهم، وضياع الخلافة والحكومة على أيدي غلمان من قريش، وبيان مدة الخلافة، وأخبار استشهاد الخلفاء الراشدين، وانقلابات الحكومة الإسلامية، وخروج الخوارج، واعتداءات الروافض، وانتشار ياجوج وماجوج وخروج المسيح الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، والتنبؤات بالمد والجزر للأمة الإسلامية؛ كل هذه الأمور جاءت مفصَّلةً بشكل دقيق، كأنها حادثة أمام أعيننا، وكأن الأمة المسلمة تعتبر مستقبلها واقعًا معيشًا.

وبعد عالم الخبر إذا فكرنا في عالم الأمر والإنشاء وجدنا برنامجًا شاملًا لأحكام المعاش والمعاد، فيه ترغيب في العبادات صغيرها وكبيرها بأسلوبٍ، يحث ضعفاء الناس إلى المسارعة إلى الخيرات، مما يجعل العبادة عادةً وسجيةً، وجاء التديُّن بشكل لايفوته التمدن، وقد كشف عن العلاقات المتشابكة بين العبد والمعبود بما لايوجد له نظيرٌ في العالم، جاء بدقائق الأخلاق الفاضلة، وأوضح حقائق الأعمال الصالحة، وقدَّم ألوان عجائب الأحوال، والحاصل أنه صلى الله عليه وسلم عرض كلًّا من أحكام الدين والدنيا وتحدث عن سهولتها وبركتها وكثرتها وخفتها وكثرة أجورها، مما يدل على علم زاخر عميق، لايُدرَك غورُه، ولا يُدرى ساحلُه، وهذه المعارف الدقيقة بدورها دليل ناصع على أنه كان كل حركة من حركات نبينا صلى الله عليه وسلم مصدرًا للعلوم ومخزنًا للحكمة، وكانت شخصيته تتجلى فيها صفة

الله: العليم والخبير، فكانت هاتان الصفتان تتوليان تربية نبينا صلى الله عليه وسلم، وبنبينا انتهت كافة مراتب العلوم والحكمة، وصار العلم والحكمة هما الشأن المميز لنبينا عليه السلام، كما قال تعالى:

"هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (سورة الجمعة: ٢).

معجزات نبينا تفوق معجزات الأنبياء كمًّا وكيفًا:

كان القرآن الكريم معجزة نبينا العلمية الخالدة، وهذا لايعني أن نبينا قد حُرم المعجزات العملية الأخرى، التي أوتي أمثالَها الأنبياءُ السابقون -عليهم السلام- بل أوتي نبيُّنا معجزات عملية كثيرة، تفوق معجزات سائر الأنبياء والمرسلين في العد والتأثير.

فإن كانت عصا موسى عليه السلام تضرب الحجر فتنفجر عيونًا، فكانت أصابع نبينا صلى الله عليه وسلم تنفجر من بينها العيون، وإن كان موسى عليه السلام أوتيَ اليدَ البيضاءَ، فأشرقت الغابة بأصابع صحابة نبينا عليه السلام، وإن كان عيسى عليه السلام يخرج الموتى بإذن الله، فعاد جماد كجذع النخلة ينطق ويئن كالإنسان ببركة صحبة النبي عليه الصلاة والسلام.

وإن كان يوشع بن نون عليه السلام قد حُبست لأجله الشمس، فانشق القمر بإشارة إصبع النبي صلى الله عليه وسلم.

وإن كان مزمار داود عليه السلام تسمعه الحيوانات والطيور وتجتمع حوله فكان نبينا عليه السلام يسلِّم عليه الأشجار والأحجار.

والحاصل أن كل نوع من المعجزات التي أوتيها الأنبياء السابقون أوتي نبينا صلى الله عليه وسلم مثلها؛ بل ما فوقها؛ بل جاءت معجزاته في كثرة تربو على الحصر، وهي مختصة بنبينا صلى الله عليه وسلم، ومنها الطعام القليل الذي قد لايكفي الاثنين، أصبح ببركة النبي يسع الألوف، ثم بقي منه، ومنها تسبيح الحصى بيده صلى الله عليه وسلم، ومنها نطق الحيوانات بالشهادتين.

ولا أريد في هذه السطور القليلة أن أذكر نوعية المعجزات وخصائصها؛ بل أريد بيان الصفات الربانية التي تولت تربية الأنبياء، وذكر الشأن الغالب على كل نبي من الشؤون الإلهية، وبناء على ذلك أتحدث عن ذلك الشأن الإلهي، الذي سرى في أقوال نبينا وأعماله وأحواله، وهو يتمثل في العلم والحكمة، فكان علمه وحكمته بالغين الغاية، وفاق القرآنُ المنزلُ عليه سائرَ الكتب السابقة في العلم والحكمة.

جاء ذكر هذا الشأن المميز لنبينا صلى الله عليه وسلم في كثير من النصوص الشرعية،وهي كما يلي:

١ - **"وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ"** (سورة النحل:٨٩).

٢ - **"قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي"** (سورة يوسف: ١٠٨).

٣ - **"وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ"** (سورة الأنعام: ٥٩).

٤ - أُوْتِيْتُ علمَ الأولين والآخَرِيْنَ.

فضل نبينا على سائر الأنبياء:

قد اتضح بما سبق أن صفة الله: العلم هي التي تولت تربية نبينا صلى الله عليه وسلم، مما يوضح أن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم يفضُل سائرَ الأنبياء عليهم

السلام بدرجات، فإن العلم أفضل من سائر صفات الكمال؛ بل هو قمة في الفضل والنبوغ؛ حتى إن كثيرًا من الصفات الكمالية نحو الإرادة والقدرة والكلام تحتاج في أفعالها إلى العلم؛ ولكن العلم لايحتاج إلى صفة أخرى، وكلنا يعرف أن الإرادة والقدرة لاتعملان شيئًا بدون العلم، مثلا فإنا إذا أردنا أكل الخبز فلابد أن نعلم أولًا أنه خبز، وليس بحجر، وإذا أردنا شرب الماء فعلينا أن نعلم أولًا أنه ماء لا خمر، وهذا هو العلم، فإرادة أكل الخبز وشرب الماء واستعمال القدرة على الأكل والشرب موقوفة على العلم الصحيح بالخبز والماء؛ ولكن العلم بالخبز والماء لايتوقف على الإرادة والقدرة، فإن الإنسان يعرف الخبز والماء بلا إرادة واختيار، فالعلم لايحتاج إلى أي صفة أخرى، وكل صفة غير العلم تحتاج إلى العلم، فالعلم هو أول الصفات وأفضلها، فليس من الصعب إدراك أن النبي الذي ربّتْه صفة العلم يأتي أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام، الذين استفادوا من الشؤون الإلهية الأخرى، ومع هذا يحتاج جميع الأنبياء إلى ذلك النبي العظيم، وهو لايحتاج إلى أحد منهم، والظاهر أن العلم إذا كان خاتم الكمالات فالنبي الذي تجلى العلم في كل شأن من شؤونه يكون خاتم النبيين، وعليه تنتهي جميع مراتب الكمالات، فإن كانت بعثة هذه النبي الخاتم تنسخ جميع الشرائع والأديان، ورضي به جميع الأنبياء السابقين إمامًا وأعلنوا انقيادهم له مسبقا فلا داعي للعجب؛ بل هذا مما تقتضيه الفطرة.

كان نبينا ﷺ جامعا لمناقب الأنبياء السابقين:

والغرض من هذا البيان أن الأنبياء عليهم السلام -رغم كونهم جامعين لجميع الفضائل البشرية-إلا أن صفةً من صفات الله تعالى تتولى تربية كل واحد

منهم، وتغلب تلك الصفة على فكره ومزاجه، وفي ضوء هذه الصفة يقومون بتربية أصحابهم وأممهم، فكان إبراهيم عليه السلام غلبَتْهُم صفةُ السلامة، فكان سليمـًا من كل آفةٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، وكان كل شيء كوني مستعدًا دائمًـا للدفاع عنه وإعانته.

وكان موسى عليه السلام غلبتْه صفة التقليب وتغيير الأنواع، وإخراج الشيء من حالةٍ إلى حالةٍ أخرى.

وكان شأن عيسى عليه السلام هو خلقَ نوعٍ جديد بإذن الله، أو التصرف في شيء ليأتي نوعًا جديدًا، أو نفخ الروح في ميت ليقوم بإذن الله.

وكان نبينا صلى الله عليه وسلم يمتاز بشأنه العلمي، فكان بسعته العلمية وأسلوبه الحكيم يبلغ بكل شيء إلى درجة الكمال، ويربي كل فرد بما يناسبه من الأحوال.

وهذه التربية العلمية العامة تدل على أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان أعلم بجميع الأنواع وخواصها، كما تدل على أن العلم جامع الفضائل والمناقب، فاجتمعت في سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم جميع فضائل الأنبياء السابقين، وكان عليه السلام يربي كل شيء ونوعٍ بما يناسبه من مناهج التربية، فظهرت تربيته في الشؤون المختلفة، فتارةً ظهرت في السلامة الإبراهيمية، ومرةً ظهرت في التقليب الموسوي، وتارةً تمثلت في الإحياء العيسوي.

ظهرت السلامة الإبراهيمية في شخصيته؛ حيث لم تصبه آفةٌ وشرٌّ، فقد خرج ليلةَ الهجرة سليمًا، وكان مشركو مكة قد حاصروا منزله للفتك به، وشبكاتُ العنكبوت تحاول حفظه في غار ثور عندما وصل المشركون إلى مدخل الغار، وحادثُ سراقة بن مالك أيضا مهم؛ فعادت فرسه تنغرس قدماها في الوحل كلما أراد الاقتراب من النبي صلى الله عليه وسلم، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم تحيط

به المصائب والفتن؛ إلا أن واحدًا منها لايصيبه ولايضيره، **"وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ"**(سورة المائدة: ٦٧).

وإن كان قد ابتُلِيَ بمصيبة ترك الوطن والهجرة فجاءت هذه الهجرة حاملةً لألوف من الخيرات والبركات والفتوحات، وهذه الهجرة قد فتحت آفاقًا واسعةً لهداية كثيرٍ من الناس، فقام النبي صلى الله عليه وسلم بتربية ألوفٍ من الناس بهذا الشأن الإبراهيمي.

كما تمثل التقليب الموسوي في عددٍ من أعماله صلى الله عليه وسلم، حيث خرج جذع النخلة من نوع الجمادات إلى نوع الحيوانات، فصدرت عنه أعمال الحيوانات؛ بل حياته تفوق حياة عامة الإنسان، فإنه أصبح يبكيْ ويئنُّ على فراق النبي صلى الله عليه وسلم، كشأن العلماء العارفين بالله، فالمعنى أن الشأن الموسوي إذا تمثل في الشخصية المحمدية تمثل في كمال العلم وكان وسيلةً قويةً للهداية والسعادة.

وإذا ظهر الشأن العيسوي في الشخصية المحمدية عاد يهب الحياة للإنسان بل للجمادات أيضًا، فحِصِيُّ الحجارة تُسبح لله في يده، والموتى يعرِّفون أنفسهم، ثم هذا الإحياء مصحوب بالتعليم والتربية، فإنهم يذكرون الله تعالى، ويجعلون كثيرًا من الناس يهتدون إلى الله سبيلًا.

الحاصل أن العلم إذا كان جامع الصفات فالشأن المحمدي كان جامعًا للشؤون، فالشأن المحمدي قد جذب جميع شؤون الأنبياء والمرسلين، وزادها روعةً وجمالًا، وصدق الشاعر الفارسي عند ما قال:

"حسنِ يوسف، دمِ عيسى يدِ بيضاء داری آنچه خوبان همه دارند تو تنها داری".

ترجمة: "إنك وحدك تتحلى بحسنِ يوسف ونفخِ عيسى واليدِ البيضاءِ فاجتمع في ذاتك ما تفرق بين الأنبياء من المحاسن والمحامد".

عقلية كل أمة تعكس عقلية نبيها:

بعد إيضاح هذا القدر عادت من السهل المعرفة بأن شأن كل نبي يغلب في أمته، فالملل والأمم تصطبغ بصبغة أنبيائها وكبارها، وفي تعبيرٍ آخر: إن الصفة الربانية التي يستفيد منها الأنبياء، يفيدون بها أممهم، وتتشكل عقلية الأمم بعقلية الأنبياء والمرسلين.

غلبة شأن السلامة في الملة الإبراهيمية:

إن كان سيدنا إبراهيم عليه السلام قد غلبه شأن السلامة فكانت أمته من المشركين بمكة والبراهمة في الهند وغيرهم قد غلبهم هذا الشأن، وإن كانوا استعملوه بشكل قبيح، فكانوا يحتاطون في كل شيء وذرة، ويتفاءلون به شرًا وخيرًا، كانوا إذا رأوا في سفرهم غرابًا يطير في الجو يتشاءمون به، ويقطعون السفر، كانوا إذا حدث لهم حادث في يوم ما اعتبروا ذلك اليوم شُؤْمًا وبؤسا، وانتهوا فيه عن أي عمل هام، كانوا يتفاءلون قبل كل عمل، ليكونوا في حذر من المخاوف الموهومة، وكان من عاداتهم استعمال جميع أنواع الحذر والحيطة خائفين، واستعمال التعاويذ والرقى والطيرة والسحر، والخوف من عناصر الطبيعة من النار والهواء والماء، باعتبارها مؤثِّرة متصرفة في الكون، واختيار جميع الأساليب لإرضائها والسلامة من شرها، ومحاولة دفع أذاها وجميع الأوهام والمخاوف بأنواع الأساليب، وإذا حدث لهم

حادث ساورتهم الهموم، وإذا ظهر لهم هذا الأمر نهضوا كل النهوض، والدعاء للأصنام بالشر، والاستعانة بعناصر الشر والركوع أمام الكواكب، ودفع الضرر بالهياكل، والحذر من الأوهام وغيرها؛ كل هذه الأمور ظهر فيها هذا الشأن: شأن السلامة والتنزه، فقد بقيت عاطفة السلامة والتنزه، وذهبت الحقيقة الإبراهيمية، التي تقيهم كل شر وشرك؛ ولكن هذه العاطفة جعلتهم فيما بعد يتخبطون في أنواع الشرك، فقد ذهبت حدود الحقيقة وغابت المعالم، وبقيت العقلية المتحذرة التي هي ثمرة من ثمار عقلية المربي الأول.

غلبة شأن التقليب في قوم موسى عليه السلام:

وكان شأن التقليب غالبًا في شؤون موسى عليه السلام، وقد ظهر هذا الشأن في قوم موسى عليه السلام، فنجد هذا الشأن في كل حركةٍ من حركات اليهود، وإن كانوا قد شوَّهوا هذا الشأن، واستعملوه فيما لاينبغي.

فكان اليهود قد حُرِّمَ عليهم أكلُ الشحوم، فكانوا يذيبون الشحوم، ويستعملون ورمها، ويقولون: لانستعمل الشحوم، والحقيقة أنهم كانوا يستعملون الشحوم بأساليب مختلفة، وهذا هو التقليب، وكان عليهم أن يستعملوه في الطاعة؛ ولكن استعملوه في العصيان، فكان استعمال الشحوم عليهم حرامًا على الإطلاق؛ لابصورة شحم فحسب.

كما كان صيد السمك في يوم السبت عليهم حرامًا، وقد ابتلاهم الله تعالى بأن الأسماك تظهر في يوم السبت بكثرةٍ كاثرةٍ، فكانت الأسماك تخرج في شواطئ الأنهار ليسهل صيدُها، فاليهود حفروا حفرةً ليجمعوا فيها الأسماك وكانوا

يصطادونها في اليوم التالي، وكانوا يقولون: انظروا، لانصطاد الأسماك في يوم السبت؛ بل جمعناها، والجمع مختلف عن الصيد، والظاهر أن هذا تغيير لحكم الله، وتقليب لحكم الصيد في عملية الجمع، مع أن الأمر الإلهي يرمي إلى منعهم عن اشتغالهم بالأسماك بحالٍ من الأحوال، سواء كان صيدًا أم جمعًا، وجمع الأسماك ليس إلا نوعًا من الصيد. فقولهم: لانصطاد السمك ما هو إلا خداعًا محضًا، فإن كانوا قاموا بتبديل نوعي في المأكول ففي قولهم هذا قاموا بتقليب المفهوم.

ثم بعد مجاوزة نهر النيل إن كان اليهود ابتُلوا بعبادة الأصنام فكان سببه هو التقليب والتغيير، حيث جمع السامري الذهب والفضة من أموال القوم، وصاغ منها هيئة العجل، وألقى في فمه مجموعةً من التراب، (وهو ترابُ حافرِ فرسِ جبريل وكان له تأثير في الحياة)،فصار عجلا ذا خوار، فغيَّر الذهب والفضة ليصنع منها العجلَ، وقد فُتن به القوم إلى حد أن اتخذوه إلها يُعبد من دون الله، فغيَّر المخلوقَ إلى الخالق، فظهر شأن التقليب بشكل واضح، وارتداد اليهود من الإسلام إلى الكفر ليس إلا تغيرًا عظيما، أجل! إن اليهود استعملوا هذا الشأن الإلهي: شأن التقليب في مواضع الشر دون مواضع الخير، وجعلوه ذريعةً لاتباع الهوى وخطوات الشيطان.

ومن هنا نرى أن الآفات الإلهية التي نزلت على قوم موسى لم تنزل على أية أمة من الأمم، وكانت بسبب التقليب الباطل، فتحوُّل الغلات إلى الدم، وانتشار القمل في كل جزء من أجزاء أجسادهم، وتحول بضائعهم إلى الضفادع، وكون نهر النيل جاريًا بعد جموده، ورفع الجبال الجامدة فوق رؤوسهم كالطيور المحلقة في الفضاء، وتحويلهم قردةً وخنازيرَ بعد عصيانهم بأمر ربهم في يوم السبت وما إليها من المصائب الكثيرة، التي ظهر فيها شأن التقليب والتغيير، حيث نرى جامدًا صار

متحركًا، ومتحركًا صار جامدا، وجامدا تمثل في صورة حيوان، وإنسانا يتحول إلى قرد، فشان التقليب واضح في أعمال القوم وجزائهم، في كل من النعمة والنقمة، في الحب والغضب، وذلك كله لأن مربيهم الأعظم: سيدنا موسى عليه السلام كان تميز بشأن التقليب الإلهي.

غلبة شأن التصوير في قوم عيسى عليه السلام:

وفي ضوء هذا الأصل المقرر لما كان عيسى عليه السلام قد غلبه شأن التصوير وإحياء الأجسام، وبهذا الشأن قام بتربية أمته، فتشكلت عقلية أمته بالتصوير وإحياء الأجسام، حتى إن الأمم المسيحية في هذه الأيام لايهمها إلا اختراع الصور المادية الجديدة، وإيجاد الأنواع الكثيرة وتصميم الأشياء والأزياء والبحث عن الجديد المتطور في كل شيء، حتى بلغوا بهذا الفن التصويري إلى حد أن حكوماتهم وحضارتهم قائمة اليوم على تجارة هذه الأشياء.

والتفكير الجاد يهديك إلى أنه وراء هذه العقلية المسيحية عاملين أساسيين: وهما صنع الهيئات المادية الجديدة، ونفخ الروح في كل شيء بمايناسبه، كما سأذكرهما بالتالي:

إيجاد الهيئة:

إن كان المسيح عليه السلام يصنع هيئة الطير فيفنخ فيها فتطير بإذن الله، فأمته في هذه الأيام تصنع طيورا وألاعيب من المعادن البيضاء[1]:)Tin(، ثم تجعلها تتحرك وتقفز بوسيلة الزُّنْبُرك)Spring(، كما تجعل الطيارات الكبيرة على هيئة الطيور، وتسيِّرها في الجو بقوة النفط.

---

(١) وهو مايقال بالعربية اليوم: تَنَك، وبالأردية: ٹین.

إحياء الموتى:

إن كان المسيح عليه السلام يحيي الموتى بإذن الله، فأمته المسيحية قامت بإجراء التيار الكهربائي في الأسلاك، وبضغطة واحدة على المفتاح الكهربائي ولو من مكان بعيد، ينطلق التيار في الأسلاك، وتجعل الأشياء الكهربائية الكثيرة تعمل عملها كالإنسان الحي، كما يجعلون الآلات والماكينات تتحرك وتعمل بقوة البخار والغاز، كما جعلوا السيارات والحافلات سائرة بقوة النفط والبنزين، فإن كان المسيح عليه السلام قد جعل الموتى يتكلمون فأمته صنعت الإذاعات والراديو والتلفزيون وما إليها، لتنطق هذه الأشياء وتنشد كما ينطق الإنسان ويُنشد.

تزيين الهيئات:

إن كان المسيح عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص وأولي الأمراض المزمنة بإذن الله فأمته المسيحية في هذه الأيام تُطْلِقُ ادعاءاتٍ وإعلانات وضماناتٍ لاتنتهي بالشفاء والإبراء، فبعضهم يضمن الصحة والشفاء، وبعض المستشفيات تضمن إعادة البصر، والبعض الآخر يدعي أنه يملك أدوية ناجعة مائة في المائة للأمراض الجلدية من البرص وغيره، والبعض يضمن إعادة الشباب، والبعض يدعي أن عنده ما يزيد في العمر، حتى إن السفهاء من أطبائهم يفكرون في إحياء الموتى، فالأمة المسيحية تدعي إيجاد الحياة أو ما يتعلق بالحياة، وكل ذلك أثر من آثار ما تميز به المسيح عليه السلام من معجزات إبراء الأبرص والأكمه وإحياء الموتى بإذن الله.

الإيجاد:

وكذلك إن كان عيسى عليه السلام يصنع من الطين كهيئة الطير، ويجعلها تطير بإذن الله، فهذه العقلية التصويرية ظهرت في أمة عيسى عليه السلام، وبشكل

مفرط للغاية؛ حتى عادوا عُبَّاد الصور والأجسام، وإيجاداتُهم الباهرة واكتشافاتُهم الخارقة في المجال التصويري بهرت العالم واستقطبت أنظار الإنسانية كلها، وصنعوا ماكيناتٍ عظيمة وبضائع جسيمة من المعادن المختلفة، وكذلك إيجادُ الأشياء الجميلة الرائعة من الحديد والخشب والنحاس الأصفر، والتسهيلات الحضارية من المراكب الفارهة والقطارات والسيارات والبواخر والطيارات وآلات التواصل العجيبة من البرقية والتلفزيون والجهاز اللاسلكي، ووسائل الطبع والنشر، ووسائل التصوير من الكاميرا وشعاع إكس، والاختراعات الباهرة في مجال الكهرباء والبضائع الأخرى، والصور المتحركة الناطقة على الشاشات وما إليها؛ كل ذلك من الأمور التي جعلت العالم مشدوهًا يتحير، ويعتز بها.

التصوير:

وبعد الإيجاد انظروا إلى عملية التصوير لدى الأمة المسيحية، فالتصوير عاد اليوم فنًا من الفنون اللطيفة، وشعارًا لهذه الأمة، فقد قامت للصور والتماثيل هيمنة كبرى في الأسواق والبلاط والقصور والفنادق، ونشأت آلات حديثة للتصوير وطباعتها، ومبانٍ فخمة لمشاهدة الأفلام والصور المتحركة، ودور السينما مكتظة بالناس المولعين برؤية الصور التي تتحرك وتنطق، فلا مدينة في العالم إلا وفيها مبان شاهقة لدور السينما الناطحة للسحاب، فالفكر المسيحي جعل الصور تنطق وتتحرك، وترقص وتتغنى، والمصوِّر الطائش يتراجع عن أصله، ويولع بحكايته، ويجعل الناس يُفْتَنون بهذه الصور الخيالية التي لا طائل تحتها.

ثم انظروا إلى انتصارات الصور، فهي مطبوعةٌ على كل من العملة والأوسمة والتذاكر والخاتم، والسكين والصحف والرسائل والأوراق والصواريخ النارية

والساعات والسلاسل، وكل مادة من مواد القرطاسية والكتب والخرائط التعليمية والمباني والستور وفي كل شيء، فعادت الأشياء لاتُعرف بأصلها؛ مادامت لاتمثلها هذه الصور المصطنعة.

الحاصل أن كل مَعْلَمٍ من معالم الحضارة والمدنية عاد محشوًّا بالصور والتمثال، حتى لم يبق للإنسان الأصيل من القيمة ما يعطى اليوم للصور الإنسانية، ثم الناس مفتونون بهذه الصور الخيالية، حتى جاء فيما نشرته صحيفة "وحدت" الصادرة عن دلهي في ٤ من أبريل ١٩٣٦م: "إن المولعين بالصور والتماثيل ينفقون على الكاميرا وما يتعلق بها أكثر من بليار ونصف روبية هندية".

الجدة التصويرية:

"إضافة إلى الولع بالصور حدثت رغبة شديدة في الجدة التصويرية، فكل شيء يكتسي ثيابا متنوعة من الصور كل يوم، وشاعت صور ونماذج كثيرة للأشياء المستهلكة إلى حد أن العالم لم يشهد لها مثيلا في الماضي، توجد اليوم ألوف من الأشياء التي تباع وتشترى فقط لصورها وإعلاناتها.

"والمهندسون منقطعون إلى تصميم صورٍ ونماذج جديدةً للمباني والقصور، وكل مبنى جديد يزدري بالقديم، ويفوقه. وهكذا في الأثاث، نجد معارض ومصانع تشتغل صباح مساء بإيجاد صور وأشكال جديدة للصوانات والكراسي والطاولات والسُّرُرِ وما إليها.

"وفي الملابس نجد ألوانًا من حسن الصور والنماذج والتطريز، حتى لاتوجد صورة من صور النبات والحيوان والجماد لم يتم طبعها على الملابس وتشكيلاتها،

فالموضات الملابسية قد فاقت كل شيء؛ حتى لم يبق احتمال عقلي في مجال التزيين الجسدي والملابسي، إلا وقد تمَثَّل في موضاتٍ جديدةٍ واقعية؛ بل عاد عُرى الأجساد والسفورُ موضةً جديدةً، فانتشرت ملابسُ لاتستر المفاتن؛ بل تَصِفُهَا وتَشِفُّ لما تحتها.

"إن الخياطة والتطريز أيضا قد كسبت اهتمام الناس جميعا، فهم ينفقون عليهما بإسراف وتبذير، حيث أُسست مصانع عظيمة لتصميم عصري باهر للأزياء والملابس، وشركة رينكن- التي مقرها الرئيسي في إنجلترا، وانتشرت فروعها في معظم المدن الهندية، وكثير من أمراء الهند أصبحت أعناقهم مثقلة بديونها- تقوم بدورها في مجال الخياطة والتطريز، ومنهجها العملي مستقل مترابط كالنظام الحكومي، ودَعُوْا هذه المحلات للخياطة التي تديرها الشركات، إن مصمما واحدا للأزياء –وعمله لايتعدى التصميم والتشكيل كما هو معلوم-يكسب سنويا أكثر من مائة ألف ونصف جنيه"[1].

خذوا المأكولات تجدوا أن هناك طبقة كبيرة من الموجدين منقطعة إلى تشكيل وتصميم جديد لمصانعها ومراكز عملها، إن كلا من البسكويت والحلويات والأخبزة تلبس ملابس صور جديدة بفضل الآلات والماكينات، وكذلك الكعكلات والفطائر تخرج في صور الباقات والطيور، وقامت مصانع كبيرة لتطور تجارتها بتزويد الناس بأشكال جديدة وصور خلابة للمأكولات، إن "شركة نارائن" وغيرها من الشركات لايهمها إلا هذا.

وفي المشروبات لايخفى على أحد ما يُرى ويُشاهد من أنواع وألوان للزجاجات على المحلات والدكاكين، حتى يريد كل إنسان أن يفوق غيره في الاهتمام بالزينة، فهذا

(١) صحيفة وحدت، ٠٤/ أبريل/ ٢٠٢١م.

يحلِّي المائدة بصورة خلابة للمباني الفخمة، وذلك يزينها بالطيور والحيوانات، ولتطوير هذا الفن ينشغل طواقم العمل، وتعمل المدارس والمصانع، وحُدِّدَت لها أجور باهظة؛ حتى عاد الناس لايشترون الأشياء لحاجاتهم؛ بل جريًا وراء الظهور والشهرة وإسرافًا في الزينة؛ فكل شيء مصنوع بطراز جديد مقبول، وإن لم تكن حاجة إليه، وكل شيء قديم الوضع مرفوض، وإن كانت الحاجة ماسة إليه.

ثم فكروا في تعبئة البضائع وما فيها من عملية التزيين والتجميل نجد أن العلب والأواني والأغلفة تفوق البضائع في الزينة والتجمل، وعاد الناس يهتمون بالمظاهر فوق اهتمامهم بأصل الشيء، ويرون أن أول الزينة في التعبئة، حتى عادت المصانع تنفق أموالًا كثيرة على معلبات أو أوراق أو حقائب غذاء أو دواء او لعبة عاديّة وغيرها من الأشياء اللازمة العادية، حتى تكون الوسائل والحقائب أغلى من البضائع نفسها.

الحاصل أن الأمة المسيحية غارقة في الاهتمام بإيجاد الصور والأشكال الجديدة، موظِّفةً كل طاقاتها، باحثةً دائما عن جديدٍ لذيذٍ، فتأتي سنة جديدة بصور جديدة كثيرة، حتى تعود الأشكال القديمة شيئا لايُعبأ به.

العناية بالزينة في الأقوال والهيئات:

علاوة على البضائع والأشياء الأخرى، إذا نظرنا في أقوال وأعمال هذه الأمة نجد أن الإسراف في الزينة هو الطابع العام للأقوال والأعمال، فينطقون بكلام معسول نافذ إلى القلوب؛ ولكنه كلام لاطائل تحته، فهذه أمة تتواجد عندها مداراة كلامية وحفاوة لفظية، أما الحقيقة فليس لها وجود، المحاورات والمحادثات كلها

ليست إلا قولًا مزخرفًا وأسلوبًا ماكرًا، العمل الصناعي يتحكم، والرياء وحب الظهور لهما هيمنة في المجتمع، أما السذاجة والبراءة فأمر غريب كعنقاء مغرب، لاحد للأخلاق المصطنعة والبسمات الكاذبة، أما طلاقة الوجه وبشاشة الطبع وشفقة القلب فمرفوضة كليا، فالظاهر هناك يأتي على حساب الباطن، والنظافة الظاهرة تتمثل في كل شيء، أما الطهارة الباطنة فلا في العير ولا في النفير.

الحاصل أن حياة هذه الأمة مليئة بالرياء والعناية بالصور والاختراع وحب الشهرة والظهور، والصورة والرسم هما معيار القبول والرفض عندهم لا غير.

عبادة الحس والمادة لدى المسيحيين وبعض مظاهرها:

إن عقليتهم المحبة للصورة والمادة جعلتهم مولعين بالصور والحسيات إلى حد أنهم إذا عُرضت عليهم الأمور الكلية، بحثت فيها أيضا عن جوانب الصور والأشكال، وتتمنى مشاهدة الأمور المعنوية والغيبية والأنوار الإلهية، حتى لايؤمنون بكلي الكليات وجامع الجوامع: ذات الله سبحانه إلا أن يكون له صورة تراها الأعين وتبصرها النواظر.

"لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً"

وشُكِّلتْ لجنةُ منكر الإله في ماسكو على أساس أن الله إذا كان موجودًا فما الذي يمنعنا عن رؤيته؟ فكأن وجود شيء يعني عندهم أنه لابد من رؤيته، وإذا كان الأمر كذلك فلابد من أن يكون الهواء عند هؤلاء السفهاء معدوما، فهو مازال غير مرئي، ولابد أن تكون الروح معدومة، فالعين لاتستطيع إدراكها، ولابد كذلك أن تكون الكيفيات النفسانية نحو الجوع والعطش والفرح والترح معدومة، فإنها غير

مدركة بالنواظر، بل لا بد أن يكون كل شيء مفقود –بضاعة كانت أو إنسانا– معدوما عندهم، فإنه غائب عن الأعين، يا للعجب!

المؤسف أن الاستغراق في الصور والزينة أغلق العقول، وغلَّف القلوب، وعاد الإنسان المعاصر لايعرف شيئا عن العقل والحكمة والأمور الكلية.

الأمة النصرانية مولعة بالكمية دون الكيفية:

وهكذا دأبهم في جميع الحقائق الغيبية والاعتقادات الحقة نحو المبدأ والمعاد والجنة والنار والملائكة والجن واللوح والقلم وأحداث القبر وأهوال الحشر والمعجزات والخوارق للعادات، فهم ينكرون كل هذه الأمور؛ لأنها غير مدركةٍ بالأبصار.

الحاصل أن كل أمر ليست له صلة بالصورة والشكل سواء كان علمًا أو كليًّا أو معتقدًا أو غيبيًا فالأمة المسيحية تنكره ولا تعترف به.

فهي مولعة بنفوسها، فهي أقرب الأشياء إليها، كما أن هذه الأمة أبعد عن الله سبحانه، فهو لايدركه الأبصار الحسية.

وصارت النتيجة أن هذه الأمة أكثر الأمم وقوعًا في أنواع من شبكات الأنانية والأثرة وحب الذات، والمعلوم أن الأنانية القومية تنتج العصبية والحمية الجاهلية، ثم هذا التعصب يتفرع طبعًا إلى الوطنية والجنسية ومفاضلات في العرق واللون والدم، ولذلك نرى أن هذه الأمة هي التي تتخبط في مثل هذه الأدواء والشبكات، حتى أصبحت الوطنية شعارها، وفي أوربا لايحظى هندي بحقوق يتمتع بها الأوربيون، فإنه ليس بأوربي، وكذلك لايعطى في الهند أوربي مثل الحقوق التي يتمتع بها الهنود، فهو ليس بهندي، لأنه ضعيف الوطنية هنا، وليس للهنود أن يقيموا أكواخهم بجانب قصور الأوربيين، فالوطنية البيضاء تأبى هذه المساواة،

ولايجوز لهندي أن يدخل النوادي الأوربية المختصة بالجلود البيضاء، فهو صاحب جنسية أخرى، وصارت بلادنا الهندية اليوم سوقًا تجاريًّا للأوربيين، وقامت هذه العلاقة التجارية على دماء الهنود الفقراء، ليسعد الأوربيون ويعيشوا حياة سعيدة.

ثم هذه الفوضى ليست عملية محضة؛ بل هي جزء من الدستور والقانون، فأي أنانية وأثرة تفوق هذه الأثرة؟ وهل من مصيبة أكبر من أن يكون التعصب والوطنية جزءا من القانون والدستور، يُفتخر به؟

والظاهر أن أمة –أي أمة كانت– إذا أصيبت بالأثرة والأنانية وبالغت في أسباب التنعم والرفاهية لاينشأ فيها الإخلاص والإيثار، ولذلك نشاهد كل يوم أن الأمة المسيحية لكونها مسرفة في أدواء الأنانية والأثرة منقطعة كل الانقطاع عن الإخلاص والاستغناء والإيثار والمداراة والنصح العام للإنسانية، فلايهمها إلا نفسها وذاتها، وعلى كل؛ فإن العصبية من فروع الأنانية، والأنانية من فروع حب الذات، وحب الذات من فروع حب الصور والمادة، ومن ثم تتضح لنا النتيجة القديمة بأن عقلية هذه الأمة لاتقبل من الأشياء إلا ما يعمي الأبصار ويخلب الفؤاد؛ وإن كان بعيدًا كل البعد عن الحقيقة والواقع.

كثرة الآراء:

وفي مجال الاستدلال وإثبات الدعوى تقيم هذه الأمة وزنًا كبيرًا للأعداد وكثرة الآراء والأدلة؛ فإن الكمية والكثرة من الأمور الجزئية، التي تشاهَد بالأبصار، وليست من الأمور الكلية، التي تحتاج إلى علم وبصيرة، فهذه الأمة تستدل دائما بالأعداد والكثرة، ولاتهتم بفحص علمي ومعنوي للأمور، حتى يتضح جانبا القوة

والضعف بشكل واضح، فإن الحقيقة والكيفية غائبتان عن أعينهم، والكمية ماثلة أمامهم، ولذلك تأتي عندهم كثرةُ الدلائل لا قوتها أكبرَ دليلٍ لإثبات الدعوى، فإن الكثرة كمية مشاهَدة، والقوة كيفية تحتاج إلى علم وإدراك، وهذه الأمة محرومة من العلم كما لايخفى.

وهذا لايختص بإثبات المدعى؛ بل رجحان أي قول ورأي يثبت عند هذه الأمة بكثرة الآراء والمصوتين، والسبب معلوم؛ فإن الكثرة شيء حسي، يخلب الأبصار، مع العقلية المحبة للحقيقة والواقع لاتعطي كثرة الآراء هذا الاهتمام، ولاتعتبرها أقوى دليل على إثبات الحق، مادامت الآراء لاتكون قوية، وإن لم يوافق عليها أحد.

أجل! إذا كان في أمر جانبان، وكلاهما يتساويان في الحق والصواب، فممكن أن يُّحكم بكثرة الآراء حسمًا لمادة الاختلاف؛ ولكن كثرة الآراء في نفسها ليست أمرًا يوجب الصواب، أو دليلًا يثبت الحق، فكثرة الآراء لاتحمل أهميةً أكثر من إلقاء القرعة، ومهمتها ليست غير حسم الاختلاف.

كثرة الأفراد:

وكذلك الأمة المسيحية تخاف كثيرًا من عدد الجيشين المتحاربين، فأبصارها لاتتعدى حدود الصور والأجسام، مع أن العقلية المحبة للحقيقة والواقع لاتعتبر العدد معيار الفتح والهزيمة؛ بل تؤمن بأن الصبر والمصابرة والإخلاص تجعل أصحابها –وإن كانوا قليلين– يفوقون العدد الكثير، وبهذه القوة المعنوية غلبت الأقليات على الأكثريات، فالنصراني لايخاف من الحقيقة؛ بل يخاف من الكثرة، والظاهر أن الكثرة أمر

حسي، يتعلق بمشاهدة العين، وإن خلا من الصدق، والصدق والإخلاص أمر معنوي، يتعلق بمشاهدة القلب وإن خلا من الكثرة، فهذه الأمة تؤمن بالرؤية ولا تؤمن بالعلم والعقل، ومن هنا يقال بداهةً: إن هذه الأمة فاقدةَ العلم والعقل بسبب غرقها في حب المادة والصورة.

الحاصل أن هذه الأمة التصويرية وولعها بالسطحية لاتستطيع أن تبلغ عين الحقيقة، فأم فضائل هذه الأمة أنها تتهافت على الصور المتلونة وتتساقط على الجمال الكاذب البعيدِ عن كبد الحقيقة.

الأمة النصرانية ليست أمة علمية:

ولكن الظاهر أن هذا الطريق: طريق الصور والأجسام والحسيات ضيِّق للغاية، بحيث لم يعد بإمكانه أن يكون ممرًّا للعلم الواسع، فإن الحسيات والجسميات يقع بعضها حجابًا للبعض الآخر، والشعور بهذا يمنع عن الشعور بذلك، وكل صورة مانعة عن الصورة الأخرى، وهذا يقتضي أن تكون عقلية هذه الأمة ضيقة قاصرة، وعلى العكس من ذلك فإن صاحب العقلية المحبة للحقيقة لما كان يتجاوز الصورَ إلى الحقائق والمعاني، ويفكر في الكليات بعد الجزئيات فهو يريد أن يتجاوز ضيق الحسيات إلى سعة الوجدانيات، حيث لاتكون الحقيقة حاجبة عن الحقائق الأخرى، ولايمنع نور عن الأنوار الأخرى، بل الوصول إلى الحقيقة الواحدة الجامعة الكلية يفتح أبواب الجزئيات الكثيرة، فالعلم وروحه لايسريان إلا في فطرة تحب الحقيقة.

فكأن الأمة المسيحية باختيارها الطريق الضيق للحسيات قبِلت كل أنواع الخسارة والحرمان؛ فالظاهر أن الصورة تكون وسيلة الحقيقة، فليس لها وجود منفصل

عن الحقيقة، فمن يكون مفتونًا بالصورة يتخبط في المراحل البدائية، البعيدة عن الحقائق، فإن الذي جعل الصورة نصب عينيه، لن يبلغ إلى الحقيقة، فإنه متقيد بالصورة، ثم هو محروم من الصورة أيضا، فلاوجود ولا بقاء لصورة بلاحقيقة، ولجسم بلاروح، فالمفتون بالصورة محروم في النهاية من كل من الصورة والحقيقة معًا.

وعلى كل فالواضح أن الأمة المسيحية جعلت الصورة والجسم والمادة نصب عينها، وجعلت الأمور الحسية والمواد الكثيفة مبلغ علمها، وبذلك سُميت هذه الأمة بأمة تصويرية، وليست بأمة علمية، فهي أمة تحب الصورة والمادة، وتكره الحقيقة والماهية.

"**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**" (سورة الروم:٧).

الأمة المسيحية لاتحب الإحكام والإتقان:

إن الأمة التي يغلبها التفكير في المادة لابد أن تغلب عليها آثار وخواص المادة، وظاهر أن الخصيصة الأولى للمادة أنها لاتستقر بحال، ولايسري فيها شأن الإحكام والإتقان؛ بل يجري فيها التلون والافتنان، وفي ضوء هذه الأصول يجب أن تكون الأمة المسيحية ذات عقلية متأثرة بالمادة إلى أبعد الحدود، فالمشاهَد أن هذه الأمة محرومة من العقلية المحبة للإتقان، لكونها مغلوبة المادة، فالرياء وحب الظهور والفتور وعدم الاستقلال والتلون هي السمات المميزة لهذه الأمة، إن البناء من أشد الأشياء طلبًا للإحكام، ومن هنا اشتهر المثل بـ"لذةُ الطعام ساعةٌ ولذةُ الثيابِ يومٌ، ولذةُ المرءةِ شهرٌ، ولذة الدار دهرٌ"؛ ولكن هذه الأمة تهتم بمظهر المباني أكثر من الاهتمام بإحكامها.

فالناس قديما كانوا ينفقون على المباني الشامخة أموالًا طائلةً، ومن ثم نرى أن الآثار القديمة باقية على ما هي عليه، وقصر التاج في آكره والقلعة الحمراء في دلهي، وقصور أكبر آباد وآثار المتقدمين في البلاد الأخرى قائمة على حالها، وشاهدة صدق على عقلية القدماء المحبة للإتقان والإحكام؛ ولكن الحكومة النصرانية في الدنيا الجديدة اليوم لاسيما في دلهي تبني قصر راي سينا، وتصنع المكاتب الحكومية والمباني الرسمية بإنفاق مئات الألوف من الروبيات، ثم تخصص كثيرًا من المال لترميمها، فإن الأموال تم إنفاقها على الشكل والمظهر لا على الإحكام والإتقان، فهي لاتبقى لمدة طويلة، وهكذا انظروا في المباني الحكومية، نجد أن المصلحة الحكومية الهندسية تكرس مجهوداتها على تصميم المباني وتجميل مظهرها، أما الإحكام والإتقان فلايهتمون بهما اهتماما لائقا.

ولما كانت هذه المباني الرشيقة لاتحمل شيئًا من الإحكام والإتقان، لكون بناتها لايهتمون بالعقلية المحبة للحقيقة والواقع، يقومُ أربابها بتحديد المبالغ الباهظة والمدة العملية للمباني الرائعة؛ حتى أن المباني الرسمية إن لم تسقط بنفسها يصدر مرسوم حكومي لهدمها، لئلا تضيع النفوس لانهدام طارئ، والظاهر أن هذه المبالغ لم تخصص لإحكام المباني بل لتجميلها، وإلا لم تكن حاجة إلى هدمها، فهم لايريدون إلا حبا للظهور والجمال الكاذب.

وفي الملابس نجد أن الملابس القديمة تبقى مع روائها لمدة طويلة، أما الملابس الجديدة فهي تبلَى لمدة صغيرة، ولاتكون صالحة للاستعمال؛ حتى أن الأشياء المستعملة للمتقدمين باقية حتى الآن؛ ولكن صنائع هؤلاء المعاصرين لاتحمل عنصر البقاء والإحكام، فكلما نشأت بضاعةٌ جديدة جاءت لتفسد الأمر؛

بل جاءت نذيرا للدمار والفساد، إن أوراق الكتب القديمة تبدو واضحة قديمة؛ ولكن الورق الماكيني المعاصر لايبقى صالحا للانتفاع بعد برهة قصيرة، وإن رُواء الحبر القديم مازال قائما؛ ولكن الحبر الصناعي العصري يشحب لونُه ويسقط رواؤُه بعد أيام، ويذوب ورقه، ولم يبق منه إلا أثر من آثار الحبر الذي يذكِّر بالحبر الراحل، الحاصل أن الدنيا المعاصرة المولعة ماليًا وعقليًا بالشكل والصورة تتركز جل عناياتها على الجمال والتزين دون الإحكام والبقاء.

الأمة المسيحية ليست أمة بصيرة بالعواقب:

ولما كانت خاصية الروح هي البقاء و الاستمرار، وخاصية المادة هي الزوال والفناء، والتغير والفساد، لزم أن تكون الأمم الروحية بصيرة بالعواقب، وأن تكون الأمم المفتونة بالصور متهورة مستعجلة، فإن المجال الروحي متطلع دائمًا نحو المستقبل والاستمرار، فإن كلَّ شيءٍ محكم يترك أثرًا طيبًا، يذكِّر بآثاره القديمة، وكل شي مادي يتوجه إلى الماضي لكونه دائم التغير، ولايرى وجوده في المستقبل، ومعنى هذا أن الباقيات تترك الماضي وتستقر في المستقبل، والفانيات تبتعد عن المستقبل وتتراجع إلى الماضي، وبما أن الماضي ينقضي، فإن المضاء يعني المرور والانقضاء، فالفانيات لاتحمل لها وجودا، لا من قبل ولا من بعد، لا في الأول ولا في الآخر، لا في الماضي ولا في المستقبل، أما الباقيات فهي تعني البقاء والخلود، فهي باقية من قبل ومن بعد، في الأول وفي الآخر، الحاصل أن الباقيات شيء وجودي، والفانيات شيء عدمي، فالأمم التي تحب الروحانية تكون بصيرة بالعواقب، مؤْثرة للآخرة على الأولى، فماهيتها رسوخ وبقاء، أما الأمم التي تحب الصورة فهي تكون مستعجلة

متهورة، لايهمها إلا حب الدنيا والمادة، وهي كلها فناء وزوال، ومن هنا فإن الأمة المسيحية المحبة للصورة والمادة إن كانت تعمل عمل الآخرة فهي لاترمي إلا إلى الأغراض الدنيئة الدنيوية، فإنها تذكر اسم الدين ليساعدها في السياسة الاجتماعية، وقد أعلنت بريطانيا بكل صراحة أن الدين إن كان منسجمًا مع سياستنا فبها، وإلا فعليه أن يتنحى طريقنا ويعتزلنا، فاسم الآخرة لايؤخذ إلا للغرض الدنيوي.

فغاية الدين لدى هذه الأمم المحبة للصورة والمادة أن تجمع القوم، وتؤلف بين قلوبهم، فكأن الدين وسيلة من وسائل تحصيل القومية، تهدف إلى جمع حطام الدنيا وأغراضها، وهذا انقلاب كلي، فالصورة كانت من وسائل الحقيقة، وهؤلاء المفتونون بالصورة جعلوا الحقيقة وسيلة وقلبوا الأمر ظهرًا لبطن، وما هذا إلا زيغ في القلوب وعمى في البصائر.

مظاهر تهور الأمة المسيحية:

والظاهر أن الأمة المولعة بحب الدنيا وكراهية الآخرة لابد أن يستولي على عقليتها كل من التهور والاستعجال، فإن الدنيا نقد والآخرة نسيئة، وكذلك الصورة الماثلة للعيان نقد والحقيقة الغائبة عن الأنظار نسيئة، فمحب الصور مستعجل، ومحب الحقيقة متأنٍّ، وفي ضوء هذه الأصول إذا تدبرنا وجدنا أن هذا يمكن أن هذه الصورة وفي تعبير آخر أن هذا الاستعجال يبدو في كل عمل من أعمال الأمة المسيحية، فالجزع والفزع جزء من حياتهم، وهي تستعجل بالعواقب قبل أوانها، وهي تَـمَلُّ كُلًّا من التدريج والتأني والترتيب الطبيعي، فهي تحرص على بلوغ الغاية قبل استعمال السُّلَّم، فهي مسرفة في هذا الوصف: الاستعجال، ومن هنا نرى رغبتها في ظهور كل شيء بنصف حقيقته بدون الوصول إلى الكمال الطبيعي،

وإن كان خاليا من المنافع المرجوة، وبعيدا من الاستفادة من الوسائل، فهي تريد مراكب سريعة، نحو القطار والطائرة، وإن كانت تعود على الركاب بضرر عظيم، لاسيما إذا انقلبت الريح وحدثت العواصف، وكذلك تريد وسائل المواصلات السريعة، نحو البرقية والتليفون واللاسلكي، وإن كانت سببًا لتشويه الأنباء، حتى إنها تريد النبات بسرعة مفرطة، فهم يحاولون زراعة الأراضي أربع مرات سنويًّا، وإن كان هذا النوع من الزراعة قليل المنفعة، ثم استعجالهم هذا بلغ بهم إلى الخلق والتنمية، فهم يستعملون الماكينات لاستخراج الأفراخ من البيض، وإن كانت حياتها ناقصةً ضعيفةً، وكذلك استعجالهم في تجميد الجماد، فهم يبنون المباني بشكلٍ سريعٍ، ويقللون من عمقها ويقصرون في جدرانها، ويبدلون من الطراز العمراني القديم أسلوبًا جديدًا من المباني يقوم على الاسمنت، يتم بشكلٍ سريعٍ، ولا يحتاج إلى تأخيرٍ تدريجيٍ، ثم بدلوا منه الاسمنت الألومينيومي، فهو أسرع، وجاهز تمامًا، فمن السهل مدُّ أطنابها بشكل الخيام، وتقويضها، ولايحدث تاخيرٌ ولو طبيعي، مما يكون ثقيلًا على العقلية المتهورة المسرفة.

يختارون في الثياب الخياطة الماكينية، لأن الخياطة باليد تستغرق وقتًا طويلًا، كما يفضلون الأدوية والأغذية المصنوعة من الماكينات، فإن الصناعة اليدوية تحتاج إلى وقتٍ وتأنٍّ، وكذلك تقصير الشعر يريدون أن يكون بالماكينة، فإصلاحه باليد يحتاج إلى وقت، الحاصل أنهم لطبيعتهم المستعجلة يجتنبون التأني، ويتحاشون أن يستغرق العمل الوقت الكافي المطلوب، ويفرون من الصبر والأناة، فهم جد حريصين على أن ينالوا الآن ما يمكن مناله، وإن كان خاويًا من الفائدة المستقبلية.

"**إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا**" (سورة الدهر: ٢٧)

إن كمال الأشياء مرهون بكمال أسبابها:

مع أن الأصلَ المعقولَ المشاهَد أن كل شيء في هذا العالم يبلغ غايته إذا اكتملت أسبابه، وإلا لن يكون هذا العالمُ عالمَ الأسباب، إن تم حذفُ هذه الدرجات والمراتب بين الوسائل والغاية لكان مثله كمثل من يحاول إخراج الجنين من بطن أمه في الشهر السادس أو السابع، أو كمثل من يحاول أن يحتلم الطفل في صباه بسبب الأدوية وغيرها، مما ينتج أن ينقضي قبل أوانه، أو عدم نشوء قواه العقلية أو ضعفها لدرجة لاتصلح لتحقيق غايتها، وفي كل هذه الصور تكون حياته وموته سواءً، فالعقلية المستعجلة المعاصرة تجري بخطى حثيثة إلى الانتحار لا إلى الازدهار؛ ولكنهم يسمون هذا الانتحار بالحياة والرقي على سبيل الجهل المركب، فالمولعون بالصور والمادة لاتنشأ فيهم عقليةٌ متينةٌ، ولا تأنٍّ وأناةٌ، فلايتمتعون بتمكنٍ عقلٍي ولا قوة الانتظار؛ بل هذه العجلة وفقدان الصبر هما نهاية هذه الأمة، كما أنها هي الدرجة النهائية للضعف الإنساني، فهي أمةٌ محرومةٌ من المنافع الطبيعية للأسباب ومسبباتها بسبب عقليتها هذه؛ بل وقعت بعيدةً جدًا عن الأخلاق والملكات الإنسانية؛ فهم من جانبٍ تركوا مسبِّب الأسباب للأسباب، وكذلك تركوا الأسباب بسبب استعجالهم، فلاكانوا لمسبب الأسباب ولا للأسباب نفسها، فلا لله كانوا ولا للخلق، فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

"**خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**" (سورة الحج: ١١)

وهل من خسارة في الدنيا أعظم وأدهى من هذه؟

الأشياء المصطنعة هي هواية الأمة المسيحية:

والظاهر أن الأمة المتهورة التي لاتدرك العواقب تشتغل عن الأسباب الطبيعية لظهور الأشياء بالأسباب الفرضية والطرق المصطنعة، فهي مولعة بهذه

الأشياء المصطنعة، وبعيدة عن الأشياء الطبيعية، فهي أُمةٌ غلبت عليها العقلية المصطنعة، والرغبة في الرياء الكاذب والجمال المصطنع، وبعد بلوغ هذه الدرجة من التصنع والتكلف لايستطيعون إقامة الصلة مع الأشياء الطبيعية؛ بل ينفرون منها، ويُحِلُّون الصناعة محل السذاجة، فهم لايلتفتون إلى صنع الله الذي أتقن كل شيء مادام لايصاحبه صنع بشري ضعيف، وذلك أن صنع الله يحتوي على جزئين: الروح والجسم، أوالحقيقة والصورة، والإنسان لايقدر إلا على واحد منهما: الصورة دون الحقيقة، والجسم دون الروح، فممكن أن يعمل الإنسان تمثالًا أو يصنع صورة أو صنما؛ ولكنه عاجز عن نفخ الروح فيه، فإن الخلق والإحياء بيد الله وحده، ومن هنا نجد أرباب الحقائق لاتميل طباعهم إلا إلى الصنع الرباني وهيئاته، فإن الأصالة لاتوجد إلا في هذا، وهم مولعون بالحقائق، أما أرباب الصورة والمادة فغاية أمانيهم الوصول إلى الصنائع البشرية، التي لاتحمل إلا الصورة والجسم، ولايمسها شيء من الحقيقة، فهم راغبون طبعا في الصورة والمادة، وبما أن الأصل في الصنائع الإلهية هي الحقيقة والروح، ولايقدر الإنسان على خلقها وتشكيلها، فأرباب الحقائق يكونون في مبعدة من الصورة والهياكل البشرية، وذلك أنهم فرسان ميدان الحقيقة، الذي لايقتحمه شيء من الصورة والمادة، والمعلوم أن الأصل في الصنائع البشرية المصطنعة هي الصورة والمادة، وللإنسان قدرة على تشكيلها وصناعتها، فغاية أمانيهم هي الصورة والصناعة والتكلف، فمجالهم هو مجال الصورة واللون، الذي لاعلاقة له بالحقيقة، وقد اختارت الأمة المسيحية هذا المجال لما فطروا عليه من استعجال وتهور، وآثرتْه على الأشياء الحقيقية، لتكون مشغوفة بالتصوير والصورة، مما كوَّن لديها عقلية صناعية متميزة، مما ينتج أنها صارت مفتونة بما تصنعه من

صورة، حتى ترى من اللازم أن تمزج بالصنع الإلهي صنائعها البشرية، فهي تحب النور؛ لكن النور المصنوع بالغاز والكهرباء، وتريد الماء الذي يخرج من الأنابيب، فهي من صنع بشري، وكذلك تحب المراوح الكهربية، ذات المنشأ البشري، وترغب في المراكب السائرة بقوة البخار والغاز والكهرباء، فإن المراكب التي تسير بقوة الحيوانات في الواقع نوع من اللجوء إلى الصنع الإلهي، وابتعاد عن الصنع البشري، كما يريدون الموظفين المتحركين بقوة الكهرباء، ويفضلون كل عمل يتم بقوة الكهرباء والماكينات، حتى الأشياء التي توجدها القدرة الإلهية الخالصة لايستحيون فيها عن مزج صنائعهم البشرية، وعلى سبيل المثال فإن ألوان وأشكال الأزهار والثمار الطبيعية قد يحاولون أن يحدثوا فيها تغييرًا وتبديلًا، ويجعلونها أصنافًا جديدةً من الأزهار والثمار بالتلقيح الصناعي، كما يحدثون تغييرًا عجيبًا، ليصغِّروا الكبير، ويكبِّروا الصغير؛ حتى تصطبغ الصنائع الإلهية بشيء من الصنائع البشرية، فلم تبق غاية الشركات الصناعية الأوربية إذن إلا أن تتدخل في الصنائع الإلهية، وتجعل الإنسان يخسر المنافع الحقيقية للأشياء الطبيعية، فكل شيء طبيعي داخَلَه الصنعُ البشريُّ خسِر سذاجتَه ومميزاتِه الموهوبة، فهذا التدخل البشري الصناعي وإن كان مما يزيد الأزهار والأثمار روعة وبهاء؛ ولكن طعمها ورائحتها وفوائدها المرجوة تذهب سدى.

وقد بلغ بهم الزهو التصويري إلى أنهم يحاولون إحياء الحيوانات وإيجادها، فاخترعوا الآلات والماكينات ليتم بها تزويد المواد البيضوية بالدفء لتخرج الأفراخ بدون دجاجة، وهم في هذه الأيام يفكرون في صنع آلة يتم بها جذب المادة المنوية من الخيل وصيانتها في الزجاج، ونقلها في أنثى الفرس وقت الحاجة، مما يكون سببًا

لولادة الخيل بدون عمل طبيعي لها، فلايكون نزوٌ ولا انتظار، وبعد نجاح هذه الطريقة ممكن أن تعاد هذه التجربة في ولادة الإنسان، وهؤلاء الأولاد الحاصلون من الماكينات والآلات سوف يباعون في الأسواق بأرخص الأثمان، وإن ربحت التجارة فممكن أن يرتفع أسعارهم.

أوليس هنا من سائل يتساءل: ما الذي دفعكم إلى هذا الحد من الجنون لتتدخلوا مباشرة في الصنع الإلهي؟ وهل من منتهى لسفاهتكم وبلادتكم؟ وهل أنتم مستعدون لنزع الرجال من رجولتهم بسبب آلاتكم لتتمكنوا من فرض أنفسكم على العالم؟ مع أن العالم الذي تريدون فرض أنفسكم عليه هل يبقى بعد كل هذا الانهيار والتحدي لشؤون الله؟ فإن زال هذا العالم وربحت صناعتكم فمن الذي سيستفيد من هذه الصناعة؟

إذن إن الحرص على الاختراع والإيجاد والقضاء على الموجودات النافعة وإيجاد الأوهام للانتفاع بالمصنوعات إنما هو همة الأمة المتهورة المفتونة بالصور والمادة التي فقدت كل أنواع البصيرة والأناة والتحمل والصبر، وأقامت معركة حامية مع العقلية البصيرة المدبرة.

رياء الأمة المسيحية وصناعتها:

ثم رغبتها الجامحة في الصورة والمادة ونفورها من الأشياء الطبيعية جعلتها تحدث في الجمادات والنباتات الشأن الصناعي، وتقوم بعدد من التغييرات والتقلبات في الأجساد البشرية، حتى عادت الجراحات التجميلية جزءًا من ثقافتها وحياتها، فنجد النساء الأوربيات وأتباعهن في العالم الشرقي، يخضعن للجراحة إما بهدف

تكبير عينها الصغيرة، أو لصقل الأسنان، أو لتركيب الأسنان بالذهب، أو لإزالة جلود الوجه، وملأها بالمساحيق، أو لوشم الجلود بعدد من الأشكال والصور وما إليها من الحماقات والسفاهات، التي تدل بشكل خارق على ما تميزت به هذه الأمة من ولع بالتصوير وغرام بالمادة والجمال الزائف، وعلى أن همة هذه الأمة في كل شيء طبيعي أو صناعي منحصرة في إظهار هذا الجمال الكاذب والرياء الفاحش، حيث جاء في صحيفة "وحدت" الصادرة عن دلهي في الرابع من أبريل عام ١٩٣٦م ما حاصله:

"إن الأوربيين رجالا ونساء ينفقون أسبوعيا نحو مليونين وأكثر على التجميل والتزيين، حتى أنشأوا مؤخرا أكثر من خمسين مصنعا تعمل في صنع المسحوقات".

وكذلك في مجال الصناعة والحرفة بدَّلتْ من صناعة اليد آلةً وماكينةً وحديدًا ونحاسا أصفرَ، وقد حلَّت الصناعة البشرية المصنوعة من البخار والكهرباء محل الصناعة الإلهية، وقد غلبت الخياطة الآلية على الخياطة اليدوية، وحلت آلات أوربا محل معامل يدوية، والآلات الكهربية محل السراج، والورق الصناعي محل الورق القديم، وحلَّت المراكب الفارهة نحو القطار والسيارة محل الفرس والجمل، وحلت أنابيب المياه محل الآبار، والطباعة محل الكتابة، الحاصل أن كل عمل صناعي ناشئ عن الجوارح الإنسانية والقوى الداخلية والنفسانية والفطرية، مما كان صادرا في القديم عن القلب عاد يصدر عن القالب، ثم تحول عن القالب الإنساني إلى الآلات الجامدة، مما أضاع جوهر الإنسان، فهو لم يعد قادرًا على أن يظهر مهاراته حيثما كان، بل صار عبدًا لما اخترعه من آلات وأجهزة نحو الماكينات والمحركات والفحم والعمال والكهرباء والغاز وغيرها من الأشياء الكثيرة، فالإنسان عاد شيئًا تافهًا

بدون هذه الماكينات والأجهزة، فهو مكبَّل بقيود الآلات، ونافع في المدن بتوافر الآلات وضائع في القرى والأرياف بفقدان هذه الوسائل.

وعلى كل فالعقلية الماكينية تجعل الإنسان رجلًا مهملًا معطَّلًا يتخلى عن جوهره، ويخسر مميزاته، ويعتمد على الآلات والوسائل نحو الكهرباء والحديد والنحاس، وعلى العكس فإن الصناعة القديمة كانت تصقل مواهب الإنسان، وتجعله فاضلا وتبرز مكامن مؤهلاته، والعقلية الماكينية تجعل الإنسان كيانا خاليا عن الفضيلة والبراعة؛ بينما العقلية الثانية تجعله كيانا متميزا بخصائص ومؤهلات، فالعقلية الأولى تجعل الإنسان عبدًا للآلات والوسائل، والعقلية الثانية تجعل الآلات والوسائل عبدًا ذلولًا للإنسان.

وفي تعبير آخر فإن العقلية القديمة تعطي الإنسان شأن العظمة بينما العقلية الحديثة تجعل الوسائل تتغلب على الإنسان، نعم! الإنسان الذي كان من شأنه تسخير الكون كله عاد لقمة سائغة وعبدًا محتاجًا إلى الآلات والوسائل بفضل هذه العقلية الحديثة، فإن ضاعت الصناعة اليوم وذهبت المراكب ووسائل المواصلات والوسائل الحضارية الأخرى، لايستطيع الإنسان المعاصر أن يتنفس في هذه المعمورة ولو للحظة قصيرة؛ بل يعزم على الانتحار، ومن هنا نرى أنباء الانتحار تشغل حيزا كبيرا من الصحف الأوربية، ومعظمها تحدُث بسبب هذه الأوضاع التي يفقد فيها الإنسان الوسائل وما يحتاج إليه. وقد ذكرت في الصفحات القادمة جدولا صغيرا من نسبة الانتحار في العالم.

مع أن الإنسان الحقيقي هو الذي إن أعرض عنه كل العالم وما فيه من ماديات ووسائل ترفيهية ولازمة ولم يبق له إلا مكان للخلوة صغير في إحدى زوايا

الجبل، لم يحدث فرق في حياته وبلوغه إلى غاية الكمال والفضائل، فهو ليس بحاجة إلى الوسائل، بل يستطيع أن يخترع ما يحتاج إليه من الوسائل، أينما كان.

وعلى كل فالأمة المسيحية كبَّلت نفسها بالقيود والأغلال بسبب هذه العقلية المادية، وبالغت في صناعتها معرضة عن الأمور الفطرية والأشياء الكونية، ولايمكن لنا أن نسميه رقيا وازدهارا للإنسانية؛ بل هو طريق المسكنة والذل والانحطاط المدمر، الذي تسير عليه سيارات مدنيتها الزائفة، وقد أشرفت على الهلاك.

الأمة المسيحية أمة سفيهة:

المعلوم أن العين طريق إلى الصورة والعقل طريق إلى الحقيقة، فما بين الصورة والحقيقة هو نفس ما بين العين والعقل من فرق واختصاص، ولايخفى على أحد أن الصورة تخدم الحقيقة، وكما أن المشاهدات والمحسوسات تشكل وسائل إلى المعقولات، فكذلك العين والأنف وغيرهما مما يدرك المحسوسات كل ذلك خادم للعقل، فكل مايدرَك بالأبصار والآذان والأنوف يحفظه العقل، ويستنبط من الفروع الجزئية الأصولَ الكلية المعقولة، بشرط أن يتجه العقل بشكل سليم، فكل أمة تتخبط في الصور والأشكال على حساب العقل والماهية تعتمد على البصر لا على البصيرة، وعلى الشكل لا على الحقيقة، **"فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ"** (سورة الحج: ٤٦)، فليس من المعقول أن نسمي مثل هذة الأمة –التي لاتدرك الكنه وتعتبر الصورة حقيقةً– أمة ذات عقل وبصيرة، بل هي أمة سفيهة ماكرة، محرومة كليا من التعقل، بل السفه ميزتها والحمق ديدنها، فإن العقل يصل إلى الحقيقة، والمكر يورِّط الإنسان في الصورة ويجعله خاسرًا، ومن هنا اعتبرت الشريعةُ الإسلاميةُ المرأة ناقصة العقل، فهي لاتستطيع إدراك الحقائق الكلية، ومن جهة أخرى وُصف مكر

النساء بالعظمة والخطورة، كما هو ظاهر من قوله تعالى: "**إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**" (سورة يوسف: ٢٨).

فإن المرأة –ذاتًا وصفةً– مطبوعة على المكر والخداع، وأقوالها خلابة لافتة للنظر، ولهجاتها آسرةٌ لعقول الكبار، فكذلك تماما نجد الأمة المسيحية المفتونة بالصورة والمادة ماهرة في المكر والخداع، ولكنها في نفس الوقت خاسرةٌ كلَّ ذرة من العقل والبصيرة.

ولعل هذا الكلام لايصادف هوًى في بعض القلوب، وربما يثير تساؤلات: إن الأمة التي قدَّمت اختراعات واكتشافات حضارية باهرة، وصنعت وسائل متطورة فرضت نفسها على العالم، أَ وَ ليس من السفاهة والبلادة والعداوة للعقل والبصيرة أن نصف مثل هذه الأمة بالسفاهة؟ وهل من المعقول أن الأمة السفيهة تقوم بإنجاز هذه المآثر؟

والجواب أن اختراع الآلات والوسائل لايقوم على العقل والبصيرة، بل على البحث المستمر والجهد المتواصل، فكل صانع يواصل عمله ليل نهار، ويدبر أمره بكل تفانٍ وإتقان فلابد أنه سيأتي بجوانب جديدة من أعماله وفنونه، ومهما يتقدم في عمله يتطور فنه، ويشق طريقه إلى الجديد اللذيذ وينتقل ذهنه إلى الصنائع الأخرى، فإن الصانع لايتوصل في بداية الطريق إلى الفن النهائي المتطور، فضلا أن نتصور أن الصانع قام بتصميم مخترع بعقله قبل بداية عمله، ثم جاءت النتيجة كما تصور، فهذا مستحيل؛ بل التجارب العملية هي التي تهدي إلى الجوانب الجديدة من العمل، فالإنجازات الصناعية ليست عمليا عقليا، بل هي تجربة إنسانية، ومن هنا نرى أن الصانع الجاهل أو الغبي ينجز عمله وبكل إتقان بعد تجربة سنين عديدة؛ ولكنه من الناحية العقلية مازال جاهلا بليدا؛ بل إن كانت هناك من حاجةٍ إلى العقل فيستعمل

التجارب الماضية ليتحاشى مثالب الأعمال ومطاعنها، ولايستطيع وضع تدابير مستقبلية، فَنَصِفُ الصانع بالبصير بالعواقب، فعقله خاضع للتجارب، لاالتجارب خاضعة للعقل المدبر، فإن اختراع القطار مثلا لم يكن عملا عقليا، فالمخترعون لم يتصوروا بعقولهم هيئة هذه الصناعة، فبدأوا أعمالهم حسب هذا التصميم؛ بل رأوا بخارًا يتصاعد من قدر يغلي، فيهز الغطاء، ويرفعه، ومن هنا علموا قوة البخار، وانتقلت أذهانهم إلى أن البخار إذا تم حبسه، ثم يُخْرَجُ بشكل متسق، يُدَحْرِجُ بقوته ما يأتي أمامه، وفي ضوء هذه التجارب توصلوا إلى تحريك الدولاب بقوة البخار، ثم صنعوا سيارات ومراكب تسير بالبخار، ثم توصلوا إلى هيئة خاصة للقاطرات والمحركات، حتى أقاموا صناعة مستقلة للقاطرات والمراكب، وظهرت أشكال بهيجة للسيارات والحافلات والقطارات، فأعمال العقل هنا خاضعة لأعمال الجوارح، وليست أعمال الجوارح خاضعة للعقل، فممكن أن نقول: إن أساس هذه الصنائع والاختراعات ليس هو العقل، بل التجربة المتواصلة والبحث المستمر.

والمشاهد أن الصُّناع في غالب الأحوال يكونون رجالا لم يعرفوا بالعقل والعلم والفكر، فلاصلة لهم بالأمور العقلية، وإذا عرض لهم شيء من ذلك باتوا مبهوتين، وإذا حدث لهم أمر يتعلق بالصناعة يقومون بعمل إبداعي غريب، يبهر العقلاء والحكماء.

وعلى كل فإن مجال الصناع والعمال هو العمل لا العقل والبصيرة، ومجال العقلاء هو العقل، وعملهم تابع لعقولهم، فلامانع من القول بأن الأمة التي ساهمت في الصناعة والحرفة مساهمة فاعلة، وجعلت العقل والعلم تابعين للعمل؛ بل اعتبرت الصناعة الغرض الأصيل، ودفنت كيانها الروحي، وأولعت بالعاجل، وأضاعت الحقيقة، لا شك أن هذه الأمة أمة سفيهة، مضروب لها المثل في البلادة وخفة العقل، ولاتستحق أن تُعد من الأمم العاقلة.

إن ولع الأمة المسيحية بالتصوير بل عبادتها للتصوير جعلتها محرومة من العلم وحبه، تفتتن بالظاهر وتتهافت على الصورة، وحبسها في إطار ضيق للعلم، يمكن أن يصل إليه البهائم، فالبهائم هي الأخرى ليست محرومة من الحس والشعور، ثم هذا الولع بالصور أحدث فيها جراثيم التصنع والتكلف، بحيث تتجاسر على إصلاح الأشياء الطبيعية وفق فنونها، وهكذا ابتعدوا كثيرًا عن الحقائق وحقيقة الحقائق علمًا وعملًا، وأقاموا نظامًا يتعارض من نظام الأنبياء الذي يربط المخلوق بالخالق ويخرجه من ضيق الدنيا إلى سعتها، فنظام الأمة المسيحية يهدف إلى تشكيل عقلية بشرية تنحصر اهتماماتها في إطار الكون المخلوق الكثيف المكون من العناصر والألوان والصور والأشكال والأخلاط الأخرى، ومازالت هذه الأمة تتورط في هذا الوحل، ولاتقتنع إلا إذا تمهرت في تصوير عواطفها وأشكالها وما إليها، والمعنى أنها لم تبلغ الهدف الأمثل في التصوير، بل تخبطت في تصوير نفسها، فلم تصل إلى مخلوق مثالي فضلا أن يصل إلى الخالق.

العقاب الإلهي الذي نزل على الأمة المسيحية تمثَّل في اللون التصويري:

ومن ثم كلما نزل عقاب إلهي على أمة تحب الصورة وتقدس المادة نزل متمثلا في اللون التصويري والإيجادي، فتنقلب الصورة التي تكون راحة ونعيما لتلك الأمة إلى عقاب وآفة سماوية، فقد تصطدم القطارات وتزهق أرواح الألوف من الناس، كما تصطدم السيارات وتحصد أرواح الكثير من الناس، وقد يسقط السلك الكهربائي، ويقضي على العديد من الناس، وقد يسري تيار كهربائي يحصد الأرواح، وقد تمس النارُ إحدى فتيلات البارود [المادة المتفجرة]، وقد تنفجر القنابل التي تسفر عن مقتل وإصابة العديد، وقد تتصدى الطائرات للانهيار فيذهب الركاب ضحايا الحادث، وبعد كل هذا قد اخترع المخترعون كثيرا من آلات وأسلحة الدمار الشامل، التي من شأنها أن تبيد البشرية في وقت قصير، فهناك مدافع حاملة لثلاثين

طنا، والبنادق الضاربة إلى اتجاه بعيد، ومدافع رشاشة تهدف إلى مجموعة إنسانية كبيرة، فتقضي عليها، وطائرات مدمرة ثقيلة تبيد القرى والأرياف في لحظة، وغواصات تهدف إلى قواعد العدو، وما إليها من أسلحة الدمار، وهي ليست إلا عقابا إلهيا، معلقا على رؤوسهم، وهم بسبب هذه الاختراعات المدمرة مهدَّدون دوما بالمصير المحتوم والقضاء النهائي المهين.

وعلى كل فقد اتضح بكل جلاء أن عقلية كل أمة تخضع لعقلية مربيها الأول، فعقلية الأمة المسيحية –كأمة– تتمثل في الاختراع والتصوير والإيجاد الذي كان أكبر مميزات عيسى عليه السلام؛ ولكن هذه الأمة لم تستعمل هذه العقلية في حدودها المشروعة، وإنما تجاوزت الحد، ودخلت فيما لايعود إلا بخسارة ووبال، فبدل أن تكون هذه العقلية خيرا وبركة انقلبت شؤما وحسرة عليهم، ولو كانت وقفت على الحد، وانتهجت منهج نبيها ونظام كتابها لكان خيرا وجاء بفوائد جسيمة.

الأمة الإسلامية أمة علمية يغلب عليها طابع العلم والحكمة:

وبعد النظر في أحوال الأمم إذا فكرنا في حال خير الأمم: الأمة الإسلامية وجدنا أن عقليتها تعكس شأن مربيها الأول أعلم الأولين والآخرين: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعقليتها عقلية علمية، والعلم والحكمة والإدراك كانت من أهم مميزات رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أوتي القرآنَ العظيمَ: دستوراً خالداً للعباد والبلاد، الذي جاء تبيانًا لكل شيء، فكيف يمكن أن لاتكون عقلية هذه الأمة غارقة في بحر العلم، والظاهر أن العلم يحتاج إلى آلتين: اللسان والقلم، وقد قامت هذه الأمة عن طريق استخدام هاتين الآلتين بإنجاز دور ثقافي كبير وإثراء المعرفة الإنسانية بشكل مدهش، فنقول عن بصيرة ومشاهدة: إن هذه الأمةَ سباقةُ الأمم في الكمالات العلمية، فخطبها ومحاضراتها ومهارتها في الطرح والإلقاء مما جعل الآخرين ينطقون، فجعلوا

البُكم فِصاحًا، ووهبوا لمن حصرت ألسنتهم لَسَنًا وطلاقةً، وما أروع ما قاله الشاعر الأردي الكبير حالي:

الأبيات الأردية	ترجمتها إلى العربية
عرب کی جو دیکھی وہ آتش بیانی	لما رأى الناسُ في العالم ما تميز به العرب من مهارة في الكلام
سنی بر محل ان کی شیوا بیانی	وسمعوا ما يطلقونه من بيان ساحر
وہ اشعار کی دل میں ریشہ دوانی	وأبيات نافذة إلى القلوب
وہ خطبوں کی مانند دریا روانی	وخطب تفيض علما ومعرفة كالبحار
سلیقہ کسی کو نہ تھا مدح وذم کا	وكان الناس كلهم لايعرفون شيئا عن أساليب المدح والذم
نہ ڈھب یاد تھا شرح شادی و غم کا	وكانوا جاهلين بأساليب الأفراح والأتراح
نہ انداز تلقین وعظ و حکم کا	ولم يكونوا على خبرة من الوعظ والتلقين
خزانہ تھا مدفون زباں اور قلم کا	إن كنوز اللسان والقلم كانت مدفونة
وہ جادو کے جملے وہ فقرے فسوں کے	وكانوا يتخبطون في أوهام السحر والشعوذة
تو سمجھے کہ گویا ہم ابتک تھے گونگے	لما علموا كل ذلك عن العرب أدركوا أنهم كانوا قبل اليوم بُكْمًا
نوا سنجیاں ان سے سیکھیں یہ سب نے	فكلهم تعلموا من العرب أسلوب الكلام وآداب الحوار
زباں کھولدی سب کی نطق عرب نے	فنطق العرب هو الذي أنطق الجميع وحرَّكَ الألسنة.

الشمول العلمي للأمة الإسلامية في مجال التصنيف:

انظروا في الإنجاز القلمي تجدوا أن كثرة التصانيف -كما يقوله الزرقاني صاحب المواهب- من مميزات هذه الأمة، والمكتبات عامرة بتصانيفها، فلم تترك علما وفنا إلا أحصتْه وأثرتْه، فمكتبات العراق العظيمة في الخلافة العباسية، والمكتبات النادرة في الخلافة الأندلسية، ومكتبات الحجاز والروم، والخزائن الكثيرة في مصر، والألوف المؤلفة من المكتبات والمراكز العلمية في الهند والبلاد الإسلامية، وهي وإن كانت هذه المراكز تعرضت كثيرا للإغارة والمصادرة والحرق والحشرات، فالدول المسيحية لم تدخر وسعًا في تدمير ما بنته الأمة الإسلامية في سنين طويلة، كما حدث في الأندلس، وفتنة التتار أغرقت كثيرا من المآثر العلمية في نهر دجلة، مما جعل ماءه يتوقف لمدة أيام، ولما فاض كان كحبر أسود غليظ، وتم استعماله في الدواة شهورًا، رغم كل هذا الضياع فما بقي من الذخيرة العلمية للأمة الإسلامية وما يخرجه رجال الأمة الإسلامية كل يوم من تصانيف عالية كثيرة، بلغ من الاتساع والكثرة ما تقصر عن إدراكه مطابع آسيا وأوربا، فها هي مطابع الدول الأخرى التي تعمل بشكل مستمر ولكنها لم تبلغ حتى الآن معشار ما ألفه المسلمون في العالم كله.

فالكتب المطبوعة اليوم تحيل على كثير من الكتب الغير المطبوعة، التي لايوجد لها أثر ولا خبر، والسلف كانوا يتحسرون على ضياع مثل هذه الكتب، فكانوا يقولون: ليتنا وجدنا مثل هذه الكتب، وطالعناها، فمكتبات أوربا لاسيما مكتبات ألمانيا الممتدة للأميال تحتوي على كثير من المصنفات الإسلامية، مما يشمل كلا من كتب علم الاقتصاد وعلم الطبيعيات وعلم الحسيات وعلم النبات وعلم الحيوانات وعلم طبقات الأرض والعلم الحديث وما إليها من الكتب الكثيرة، التي حُرِمَها اليوم أربابُها

الأصلاء، والدول الراقية اليوم مستفيدة من التراث الإسلامي، وممكن أن تنتحل هذه الدول وتجعل تراثنا الإسلامي أيضا من المعطيات الأوربية، وتتلقى الترحيبات الحارة من جميع الأوساط العلمية.

الأمة المسلمة وإسهاماتها في اختراع العلوم والفنون:

لم ينحصر اهتمام الأمة الإسلامية في مجال التصنيف والتاليف فقط؛ بل قام النابهون من هذه الأمة بإيجاد العلوم والفنون واختراع الكثير من التسهيلات الحضارية، فإنهم أوجدوا فن التصنيف استفادةً من القرآن الكريم، ثم وضعوا عددا من العلوم التي ترمي إلى حفظ القرآن الكريم، الذي هو عبارة عن حفظ العلم الإلهي، فأوجدوا قبل كل شيء علم رسم الخط، لئلا يحدث تغير في الخط القرآني، ويمتاز هذا الخط عن سائر الخطوط الإنسانية، ثم أوجدوا علم التجويد حرصا منهم على حفظ المنهج الصحيح للتلاوة وتحسينها، وكانت القراءة مختلفة، وكان كلها مقبولا، فنشأ علم وجوه القراءة، ثم أوجدوا علم التفسير لتفسير المعاني القرآنية وتفهيم المرادات الربانية، وبما أن القرآن الكريم نزل بالعربية فكان من الضروري تعلم هذه اللغة، فنشأ علم الأدب، ثم الأدب يحتاج إلى علوم كثيرة، فأوجدوا هذه العلوم التي تتمثل في علم اللغة وعلم الأمثال وعلم القواعد النحوية والصرفية، وعلم البلاغة، وعلم المعاني وعلم البيان، هكذا نشأ اثنا عشر علما، وهي علم اللغة وعلم النحو وعلم الصرف، وعلم الإنشاء وعلم المعاني وعلم البيان وعلم البديع، وعلم الأمثال وغيرها، ولما كان التفسير في أمس الحاجة إلى أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجدوا علم الحديث، ثم وضعوا قوانين صحيحة لفحص الأحاديث النبوية، وتمييز صحيحها من ضعيفها، وهذه القوانين تشكلت أساسا علم أصول الحديث، ثم كانوا في حاجة إلى الاطلاع على أحوال الرواة ودرجاتهم

وأحوالهم التاريخية، فإن صحة الحديث وضعفه يتوقفان إلى حد كبير على عدالة الرواة وضبطهم، ومن هنا نشأ علم أسماء الرجال، ثم عملية الجرح والتعديل للرواة كانت في حاجة إلى معيار صحيح، يتم في ضوءه الحكم بثقة وضعف الرواة، فأنشأوا علم الجرح والتعديل، وهكذا بلغ فن الحديث أوج الازدهار والرقي، وكانت جميع أحكام الشريعة مندمجة بعضها في بعض كاندماج أغصان الشجرة، فقام علماء الإسلام بتمييز بعض الفروع الإسلامية عن بعض، ومن ثم نشأ علم الفقه، ثم وضعوا أصولا وقوانين لاستخراج الأحكام واستنباطها، وعلى هذا الأساس قام صرح علم أصول الفقه، وبما أن الاستنباط عملية صعبة، تتضارب فيها الآراء، وتتطاحن فيها الأفكار، فكانت حاجة إلى أصول، تكون معيارًا لتمحيص صحيح الأفكار وضعيفها، وعليه قام علم الجدل والخلاف، ولاشك أن أساس الدين هي العقائد الإسلامية، وكانت هذه العقائد معرَّضةً للحملات الفلسفية، فتم تدوين علم الكلام، وكان القرآن الكريم قد ذكر كثيرًا من أخبار الأمم الماضية، فتم تدوين علم التاريخ، ليكون تفصيل الأخبار والحوادث بشكل منهجي، ولما كان التاريخ يشتمل على كثيرٍ من الأخبار الأصولية، فضلًا عن الحوادث الجزئية، ومن ثم نشأ علم أصول القصص، وبما أن القرآن الكريم تحدث كثيرًا بشكل أصولي عن الأرض وما فيها من نبات وجماد وما يتعلق بها، فنشأ علم طبقات الأرض، ولما تمَّ توزيع الأرض إلى فروع عديدة حسب الأقاليم والبلاد، وكان كل منها يشكل كيانا مستقلا، ومن هنا نشأ علم الجغرافية.

ثم استعمال الجماد والنبات وغيرهما وكيفية الاستفادة منهما وتبادل المنافع والمضار فتحت باب علم المعيشة، كما أن الخلق الإنساني والحيواني ومقتضياته الروحية والنفسية وضعت أساس علم النفس، ثم إصلاح النفس وتزكية الأخلاق الرذيلة-

وهما من أهم مقاصد النفس- أسَّسا علم التصوف، ثم المنهج الأمثل للوعظ والنصح دفع إلى تأسيس علم الوعظ، ثم تقسيم تركة الميت وسهام الإرث أفضى إلى تدوين علم الفرائض، وهذا العلم كان في حاجة إلى الحساب، وبذلك نشأ علم الحساب وتطوَّر، مع نشوء علم الجبر والمقابلة.

الحاصل أن الأمة الإسلامية قامت باستنباط هذه المعاني واستخراج الكنوز العلمية وصياغتها بشكل فني، وتدوين كل فن على حدة، في كل موضوع تحتاج إليه الحياة الإنسانية والحياة الروحية من الولادة إلى الموت، وماتتفرع عنه من فروع وشعب مما أشار إليه القرآن الكريم والحديث النبوي، فقامت بتأصيل الأصول وتقعيد القواعد، وضبط الفروع، وتنقيح المقاصد والمبادئ، وترتيب المسائل الطبيعية، ثم قامت بتقيسم الأبواب والفصول لتكون سهلة المأخذ، وهكذا قامت بدور ريادي في تدوين العلوم والفنون مما يبهر الجميع حتى العالم الثقافي المعاصر ولايوجد له نظير في العالم كله، وهكذا كل أمة في العالم اضطرت إلى الاستفادة من عجائب ما خلفه المسلمون في المجالات العلمية.

إضافةً إلى ذلك، فإن المسلمين قدَّموا خدمات جليلة في خدمة العلوم الكثيرة وتطويرها، فقسّموا العلوم تقسيما فنيا، ونهضت كل فئة لتخدم الفنون المستقلة، ووقفوا أعمارهم على خدمتها وصيانتها.

فحفظ حفاظُ كلام الله ألفاظَ القرآن الكريم، والقراء حفظوا طريق التلاوة والأداء، والرسامون حفظوا رسم الخط القرآني، والفصحاء والأدباء حفظوا بلاغة النص القرآني، والمفسرون حفظوا معاني القرآن الحكيم، والفقهاء ساهموا في استنباط الأحكام من القرآن الكريم، وهكذا حفظ الأصولَ المتكلمون، وأسلوبَ الجدال الدعاةُ والمناظرون، والمعانيَ الكونية الفلاسفةُ، والأخلاقَ الصوفيةُ، والحقائقَ الإسلامية

الحكماء والعرفاء، والاخبارَ والقصص المؤرخون، والأمثالَ والعبرَ الوُعَّاظُ والخطباءُ، وقامت كل فئة بإثراء العلوم والفنون، وتأليف الكتب الكثيرة، مما يصعب حصره على المؤرخين والنقاد، حتى أن إحصاء العلوم القرآنية وما يتعلق بها من فنون علمية تمثل في فن مستقل، سمي بعلم الأسامي والفنون، وقد أُلِّفتْ كتب كثيرة في هذا الفن، ومنها كشف الظنون وغيره، كما أن الاطلاع على أحوال المصنفين والمؤلفين والخطباء والوعاظ والدعاة والمصلحين والمجددين وغيرهم سبَّب نشأة "علم الطبقات"، وفي هذا الفن ألفت كتب كثيرة نحو طبقات الشافعية وطبقات ابن سعد، وطبقات الحنابلة، وطبقات الحنفية، وغيرها.

وكل هذه العلوم هي علوم أصولية، تشكلت فنونا مستقلة، وإلا فهناك فروع كثيرة للعلوم والفنون لايمكن حصرها، وقد قامت الأمة الإسلامية بإبراز الجوانب الخفية من العلوم، وجعلت الدنيا ترتوي من منهلها الفائض ، كما قال الشاعر الأردي البليغ حالي:

غرض فن ہیں جو مایہ دین ودولت	الغرض أن العلوم والفنون التي هي قوام الدين والدولة
طبیعی إلہی ریاضی وحکمت	بما فيها العلم الطبيعي والإلهي والرياضي والحكمة
طب اور کیمیاء ہندسہ اور ہیئت	والطب والكيمياء والهندسة والهيئة
سیاست تجارت عمارت فلاحت	والسياسة والتجارة والعمارة والفلاحة
لگاؤ گے کھوج ان کا جاکر جہاں تم	إن بحثتم عن معادن هذه العلوم أي مكان
نشاں ان کے قدموں کا پاؤں گے واں تم	سوف تجدون آثار أقدامهم[العرب] هناك.

طبقات المصنفين المسلمين:

إن هذه المآثر العلمية العظيمة لم تكن مدينة للحكومات والجماعات؛ بل الأمة الإسلامية أنجبت كثيرا من العلماء والعظماء، الذين كان كل واحد منهم يمثل أمة وحده ومجمعا علميا كبيرا، وأنجز ما عجزت عنه الجماعات والفئات، هذا ابن كثير إذا جلس يكتب التاريخ يستوعب أحوال التاريخ منذ عصر آدم إلى عصره في اثني عشر مجلدا على أسلوب المحدثين، والإمام السرخسي يكون محبوسا في بئر، ويملي على تلامذته الدروس الفقهية، فيتكون بذلك كتاب المبسوط في ثلاثين مجلدا، وابن جرير الطبري يريد كتابة التفسير فيكتب التفسير ارتجالا في ثمانين مجلدا، ويعقوب ابن شيبة البصري يريد التاليف فيؤلف كتابًا واحدًا يحتوي على مائتي مجلد، يجلس أربعون كاتبا لينسخوا كتاب مؤلف واحد.

ثم هذه مجلدات كتاب واحد، ومثل هذه الكتب الضخمة كتبها عالم واحد أكثر من واحد؛ بل تصانيف عالم واحد تتجاوز العشرات والمئات، فهذا الشيخ جلال الدين السيوطي يعُدُّ تصانيفه البالغة نحو خمس مائة في إحدى رسائله "شذرات الذهب"، وابن تيمية ينهض ليقدم إسهامات حضارية وثقافية، فيتم تأليف أكثر من خمس مائة كتاب، وبعد وفاة ابن جرير الطبري لما قدر الناس حساب مداده قُدِّر الحبر بألف رطل يوميا، بذله الطبري في الكتابة والتصنيف؛ أما عدد العلماء الذين تركوا عشرات من الكتب فهو يربو على الحصر.

فكل حبر للأمة يقوم فيؤلف عشرات ومئات بل ألوفا من الكتب، ومثل هؤلاء العلماء لايخلو منهم أي عصر، بل حتى العصر الحاضر، ففي هذا العصر

المتخلف علميا قام أحد أبناء دار العلوم ديوبند: الشيخ أشرف علي التهانوي المعروف بـ حكيم الأمة –متعنا الله بطول بقائه[1]– ليسهم في بناء الكيان الثقافي العظيم، ففي مدة ثلاثين وأربعين عاما ألف مئاتٍ من الكتب في شتى العلوم والفنون، بلغت نحو ثماني مائة في اللغات العديدة، منها كتب ضخمة، تحتوي على مجلدات عديدة، وهو حتى اليوم يؤلف ويقدم.

وهذا النوع من الخط العلمي الذي أقامه النابهون من الأمة الإسلامية، ومثله لايوجد في الأمم الأخرى فكيف لانعتبر الأمة المسلمة أمة فريدة في مجال العلم والثقافة؟

الواقع أن أية أمة في الدنيا لاتشير إلى منجزاتها الثقافية بشكل جامع شامل كما أشارت إليها الأمة الإسلامية؛ بل كل أمة أسهمت في مجال اللسان والقلم اتبعت آثار الأمة المسلمة، والتي وضع أساسها علماء الإسلام، وكل منهجية وترتيب وحكمة نجدها في كتب الأمم الأخرى كلها مأخوذة من كتب إسلامية أو منقولة أو مسروقة منها، أو أثرا من آثار العقلية التي تمت تربيتها في ضوء التراث الإسلامي.

الحاصل أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كما أوتي الكمال العلمي المصحوب بالعلم والحكمة، كذلك أوتيت أمته ببركة نبيها حظا وافرا من العلم والحكمة، وصارت أمة علمية، وبما أن المعاني هي التي تفتح أبواب الحقائق

---

(١) كان الشيخ التهانوي لدى تأليف هذا الكتاب حيًّا يُرزق، ولكن الشيخ التهانوي رحمه الله توفي عام ١٩٤٣م، رحم الله الشيخ التهانوي والشيخ المؤلف محمد طيب القاسمي رحمة واسعة، وأسكنهما فسيح جناته.

وتكشف عن ماهية الغائب والمجهول، فكانت الأمة المسلمة أمة تحب الحقائق والروحانية، وتلقي اهتماما بالمعاني والحقائق أكثر من الصورة والمادة.

العقاب الإلهي النازل على عصاة المسلمين يأتي في لون علمي:

ولعل هذا هو السبب في أن العقاب أيضا يوافق عقلية الأمم، حيث أتى عذابُ الله على عصاة الأمة الموسوية متمثلا في شأن التقليب، وعلى عصاة الأمة المسيحية متمثلا في شأن التصوير والإيجاد، كما أوضحتُه سابقا، وهذا ما يقتضي أن الفتن والمحن التي ستواجهها الأمة الإسلامية بسبب عصاتها كانت جديرة بأن تكون ذات صبغة علمية، فإن الشأن العلمي هو الشأن الغالب على هذه الأمة، وأكبر فتنة علمية يتعرض لها العلماء وأعظم مصيبة في المجال العلمي هي فتنة الشبهات، التي تلبس الحق بالباطل، فلا تتضح الحقائق، وتحل الأوهام والظنون محل العلم واليقين، مما يجعل صاحبها يحيد عن الحق، ويسلك مسلكا بعيدا عن الصراط المستقيم، والمعلوم أن تفرُّق السبل أو شق طريق جديد –مع وجود رجال مستقيمين على الصراط القديم الصحيح- يكون سببًا للنزاعات والصراعات، وبقدر ما تكثر الشبهة تكثر جبهات جديدة للنزاعات، ومن هنا يقوم صراع بين القديم والجديد، وينشأ لكل منهما أعوان وأنصار، يتشاكسون ويتنازعون ويجعلون المجتمع يتقلبون على الجمر، وكل حزب جديد يعارض القديم بغية فرض وجوده على المجتمع والدولة، والحزب القديم يدافع عن حقه وبذلك تستمر النزاعات بينهما، ولو كان أحدهما محقا عند الله وآخرهما مبطلا، ولكن هذه المشاكسة تجعل كلا الطرفين يتأذيان، ومن هنا تَنْفُقُ أسواق التفسيق والتضليل والتكفير، ويتفرغ عامة

الناس لتبادل الشتائم والطعن والإيذاء وهتك الأعراض والازدراء والسخرية وما إليها من منكرات الأعمال والأخلاق، فكل فرقة تكون في بلاء عظيم بسبب هذا الجدل العنيف، فلم تبق حاجة إلى تحريك العناصر الأرضية والسماوية لإنزال العقاب الإلهي على هذه الأعمال المنكرة؛ بل إن الأمة إذا كانت علمية فالقهر الإلهي لايخرج من الأرض ولاينزل من السماء؛ بل ينفجر من قلوبها في الصبغة العلمية انفجارا، فهكذا إن الشبهات العلمية تثير حروبًا دامية بين الأحزاب والجماعات، وتجعل الأمة كلها تصاب بأنواع من الآلام والمصائب، فالأمة الإسلامية أيضا ابتُلَيَت بالعذاب بسبب عصيانها كما ابتليت به الأمم الأخرى، إلا أن هناك فرقا بين هذه الأمة وبين سائر الأمم، وهو أن العقاب الإلهي النازل على الأمم السالفة تمثل في العناصر المادية مما سخره الله لخدمة الإنسان، وكان الله عذَّب السادة بالعبيد، لما انصرفوا عن الله الواحد، فهذا العذاب احتوى على الإهانة أيضا.

ولكن هذه الأمة العلمية التي جعلها الله خير أمة، وآتاها العلم والحكمة لم يعذبها الله بعبيد الإنسان المتمثلة في العناصر المادية: النار والماء والهواء والتراب، فلم يمطر عليها الحديد، ولم يغرقها بالبحر، ولم يزلزلها بالطوفان، ولم يحرقها بالنار المشتعلة، بل فوَّض أمر عذابها إلى نفسها، فبعضها يذيق الآخر الويلات والنزاعات، ليبقى سرُّ خيرية وأفضلية هذه الأمة واضحًا حتى في ستار العذاب، ولاشك أن هذه الخيرية جاءت بسبب نبي هذه الأمة وإمامها، فلو كانت الأمة الإسلامية تم تعذيبها عن طريق العناصرالمادية كسائر الأمم لكان كُفَّار هذه الأمة استخدموا العلم الطبيعي ووظَّفُوه في بناء التسهيلات الحضارية، وكان مؤمنوها سخَّروا العناصر

وصارُوْا أذلةً بعد أن يكونوا أعزةً، والظاهر أن هذا تعذيب مصحوب بالإهانة، ويبدو أن هذه الإهانة كانت مباحة للأمم السابقة، فلم تختر الغيرة الإلهية هذا النوع من الإهانة للأمة المحمدية، بل فوَّض تعذيبها إلى نفسها، ليكون التنبيه كافيا، ولا تكون مهانةً بيد العبيد والخَدَمَة.

كما قال الله تعالى: **"قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ"** (سورة الأنعام: ٦٥).

لا أمة تستطيع مواجهة الأمة المسلمة:

وعلى كل فقد فصَّلتُ حتى الآن موقفي من الأمم الأربع:

١ - الأمة المشركة وهي ذات عقلية واهية

٢ - أمة اليهود، وهي أمة ذات عقلية تقليبية

٣- أمة النصارى، وهي أمة ذات عقلية تصويرية

٤ - الأمة الحنيفية، وهي أمة ذات عقلية علمية.

والظاهر أن هناك أربع أمم في العالم، تسكن مناطق مختلفة من الربع المسكون، وأن كل أمة في العالم قد أحدثت فيه ما يوافق عقليتها من أعمال ومآثر ومنجزات، تتفاوت درجاتها وتختلف مراتبها وقيمتها. وهذه الآثار هي التي تدل على ما تميزت به كل أمة من عقلية.

عاقبة المشركين:

فالأمة المشركة أمة جاهلة، لاتستند إلى كتاب موثوق به، يتم به الاطلاع على عقلية دينية لهذه الأمة، ولا الكتب التاريخية العالمية هي التي تخبر بشيء عن عقليتها

وشأنها العملي الخاص، حتى نتخذ موقفا مهما من هذه الأمة؛ ولكن يبدو أن هذه الأمة في إطارها العملي تُفضل البطالة على العمل، والتقليد على الإيجاد، والكسل على النشاط.

ومن أجل ذلك فالأمة المشركة سواء كانت تعبد الأصنام أم تعبد العناصر أم تعبد السيارات والكواكب أم تعبد الأشخاص، وسواء كانوا في شرق الدنيا أم غربها فهذه الأمة المشركة لاتملك أساسا للمعتقدات، فقصرها لايقوم على أساس متين، يكون معيارًا دينيًا للأفكار والاتجاهات.

فليس عندها غيرُ الأوهام والتقاليد والأساطير والروايات الغريبة وأمثالها من النظريات الفلسفية، فالمشركون في المناطق المختلفة اخترعوا أساليب شتى للشرك، مما قوّى البنية التحتية للمشركين، فكل أمة مشركة في العالم ليست إلا صورة مشوهة لكل أمة صادقة، والظاهر أن هذه ليست قومية مستقلة تُعد من الأمم المثقفة؛ بل هو فناء قومية، يطلق عليها القومية تجوزا.

فلم يبق جانب من جوانب هذه الأمة المشركة، يحتاج إلى أن أفصله في هذه الرسالة، فنظرا إلى الثقافة والمدنية والحضارة بقيت ثلاث أمم، يمكن أن نعتبرها أمما ذات قومية هامة، ومنظومةُ هذه الأمم تشكل سوادا أعظم للعمران البشري: وهي اليهود والنصارى والمسلمون.

عاقبة اليهود:

أما اليهود فلهم قومية عظيمة، وقد سادوا العالم في يوم من الأيام بدينهم وقوميتهم، إلا أن عقليتهم التقليبية إذا لم تترسخ فيها المعرفة الموسوية، فلم يبق في

أذهانهم إلا تقليب وتغيير وتحريف، وهذا طبعا دفعهم إلى التخريب والإفساد، فظلوا مولعين بتغيير الحقائق وتشويه الماهيات، إلا أنهم فاتهم القدرة على استعمال هذه المؤهلة في محلها الصحيح، مما أنتج أنهم مع عدم المعرفة وعدم البصيرة إذا سلكوا طريق التقليب، ضاعت الحقائق وفسدت الهويات، وحل محلها الباطل، وتمكن في أفكارهم وأعمالهم، فهكذا جمعوا أكواما من الباطلات ورفضوا الحقائق والصالحات، فكل ما قالوه كان عِوَجًا، وكل ما فعلوه كان فاسدا، سواء ما يتعلق بالاعتقاد أو بالعمل، وبسبب تخبطهم في الباطل وأنواع التقليب لم يرجعوا إلى الحقائق، بل لما انحرفوا عن الحق إلى طريق الباطل استمروا في المضي عليه، فكان تقليبهم عين التخريب كما يلي:

١- إذا طُلب إليهم أن يؤمنوا بالله قالوا: **"لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً"** (سورة البقرة: ٥٥).

٢- إذا أُمروا أن يصدقوا الأنبياء عادوا يكذبون بعضهم ويقتلون البعض، **"أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ"** (سورة البقرة: ٨٧).

٣- إذا أوتوا كتاب الله قاموا بتحريفه جريا على هواهم: **"مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا"** (سورة النساء: ٤٦).

٤- إذا خُوِّفُوْا من عذاب الآخرة قالوا وبكل غفلة وهراء: **"نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ"** (سورة المائدة: ١٨).

٥- إذا خوُّفوا من عذاب جهنم قالوا: لن تمسنا نارُها، فإن مستنا فهي لأيام معدودة: **"وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً"** (سورة البقرة: ٨٠).

٦- وإذا أُنذروا من حرمان نعيم الجنة قالوا بكل زهو وقلة مبالاة: **وَقَالُوا لَنْ "يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى"** (سورة البقرة: ١١١).

٧- وبلغ بهم السفه إلى أنهم طلبوا من نبيهم الإذن بالشرك وعبادة العجل قائلين: **"قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ"** (سورة البقرة: ١٣٨).

٨- وإذا أُمروا بالجهاد قعدوا وأجابوا إجابة منكرة، كما حكى الله سبحانه ردهم القبيح: **فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** (سورة المائدة: ٢٤).

٩- أمروا أن يدخلوا بيت المقدس بكل تواضع وخضوع لله، مرددين كلمة "حِطَّةٌ"؛ ولكن يالها من سفاهة وبلادة، فقد دخلوا المدينة، وهم يزحفون على أدبارهم، وبدلوا الكلمة بكلمة أخرى توافق هواهم، فقالوا: "حنطة" مكان "حطة" استهانةً بأمر الله واستهزاءً به، كما قال الله تعالى: **وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ o فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** (سورة البقرة: ٥٨-٥٩)

١٠- كان لهم نبيٌ عظيمٌ، ولهم أن يسألوه ما يزيدهم سعادةً في الدنيا والآخرة؛ ولكن ماذا سألوا؟ سألوا ما يتندى له الجبين، سألوا البقلَ والقثاء والفوم والعدس والبصل مكان الطعام الرباني الشهي: المن والسلوى، يا للعجب! **وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ** (سورة البقرة: ٦١).

١١- وقد لخَّص القرآن الكريم وضعهم الديني في آية جامعة: **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** (سورة الأعراف: ١٤٦).

ففي هذه الشواهد كلها قاموا بتغيير الحقائق بسبب عقليتهم التقليبية، وتركوا جميع الحقائق، وتمسكوا بأذيال الباطل، فالتقليب ما زال يعمل عمله، ولكنهم فقدوا العلم والمعرفة الذين يتصرفان في التقليب، ويقيمانه على حدوده، فانهار أساسُ هذه الأمة، وخسروا الدنيا والآخرة، حتى التسهيلات المادية، قد رضوا فيها بالدُّون، فتركوا المن والسلوى وطلبوا البصل والعدس، أما في النِّعَم الروحانية فقد انحرفوا عن التوحيد وانغمسوا في الشرك الصريح، واستهانوا بكثير من نعم الله عز وجل، واختاروا لنفوسهم أن يسلكوا طريق الغضب والسخط؛ وهكذا رجعوا بالذل والهوان والمسكنة، وقد أعطاهم الله ما كانوا يستحقون كما قال تعالى: **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** (سورة البقرة: ٦١).

وعلى كل فإن عقلية اليهود التقليبية جعلتهم يفسدون الأمور، ويعيثون في الأرض فسادًا، ويعتدون في الشرع الإلهي، وصار هذا ديدنهم؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يغيروا الحقائق من سوء إلى حسن، أو من حسن إلى أحسن ويوظفوها في صالح الأعمال ومشرق المنجزات كما كان سيدنا موسى عليه السلام يستعمل هذه العقلية، فيحدث ثورةً صالحةً في عالم الفكر والعمل، فتقليب اليهود صار بمعنى التخريب والإفساد، والظاهر أن التخريب المحض الذي لايحمل عنصرًا من عناصر البناء والتعمير ليس بشيء هام جدير بالذكر والبيان.

فالمشركون كانوا بسبب عقليتهم مولعين بالكسل وترك الجد، والقعود عن نافع الأعمال، وصاروا بذلك لايستحقون الذكر والبيان، واليهود بسبب عقليتهم التخريبية وإن كانوا يجتنبون صالح الأعمال والأفكار؛ لكن إذا فعلوا أتوا بما يفسد الحقائق ويشوه الصور الصحيحة، ويلبس الحق بالباطل، فبهذه الآثار هم أيضا لايستحقون الذكر والبيان من بين الأمم الثورية العظيمة.

المقارنة الصحيحة قائمة بين النصارى والمسلمين:

وبعد هذا كله لم يبق لنا للذكر والبيان إلا أمتان عظيمتان، قامتا بأعمال عظيمة في الفكر والعلم والعمل، بلغت بهم إلى أوج الكمال، فتم على أيديهما إنجاز نشاطات حضارية عظيمة، سيطرت على العالم، وأثرت في كل جزء من أجزاء الدنيا؛ حتى صارتا مبعث دعاء وثناء ومثار عجب وتفكير، وهما النصارى والمسلمون، ومن حسن المصادفة أن ما في هذا الكون من حركات ونشاطات ينقسم إلى قسمين: النشاطات المادية والنشاطات الروحية، أو الصورة والحقيقة، فاختارت هاتان الأمتان ما يناسبها من طريق فكري وعملي.

النسبة بين الأمتين هي نسبة الحس والعلم:

فتقدمت الأمة المسيحية حسب منهج المسيح التصويري والإيجادي إلى مجال التصوير والإيجاد واختراع الأشياء المادية؛ بينما اختارت الأمة المسلمة –وفق التربية النبوية المحمدية المتميزة بالعلم والإدراك والروحانية- اتجاه الاكتشافات العلمية والحِكم والمعارف والوقائع والحقائق المعنوية، فمالت أمة إلى عالم المشاهدة، بينما رغبت أخرى في عالم الغيب، فتحت إحداها خزائن الماديات، بينما كشفت الأخرى عن أسرار الروحانية، والظاهر أن الماديات وصورها الجسمانية مدركة بالأبصار، والحقائق وألوانها الباطنية مدركة بالأبصار العلمية أي بالعلم والفراسة والعقل.

ومن هنا لم تستطع الأمة النصرانية أن تتجاوز في مجال العلم والمعرفة حدود الحس والمشاهدة، وقد بلغت الأمة المسلمة بسبب حبها للحقائق غاية العلم والإدراك، فتلك حريصة في كل مجال على المشاهدة الحسية، وهذه مولعة في كل شيء بالعلم والإدراك، تلك تقتحم حصون المشاهدة الحسية، وهذه تغرق في بحار المعقولات والوجدانيات، تلك متورطة في الجزئيات، وهي منشغلة بالأصول والكليات.

النصارى أمة المشاهدة والمسلمون أمة الحقيقة:

الأمة المسيحية التي تفضِّل المشاهدة في كل شيء، لايمكن لها أو يصعب عليها التيقن بشيء مادام لاتتصل به المشاهدة بالأبصار؛ ولكن الأمة المسلمة التي تؤثر الحقيقة على الصورة إذا اتضح لها الحق بالبراهين العلمية أو الحسية أو بدلائل البصر أو البصيرة تيسر لها التيقن والجزم به، فهي لاتُعَلِّق اليقين بشيء على وجود المشاهدة.

الأمة المسلمة شمولها العلمي وحرصها على الحقائق والكليات:

وعلى العكس من الأمة المسيحية فإن الأمة المسلمة لاتقيم وزنًا كبيرًا للمشاهدة في المجال العلمي، فإن المشاهدة تتعلق بالأمور الجزئية، لا الأمور الكلية، ومشاهدة الجزئيات بالأبصار ليست علما، وإنما هي حس، ويمكن أن يطلق عليها العلم الصوري تجوزًا لا العلم الحقيقي، والظاهر أن نطاق الحس بالنبسة إلى العلم ضيق ومحدود وضعيف للغاية، فإن الأمور الجزئية محدودة بنفسها، فإدراكها أيضا محدود، فإدراك جزئي لايستلزم إدراك جزئي آخر، فالجزئي الواحد لايفتح باب الجزئي الآخر، فالمعلوم من الجزئيات هو الذي وصل إليه التتبع والاستقراء وحسب، والمعلوم من الجزئيات لاعلاقة له بالمجهول منها.

أما الكليات فهي ليست من الأمور المشاهَدة، بل هي أمور العلم، والظاهر أن العلم بكلي واحد يعني العلم بمئات الآلاف من جزئياته، فالعلم بالكليات يستلزم العلم بالجزئيات، فالعلم بالكليات هو العلم حقيقة، ونطاقه أوسع وأشمل من نطاق المحسوسات والمشاهدات.

والأمة المسلمة لما كانت مولعةً بالعلم ومحبةً للحقائق والعقليات بسبب عقليتها العلمية، فاختارت الأصول والكليات وقامت باستخراج الأحكام الجزئية الكثيرة من الكليات، ولم تبق محتاجةً إلى الجزئيات في علمها؛ بل الجزئيات هي التي أصبحت محتاجة في وجودها وبقائها إلى هذه الأمة، فالاستدلال بالحجة والبرهان صار من شعار هذه الأمة، والاجتهاد والاستنباط كان دأبها وديدنها، ومن ثم أدركت كلِي الكليات بقدر مايستطيعه الوسع البشري.

وفي ضوء هذه الفطرة لما تمت تربية الأمة المسلمة في المدرسة المحمدية العلمية واختارت الطريق العلمي والأصولي، وأدركتْ أصل الأصول عن بصيرة وإخلاص، تفجرت منها ينابيع العلم، فجمعت عالم الكليات، ولم تجعل ذخائر الجزئيات تُفْلِت من يدها، وهكذا جمعوا بين العلم والحس؛ ولكنهم في هذه المرحلة أيضا آثروا العلم على الحس والمشاهدة.

وعلى العكس من ذلك فإن الأمة المسيحية جعلت إطارَ تحقيقاتها قاصرًا على الجزئيات والأمور المشاهَدة، وكانت في غفلةٍ عن إدراك الكليات والأمور العامة، وبعدٍ عن الكليات والحقائق، فصارت هذه الأمة المسيحية لم تكن محبةً للحقيقة والكلية، مما أنتج أن الأمة المسيحية صارت مع الأيام بعيدةً عن أصل الأصول وحقيقة الحقائق، التي قام عليها وجود العالم، ولم تقم صلةٌ بين النصارى والأسرار الخفية واللطائف الغيبية، والظاهر أنها كلما انحطَّت عن الوجود المطلق وبعيدةً عن الحقيقة تورطت في الجزئية والضيق والتحديد والتشخص بشكل لاشمول فيها ولا جامعية، حتى صار إدراكُ الأشخاص والجزئيات والتحديدات الزمانية والمكانية وما إليها من الأمور المشاهَدة أكبرَ معجزةٍ علميةٍ، وانحصر علمها في الحس الخالص، كما اتضح بالأمثلة السابقة.

فحق لي أن أدَّعي وبكل بصيرة أن أمةً من أمم العالم إن كانت تستحق الرقي والازدهار في القرون الأخيرة، وتستطيع أن تجعل الدنيا تعرف كثيرًا من الأسرار العميقة من عجائب القدرة، فهما هاتان الأمتان: النصارى والمسلمون؛ ولكن الفارق بينهما أن النصارى أمة تصويرية، مولعة بحب الحس والمشاهدة، وبما أن

الصور والأشكال والحسيات تتعلق بالماديات والأجسام، فمجال رقيها وازدهارها كان مجال المادة والجسم، فأنجزت الإيجاداتِ المادية، واستحقت أن تكون أمةً ماديةً.

أما المسلمون فهي أمة تحب العلم والمعنى والحقيقة، وبما أن الحقائق والمعنويات تتعلق بالغيبيات والأسرار فمجال رقيها هو مجال الروح والغيب، فملأت الدنيا بالاكتشافات الروحية والعلمية، فكان من الإنصاف أن نسميها أمةً علميةً وروحيةً.

الحاصل أن إحدى الأمتين مادية والأخرى روحية، أو إحداهما حسية والأخرى علمية، يتجه كل منهما في إطارها العملي إلى اتجاه مناسب.

العلوم الإسلامية أيقظت عقليات العالم:

والثابت أن العلم من بين جميع الكمالات هي الصفة الأصولية والمركزية، التي هي أول الصفات وأعلاها، ثم العلم لايحتاج إلى صفة أخرى؛ ولكن جميع الصفات تحتاج إلى العلم، فكان من الضروري أن يكون النصارى من بين الأمتين في حاجةٍ في إيجادها التصويري إلى الأمة المسلمة وعلمها، ولايكون المسلمون في حاجةٍ إلى النصارى في أي شيء.

مما يؤدي إلى أن الاكتشافات الإيجادية للأمة المسيحية لاتستحق أن تنتشر في العالم مادامت لاتنتشر علوم المسلمين في العالم وتنفذ إلى أعماق قلوب النصارى، وتنير عقلياتهم، فكان للأمة المسيحية أن العقلية الاختراعية للنصارى تنتظر علوم القرآن الكريم، فهي بدون علوم القرآن لم تكن تبادر إلى المنافسة العلمية، ولم يكن يعلم أحد أن هذه الأمة المسلمة أمة وحيدة في العلم والعقلية المتميزة، فالأمة المسيحية وإن كانت تملك عقليةً تصويريةً وإيجاديةً؛ لكن العصر الذهبي للدين الإنجيلي لم يظهر قبل ظهور

الإسلام، فما السبب وراء ذلك؟ فلماذا لم تظهر هذه الاكتشافات العلمية والاختراعات المادية؟ فلماذا لم تبرز قبل ذلك هذه المآثر الطبيعية؟ والسبب أنه من المعقول أن العقلية والفطرة إيجادية، وهذه الأمة تتغذى بالإنجيل؛ لكنها كانت في حاجةٍ إلى الضوء الكلي للعلم لإنجاز أعمالها، وهكذا كانت عقلية الأمة العربية تملك عنصر العلم، ولاينقصها الاخلاق والملكات الفاضلة والعناصر الإيجابية التي كان من شأنها أن تهز العالم؛ ولكن الأمة العربية تفقد العلم، فكانت أرض قلوب العرب في العصر الجاهلي مجدبة مدفونةً؛ ولكنه كلما أشرقت شمس الإسلام وأصولها العلمية والشاملة على العالم كله، وكلما نزل القرآن الكريم الذي هو تفسير شامل للعلوم الربانية انفجرت العناصر الفطرية للأمتين، واستعملت كلتا الأمتان ما رُزِقَتَا من العلوم والمواهب.

المبادئ القرآنية شاملة للروح والمادة:

كما أن علوم القرآن شاملة لكل ذرة من ذرات العالم، وكل عنصر من عناصر الروح والمادة، كذلك القرآن الكريم الذي هو معبر المحيط العلمي جاء بتعابير بليغة وتعليمات شاملة، أقامت اتزانًا بين الروح والمادة، فانفجرت منه ينابيع المادية والروحانية والتدين والتمدن والدنيا والعقبى، وكانت مبادئ القرآن بحيث إن الطبيب الروحي يستعملها فيطلع على الأسرار الخفية والدقائق النفسية للروح، وكذلك الفيلسوف المادي يكشف في المبادئ القرآنية عن الخزائن الخفية للماديات والألوف المؤلفة من عجائبات الكون، فالمبادئ القرآنية تشق طريقًا إلى الروحانية والآخرة وطريقًا آخر إلى الماديات والدنيا.

والفرق بينهما أن الحضارة الروحية هي غاية هذه المبادئ وغرضها الأصيل، والحضارة الروحانية هي خاصية هذه المبادئ، وليست مقصودة بذاتها؛ ولكن كانت

هذه الأصول تستطيع أن تحقق إنجازات حضارية باهرة إن تم استخدامها في تحقيق هذه الأمور، فالأمة الروحية سلكت في ضوئها طريق الروحانية، والأمم الصورية والمادية اتخذت في ضوئها طريق الأشكال والصور والمادة، والأمم الضالة تفتح بها أبواب الضلالة، فكل طريق سلكته الأمم حسب هذه المبادئ انفتحت له طرق تتلاءم وطبيعتها، وصارت أمةً منتصرةً، وكان من الطبيعي أن العلوم الأصولية للرسول التي تتفجر منها ينابيع الفروع والجزئيات تنتشر في جميع الطبقات، وتمر بجميع الطبقات البشرية، سواء كانت مطيعةً أم معاندةً، مؤمنةً أم كافرةً؛ ولكن كل طبقة تضطر إلى الولع بهذه الأصول بسبب كونها طبيعيةً وفطريةً، لايمكن إنكارها، وبسبب رسوخ هذه الأصول والعلوم والمعارف في جميع طبقات الأمة قامت ملكة علمية حسب المؤهلات والاستعدادات، وتحركت طبيعتها في السبيل العلمي الخالص، والظاهر أن الطبيعة المتحركة في سبيل من السبل إن قامت بإنجاز اكتشافاتٍ جديدةٍ فهي ثمرة من ثمار تلك الأصول العلمية، التي ترسخت في أذهانهم بداية.

الدعوة الشاملة للمسلمين:

إن المسلمين لم يكرسوا جهدا في نشر التعليمات النبوية الشاملة، فجابوا الصحاري والقفار، وعبروا البحار والأنهار، وجالوا في الأرياف والمدن، فلم تبق مدينة أو قرية إلا وارتفع فيها صوت القرآن، ولا أمة من الأمم إلا ووقفوا حياتهم على تعليمها، فلم تكن علومهم علوم أسرةٍ أو قبيلةٍ كعلوم المشركين وعباد الأصنام؛ بل علوم المسلمين كانت تراث العالم كله، فنشروا القرآن الكريم في الدنيا كلها بكل رغبة وحماس عن طريق استخدام كل وسيلة ممكنة من وسائل الدعوة والتبليغ، فوصلت أصوات مؤلفاتهم ومحاضراتهم وخطبهم ودعوتهم وأمرهم بالمعروف

ونهيهم عن المنكر ومؤسساتهم العلمية إلى كل جزء من أجزاء العالم، ففي عصر الخلافة الأندلسية أقاموا جامعاتٍ إسلاميةً، فتحت أبوابها للرعية النصرانية كما فتحت أبوابها للرعية المسلمة، والنصارى كأمة اطلعوا هنا على التعليمات الإسلامية؛ حتى أصبح النصارى بعد اطلاعهم على عقيدة التوحيد الصافية ينفرون من عقيدة التثليث، وهنا قامت جماعة بروتستنتية، ترمي إلى إثبات عقيدة التوحيد والرد على عقيدة التثليث، كما أن المشركين في الهند إذا سمعوا محاضرات العلماء المسلمين وخطبهم في الدعوة والتبليغ والرد على الشرك والكفر والبدع والمنكرات وقع في قلوبهم شك في عقائدهم، ومن ثم قامت جماعة آرية، تساند عقيدة التوحيد، وإن كانت هذه الجماعة تحمل كثيرا من العقائد الشركية، إلا أنها أقرب الجماعات المشركة إلى الإسلام، وتزداد قربا مع الأيام، فهم في هذه الأيام قد رفضوا ملايين من الآلهة وتمسكوا بثلاثة آلهة: الإله والروح والمادة، مما يجعلنا نؤمِّل أن هؤلاء سوف يتركون هذه الآلهة الثلاثة أيضا، ويتمسكون بالتوحيد الإسلامي الخالص.

تأثير التعليمات الإسلامية في الأمم:

الحاصل أن التعليمات الإسلامية لما انتشرت أيقظت الأمة المسيحية، وحرَّكت المشركين وعُباد الأصنام، وكل أمة تأثرت بالتعليمات الإسلامية انتشر فيها العلم والحكمة، ولا شك أن الأمة المسيحية في هذه الأيام تظهر كأمة علمية؛ لكن لا بسبب الإنجيل، فإنه لوكان الأمر كذلك لظهرت الواجهة الثقافية لهذه الأمة في العصر الإنجيلي المزدهر؛ بل نشأت عقلية علمية بسبب التعليمات القرآنية جيلًا بعد جيلٍ، ونجم عنصر البحث والتحقيق، مما أثَّر في أخلاقهم، حتى ظهرت الآثار الحسية لرفعتهم وشوكتهم، وكذلك أثَّر الإسلام في الآريين وقام لهم كيان ثقافي متميز، مما جعلهم يتقدمون في المجال العلمي، نعم إن كل أمة لم تتأثر بالتعليمات الإسلامية مازالت تتخبط في الجمود والخمود، ولم تشتعل فيها نار الرفعة والشوكة والنهضة.

ثم هذا التأثير الإسلامي في الأمم والشعوب لم ينحصر في الأمور الدينية؛ بل تجاوز إلى الشؤون الدنيوية والحضارية أيضا، وقد اعترفت به الأمم بدورها، فقد قال الزعيم الهندي الشهير غاندي عند تشكيل الحكومة الوطنية ناصحًا لوزراء حزب المؤتمر الوطني(الكونغرس): إن أردتم استتباب الأمن العام فعليكم بسيرة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق، الذَّين أخضعا الامبراطوريتين: الفرسية والرومية، وعُرضت عليهما وسائل التنعم والرفاهية؛ ولكنهما آثرا الملابس المرقعة والأكلات الخشنة".

وقد أعلن اليوم كى. ايم. منشي حاكم الولايات الهندية المتحدة بكل فخر ومباهاة: قد أسسنا الدستور الهندي على مبدإ المساواة الذي جاء به محمد رسول الله، ونريد إقامة الحياة الاجتماعية الوطنية على مبادئه الأخرى.

ثم هذا حديث عن المبادئ والأصول التي تستولي على المنصفين من غير المسلمين بسبب سعتها وشمولها؛ ولكن المثير للعجب أن الدنيا المعاصرة لم تستطيع أن تعيش بعيدة عن فروع الإسلام والمسائل الفقهية، فمن الصعب على الأمم والشعوب أن تتقدم نحو الأمام بدون مبادئ الإسلام، كما اتضح سابقا، كما صعب عليها أن تعيش بدون الاستفادة من فروع الإسلام، فالقادة الهندوس بعد ما أدركوا أن حياتهم الاجتماعية والمدنية لاتستطيع مواكبة الدنيا المعاصرة بسبب تعقد بعض الجوانب وضيق بعضها، وفقدان البعض الآخر، اضطروا إلى تغيير بعض المبادئ الهامة في حياتهم الاجتماعية، واستعاروا من الإسلام كلا من الطلاق وتعدد الزوجات وزواج الأرملة والزواج بعد البلوغ ونظام الميراث وما إليها من الأحكام الإسلامية، وقد شرعوا في المجالس التشريعية قانون الطلاق، وقانون المنبوذين، وقانون دخول المعابد وغيرها، أَوَليس مدعاةً للعجب أن الزعيم الهندي المهاتما غاندي والزعيم الشهير مالويه [وهما من كبار زعماء الدين الهندوسي وحملة لواء

نشر وتطوير الديانة الهندوسية] يريدان القضاء على التفاوت القبائلي، الذي كان أهم الدعائم التي أقامت عليها كتب الديانة الهندوسية صرح هذه الديانة؟

المهاتما غاندي إذا حضر دلهي يريد البقاء مع المنبوذين، ليكون منه ثورةً عملية على نظام التفاوت القبائلي، ويقول اليوم المستر جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند: إن أردتم السلام العالمي فعليكم بالقضاء على نظام التفاوت القبائلي، والاحتراز منه وطمس معالمه وآثاره من المجتمع، كما يُنشر مثل هذه الإعلانات في الصحف والجرائد بين فينة وأخرى.

وعلى كل فالأمة التي سرى فيها النور العقلي والأهمية العلمية كانت مستفيدة من التعليمات الإسلامية، ولا شك أن هذا أثر تسرَّب في هذه الأمم بشكل تدريجي، والتعليمات القرآنية قد بلَّغت صوتها العلمي إلى كل صقع من أصقاع العالم، وبلغت بسبب طباعة ونشر القرآن الكريم كل بيت ونادية، إن القرآن الكريم في أحجامه المتنوعه متواجد في الأسر المسلمة والكافرة، فقد نشر القرآن الكريم تراجمه في كل لغة، والنصارى أيضا قد نشروا تراجم كثيرة للقرآن الكريم، كما أن النصارى يطبعون كثيرًا من كتب الحديث، فالطبعات الكثيرة من كتب الفقه والتراث الإسلامي مازالت تُطبع في أوربا، ولا شك أن القوانين السائدة اليوم في المحاكم المعاصرة هي خلاصة الفقه الإسلامي والتعزيرات الإسلامية، فكثير من ذخائر المسلمين العلمية موجودة في المملكة المسيحية، مما ليس متيسرا حتى للمسلمين، إن كثيرًا من جامعات أوربا تتفرغ لنشر التعليمات الإسلامية والشرقية بشكل متواصل، والنابهون من علماء أوربا يعترفون بشكل سافر بأن لايوجد كتاب كالقرآن الكريم، يثير الفطرة والعواطف الطبيعية، ويناشد الضمير الإنساني، فهناك

الفيلسوف فون برن هاردي (المؤلف الشهير) والفيلسوف البريطاني برنادشا والفيلسوف غوستاف لوبون المؤرخ الفرنسي الشهير وغيرهم من الفلاسفة الآخرين قد اضطروا إلى الاعتراف بأن التيار العلمي العميق للقرآن الكريم ينفذ إلى القلوب طوعًا أو كرهًا، وهو لايحتاج إلى شيء آخر لفرض نفسه على المعمورة كلها، وهذه الانطباعات التاريخية الناشئة في القرون الكثيرة أنشأت في عقليات أمم العالم رغبةً شديدةً في الإسلام وتعاليمه، وكم من أمةٍ آسيويةٍ وأوربيةٍ مازالت تميل قلوبهم إلى التعليمات الإسلامية.

١- الدكتور موريس بوكاي(Maurice Bucaille) وهو مؤلف فرنسي شهير يكتب: إن القرآن الكريم من حيث المحاسن أفضل الكتب الدينية؛ بل نستطيع أن نقول: إن القرآن الكريم من أحسن الكتب التي وهبتها لنا العناية الإلهية، إن القرآن الكريم قد أثَّر في العالم تأثيرًا لايمكن أفضل منه"(سيد أمير علي، تنقيد الكلام).

٢- إن صحيفة نير ايست (صحيفة لندن الشهيرة) تكتب: إن كنا رفضنا تعليمات محمد –صلى الله عليه وسلم–وأهميتها العظيمة فنحن في الحقيقة محرومون من العقل والبصيرة.

٣- الدكتور كينن آئرك تيلر قال وهو يخطب كرئيس للكنيسة البريطانية: إن الإسلام قائم على أساس القرآن الكريم، الذي هو حامل لواء الحضارة والمدنية".

٤- الدكتور جورج سيل(مترجم القرآن الشهير) يقول: "إن القلم الإنساني لايستطيع أن يكتب كتابًا مثل القرآن الكريم المعجز، فهي معجزة مستقلة، تفوق معجزة إحياء الموتى بكثير".

وما أروع ما جاء في كلمة الرئاسة في المؤتمر التعليمي الإسلامي الذي نظمه قسم المدارس بمدينة علي جراه بصورة الشعر الأردي:

لیے علم و فن ان سے نصرانیوں نے	منهم (من المسلمين) أخذ النصارى العلوم والفنون
کیا کسب اخلاق روحانیوں نے	ومنهم اكتسب الصوفية والروحانيون الأخلاق الفاضلة
ادب ان سے سیکھا صفاہانیوں نے	ومنهم تعلم الأصفهانيون الأدب والثقافة
کہا بڑھ کے لبیک یزدانیوں نے	واستجاب اليزدانيون لنداءات الإسلام
ہر اک دل سے رشتہ جہالت کا توڑا	فالإسلام هو الذي أخرج عنصر الجهالة من جميع القلوب
کوئی گھر نہ دنیا میں تاریک چھوڑا	فلم يترك في الدنيا بيتًا مظلمـًا.

فبعد هذه الاعترافات والشهادات حق لنا أن نقول وبكل جلاء: إن كانت التعليمات الإسلامية تنفذ في قلوب الأمم عبر القرون بشكل متواصل وتشكل جزءا من عقلياتها، فهذه التعليمات تترسخ اليوم حتى في أذهان الأجيال الكافرة والمشركة، وإن كان أحد لايعترف بلسانه، فلسان حاله وعمله يشهد بأن الصبغة القرآنية هي التي تنير الجو الكافر المظلم، وهي التي هزت العواطف الفطرية، وفرضت نفسها حتى في المعاملات الفرعية على العالم لِعِزِّ عزيز أو ذل ذليل.

وكانت هناك أمة، احتوت حضارتها على كثير من الحرج والضيق ومواطن الخلل والزلل فيما يتعلق بالشؤون الحضارية والاجتماعية والعائلية، فكان رجالها ونساؤها يتخبطون في ظلامٍ حالكٍ، وهي الأمة الهندوسية في الهند، التي اضطرت

أخيرا لمعالجة مشاكلهم في ضوء التعاليم الإسلامية، حيث أخذوا الأحكام الكثيرة من الفقه الإسلامي نحو الطلاق وتعدد الأزواج ونكاح الأرامل وعقد البلوغ والتركة والميراث وما إليها من المبادئ الإسلامية الكثيرة، وقد أحدثوا تعديلاتٍ كثيرةً فيما يتعلق بشؤونهم الاجتماعية والعائلية، حتى أقرُّوا قوانينَ عديدةً متمثلةً في قانون الطلاق وقانون الطبقة المنبوذة، وقانون مندربرويش، ولاشك أن من دواعي الحيرة أن كبار زعماء الدين الهندوسي نحو الغاندي والمالوي قد نهضوا لمكافحة التفاوت الطبقي، الذي قام عليه بناء الدين المنوسمرتي، وفي الدولة الراقية نحو أمريكا يقول المفكرون -حسبما يقول فريد وجدي مؤلف دائرة المعارف- علينا أن نصدر كثيرًا من الرسائل والصحف والمجلات لنشر نظرية صحيحة، تؤكد أن الدعايات التي نثيرها ضد الإسلام فيما يتعلق بعالم الغيب وخصائص الإسلام كانت دعايات كاذبة، وعلينا أن نرجع من مثل هذه الخزعبلات جميعًا، مع أن أساس الرقي المادي هو إنكار الشؤون الروحية، فما الذي دعا أممَ العالم إلى هدم أساسها الديني بأيديها؟ والجواب ظاهر، وهو أنه لما طلعت شمس العلوم الإسلامية بلغ ضوئها كل بيت وناحية، فأنار الظلمة، وأزال الغشاوة.

صحيح أن الغاندي والمالوي وبرنادشا، وغوستاف لوبون وبان فون وبرن هاردي والدكتور موريس والدكتور كينن وجورج سيل والعلماء الأمريكيين الآخرين لم يتعلموا في المدرسة الإسلامية؛ ولكنهم قد تأثروا بالمبادئ الإسلامية، التي كان المسلمون يتغنون بحسنها وشمولها وموافقتها للفطرة، فدوَّى صدى المحاسن الإسلامية في جميع الشعوب، فلم يتمكن هؤلاء المفكرون والعلماء من محو الأثر الإسلامي، واضطروا إلى أن يتقبلوا الأصول الإسلامية كرهًا لاطوعًا، وعملًا لا اعتقادًا.

فالمبادئ القرآنية قد وصلت إلى قلوب المنكرين الجاحدين، كما وصلت إلى قلوب المؤمنين، نعم! إن الفرق بينهما أن المؤمنين المطيعين آمنوا بهذه المبادئ بقلوبهم، واستعملوها استعمالًا صحيحًا، فسعدوا بثمار هذه الإطاعة نحو البصيرة والنور القلبي والانشراح وزيادة العلم، وأن الجاحدين قبلوا هذه المبادئ بلاطاعة وانقياد، فلم يسعدوا بثمار الطاعة، وبقي فيهم نزر يسير من الأصول الإجمالية والكليات المطلقة، واستعملوها في كسب المنافع المادية حسب ما تتمتع به كل أمة من عقلية وأهداف.

فالمسلمون قد استعملوا هذه المبادئ في الديانات والعبادات ومعرفة الخالق والتدين، وجعلوها وسيلةً لسلامة الآخرة، وغير المسلمين استعملوها في العادات الاجتماعية والمادية والشؤون الكونية والتسهيلات الحضارية، وجعلوها وسيلةً لنعيم الدنيا، فكلا الفريقين قد حققوا الأهداف، (فهذه المبادئ كانت تستطيع تحقيق سعادة الدارين)، إلا أن أحدهما قد سعد بالآخرة، وسعدوا بالدنيا أيضًا، فالدنيا تابعة للآخرة، والفريق الآخر اهتم بالدنيا وترك الآخرة، ثم هو لم يحظ بالدنيا أيضًا فهي فانية، والآخرة ليست تابعةً للدنيا، وهذا أثر من آثار سوء استعمال هذه المبادئ، فإن سوء الاستعمال يسبب الحرمان والخسران.

وقد ثبت أن المبادئ القرآنية تشمل كلًّا من التدين والتمدن ومحاسنهما ومميزاتهما، وقد استعمل المسلمون هذه المبادئ، ونشروها عملًا وعلمًا، وحققوا إنجازاتٍ باهرةً، انتشرت شرقًا وغربًا.

ومن جانب آخر كانت كل أمةٍ في الدنيا متعطشةٌ للعلم والفن، فاستفادت كل أمة حسب الاستعداد والمؤهلة من هذه المبادئ، وغيرت في البرامج القديمة؛ ولكن قد أثبتُّ سابقًا أن الأمتين هما اللتان تسبقان الأمم في المجال العملي: المسلمون والنصارى.

١- المسلمون الذين شكَّل عقليتَهم رسولُهم محمد صلى الله عليه وسلم، فكانت عقليتهم محبةً للحقيقة والعلم.

٢- النصارى الذين شكل عقليتَهم رسولُ الله عيسى عليه السلام، فكانت عقليتهم عقليةً تصويريةً وإيجاديةً، فهي تحب الصورة والمادة.

ولكن قد ظهرت خصائص عقليات هاتين الأمتين بعدما ظهر فجر الإسلام وتبلَّج نور القرآن، فصارتا تبادران إلى الميدان العملي، كما كانا يستحقان، فالأمتان أصبحتا تعدوان على الدرب العملي مستفيدتين من النور القرآني، فهي جمعت بين الروحانية والمادية، وظلت تتقدم في الشارع الواسع من العلم والحضارة والمدنية، فذهبت أمةٌ نحو الحضارة المادية، وذهبت أمةٌ نحو التدين، استعملت إحداهما المبادئ القرآنية للتدين، وحصلت على الخزائن الروحية، واستعملتها الأخرى في الشؤون الاجتماعية والمدنية فحصلت على مدنيةٍ راقيةٍ.

المسيحية والإسلام وما بينهما من قواسم مشتركة:

إن القرآن هو الذي يهدي الأمم كلها إلى الرقي والازدهار، أما المسلمون فالقرآن دستورهم ومنهاجهم، أما النصارى فالحضارة المسيحية الراقية المعاصرة ليست ناشئةً من التوراة والإنجيل؛ بل مصدرها الوحيد هو القرآن الكريم، ألقوا نظرةً على التشكيلات الحضارية والاجتماعية المعاصرة يتضح كل الاتضاح أن هذا النظام الاجتماعي المادي وإن كان النصارى يملكونه؛ لكن مصدره لايمكن أن تلك الكتب المقدسة المنسوخة مسبقًا؛ بل القرآن الكريم هو الذي فجَّر أنهار العلوم والثقافة والحضارة.

فالمبادئ القرآنية التي استعملها المسلمون ومازالوا يتقدمون في الدرب الروحي، يستعمل النصارى نفس الأصول ليتقدموا في المجال المادي.

ولما كانت مبادئ الرقي والازدهار لدى الأمتين مشتركة، وإن اختلفت المناهج العملية، فكان من الضروري أن يشترك النظام المادي والنظام الروحي للأمتين، ويكونا في انسجام وائتلام، كما يتطابق شعار اللحاف ودثاره.

الفارق بينهما هو فارق الظاهر والباطن أو الصورة والحقيقة؛ ولكنه لايؤثر في التطابق والانسجام، فالنظام الواحد يشبه النظام الآخر، وذلك لوحدة المصدر، فكأن القرآن الكريم أقام جبهتين: جبهةً للمادة وجبهةً للروح، وأعطى زمام الجبهة المادية بيد النصارى وأعطى زمام الجبهة الروحية بيد المسلمين.

ومن هنا ظهرت البرامج الراقية لدى الأمتين متطابقة ومتساوية، مع مابينهما من فرق بين النظام والمنهاج.

بعض أمثلة التشابه بين المسيحية والإسلام

المثال الأول: مسئلة التوقيت

وعلى سبيل المثال فالإسلام اهتم كثيرًا بمبدأ التوقيت وانضباط الأوقات، وأمر أتباعه بالعناية الفائقة به، حيث بين أولًا أن الغرض الأصيل من خلق الشمس والقمر هو تحديد الأوقات وتقديرها، فقال: **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (سورة يونس: ٥).

ثم بين أن عدة الشهور اثنا عشر، كما جاء في القرآن الكريم: **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ**

حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (سورة التوبة: ٣٦).

ثم وزَّع الشهور على الأسابيع فقال تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (سورة الأعراف: ٥٤).

وكان آخر أيام الأسبوع هو يوم الجمعة، فذكره الله تعالى بصفة خاصة؛ حيث خُلق فيه آدم وجُعل يومَ العبادة، فقال تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (سورة الجمعة: ٩).

ثم جعل اليوم ليلًا ونهارًا، فقال: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (سورة الزمر: ٥).

ثم وزَّع الليل والنهار على الساعات واللحظات، فقال: لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (سورة الأحقاف: ٣٥).

ثم بين أن الغرض الأصيل من تنظيم الأوقات هي العبادة التي لأجلها خلق الله الجن والإنس، وقرر هذه المبادئ لتتوازن المبادئ والأعمال، ولاتضيع الأعمال غير المنضبطة، فقال تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (سورة البقرة: ١٨٩).

وقال أيضا: **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** (سورة الفرقان: ٦٢).

ثم أوضح توقيت جميع العبادات بشكل مستقل، فقال في الصلاة: **إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا** (سورة النساء: ١٠٣).

وقال في الصوم: **فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**(سورة البقرة: ١٨٥).

وقال في الحج: **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ** (سورة البقرة: ١٩٧).

واشترط لأداء الزكاة حولان الحول، كما جاء في عدد من الأحاديث.

ثم استخدم في تنظيم الأوقات مرةً النظام الشمسي، ومرةً النظام القمري، فالعبادات التي كانت تُضبط منذ سنين تعلق أمرها بالنظام القمري، كما أن بداية الشهور الاثني عشر ونهايتها تعلقت برؤية الهلال، ليتحقق نظام الأوقات بشكل صحيح، لا بشكل صناعي، حتى لايأتيه نقص وخلل في الحساب والتنظيم، والحج فريضة العمر؛ ولكن أداءه قُرِّر بالشهر الأخير من الشهور الهجرية: ذي الحجة، وكذلك الزكاة التي هي عبادة مالية سنوية، إلا أن أداءها قُيد بانقضاء العام القمري، وبذلك جاء التقييد بالوقت، والصوم الذي هو عبادة بدنية سنوية، اشتُرط أيضا بالشهر الواحد من شهور السنة: شهر رمضان الذي تعلقت بدايته ونهايته برؤية الهلال لا بالحساب.

الحاصل أن هذه العبادات متقيدة بالنظام القمري، إلا أن العبادات التي ليست سنوية ولا شهرية؛ بل هي عبادات يومية تتعلق بالساعات واللحظات، وتتغير بعد ساعات تمَّ تقييدها بالنظام الشمسي، فإن القمر لايطلع كل ليل، ولا يظهر كل نهار، فلو تم تقييد هذه العبادات بالنظام القمري للزم التخلي عن هذه العبادات كليا، ولم يقم

نظام العبادات الليلية على نهج صحيح، كصوم كل يوم، فإنه كان من الصعب تحديده بالقمر، فتم تحديده بطلوع الشمس وغروبها، وكذلك الصلوات الخمس، التي يؤدى معظمها في النهار، حيث لايطلع فيه القمر، ويؤدَّى بعضُها في الليل، حيث لايستوي فيه القمر على نهج واحد، فتعلق أمرها بالشمس لا بالقمر.

فتم تحديد صلاة الفجر منذ طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وتحديد صلاة الظهر منذ زوال الشمس إلى أن صار ظل كل شيء مثليه سوى فيء الزوال، وتحديد صلاة العصر منذ ذلك الوقت إلى غروب الشمس، وتحديد صلاة المغرب منذ غروب الشمس إلى غروب الشفق، وتحديد صلاة العشاء منذ غروب الشفق إلى طلوع الفجر.

ثم تمَّ تقييد التسبيح والتهليل بكونه عقب الصلوات، وبذلك تغير توقيته بالوقت، وكذلك الأفعال الجزئية من عبادة الحج، نحو الطواف والسعي بين الصفا والمروة ووقوف عرفات وقيام منى والمزدلفة ورمي الجمار والذبح وطواف الزيارة تم توقيتها بالنظام الشمسي، كما أن كتب الفقه مليئة بهذه المسائل، وكذلك أنواع الطاعات وعدة الطلاق وعدة الوفاة ومدة الرضاعة ومدة الإيلاء ومدة الدَّين المؤجَّل، ومدة النذر المؤقت وغيرها من المعاملات الكثيرة، قد تم تحديدها بالأوقات.

وفي إطار العبادات لما تم تحديد جانبي السنة بشهر الصوم، ثم تم تحديد كل أسبوع من الأسابيع بالجمع والجماعات، ثم تم تحديد كل ليل ونهار بالصلوات الخمس، مما يعني أن كل سنة من سنوات العمر وكل أسبوع وكل شهر وكل ليل ونهار وكل جزء من أجزاء الليل والنهار إنما وضعت للعبادات، وتُركت الأوقات الباقية للشؤون الاجتماعية، مما ينتج أن الشؤون الاجتماعية التي تؤدَّى في الأوقات الفارغة قُيدت بالأوقات، وكذلك حدَّد الإسلام كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية -دينيًا

كان أو اجتماعيًا- بالوقت، ليكون الإنسان في مأمنٍ من التشتت والانتشار، فمسئلة التوقيت وضبط الأوقات تهدف أساسًا إلى تنظيم العبادات والطاعات، وهي غاية العبادات الإلهية، ووَضَعَ الشرعُ الإلهيُّ الحاجات التمدنية في الأوقات الباقية، لتكون منظَّمةً، ولا تكون مقصودةً بذاتها، إلا أنها حُدِّدت بالأوقات.

الحاصل أن جميع أجزاء العبادات -سواء كان غذاءً روحيًّا نحو الصلاة والصوم وذكر الله أم رحلةً روحيةً نحو الحج وزيارة بيت الله، أم علاقةً روحيةً نحو النكاح أم عزلةً روحيةً نحو الإيلاء والعدة- تم ربطها بتنظيم الأوقات، فالغرض الأصيل من مسئلة التوقيت هو محل النظام الروحي، فالمقصود هو توقيت العبادات؛ لكنه في هذا الإطار قد تمَّ تنظيم الحياة المادية بشكلٍ عفويٍ.

وعلى العكس من ذلك فإن الأمة المسيحية التي تهدف إلى إنشاء حضارة تحت العاطفة التصويرية قد استعملت مبدأ التوقيت: المبدأ القرآني؛ لكن لا في الإطار الديني، فإن الإنجيل لم يعطِ أتباعه منهجًا كاملًا للحياة، فلم يكونوا مولعين بتنظيم الأوقات في الأعمال الدينية، وهذه الأمة المسيحية وإن لم تؤمن بالقرآن الكريم لتستعمل هذا المنهج من منظور ديني، لكنها استعملت مبدأ التوقيت في الشؤون الحضارية والاجتماعية والاقتصادية، فضبطوا كلًّا من أوقات السفر والحضر والأكل والشرب واللهو واللعب والنزهة والسياحة واللقاء والاجتماع، وأوقات المكاتب والدواوين والأمور الإدارية، حتى أوقات الفواحش، وأوقات الحاجات الأساسية، وضبطوا هذه الأمور ضبطا يشبه ضبطَ الإسلام للحاجات الروحية والأساسية.

إن دُوْر الأفلام والمسارح تبدأ وتنتهي بأوقات محددة، كما تتحدد العبادات بالأوقات، إن نوادي الرقص وشرب الخمور تُفتح بالميعاد وتُغلق بالميعاد، وتم تحديد

سن التقاعد بـ٥٥ عامًا، حتى تم توقيت الأعمال المكتبية بدقائق وثوانيَ، فأوقات العشاء والغداء محدَّدة، وفي الرحلات نرى أن أوقات القطار ذهابًا وإيابًا محدَّدةٌ بكل دقة، حتى في كل قريةٍ ومدينةٍ حُددت أوقات القطار ذهابًا وإيابًا، فكما أن أوقات القطار لم يتم توكيلها إلى المسافرين، بل هي موكولة إلى الحكومة كما أن الحكومة الإلهية هي التي تولَّت تحديد شؤون العبادة، حتى لايكون دخل للآلات في توقيت العبادات، وقد تعوَّد الناس تحديد أوقات اللقاء والاجتماع مع الشخصيات الهامة بشكلٍ لايُحْدِثُ فرقًا، فإن خرج وقت اللقاء لكسل الزائرين، فلا قضاء له، ثم أوقات هذه الأمور منضبطة، كما أن أوقات الصلاة والحج والعبادات الأخرى في الإسلام منضبطة، ضبطها الفقهاء بكل دقة، وفصَّلها في الأبواب والفصول، فأوقات القطار متعينة، وأوقات المكاتب محددة، وأوقات المدنية محددةً، وأوقات الجيش محددةً.

وعلى كل فإن مبدأ التوقيت الذي استعمله الإسلام في الروحانيات والعبادات، استعمله النصارى في الماديات والعادات، فتقدمت كلتا الأمتين على خطوطهما في ضوء الأصل الواحد، فسارت إحداهما نحو الروحانية،بينما ذهبت الأخرى إلى المادية.

المثال الثاني: قضية الجمهورية والاجتماعية

وكما أن الاجتماع والتضامن من أهم مبادئ الإسلام، وكانت الدنيا كلها جاهلة بدقائق هذا المبدأ، وبهذا المبدأ جعل الإسلام نظام العبادات والطاعات عملًا جمهوريًا، لتقوم حياة اجتماعية في الشؤون الاقتصادية والمدنية، وبذلك يسهل أمر العبادات، ويقوم تناصر وتعاون في الأمور العامة، حتى تحدث رغبة الجمهور من الناس في الأمور الاجتماعية، ويذهب الكسل، وتأتي المساواة، وبهذا الارتباط الحسي

قامت علاقة قلبية، وحلت منافع قومية محل المنافع الشخصية، وتنشأ قوة قومية رهيبة، والظاهر أن هذا الاجتماع والتعاون بين عامة الناس جعل كل فرد يستفيد من البركات الظاهرة والباطنة، وانجبر ضعف أحد بقوة الآخر.

وبهذا المبدأ نشأت مبادئ أخرى كثيرة، تتمثل في المساواة والمؤانسة والمرابحة والبركة والقوة والرعب وما إليها من الأمور التي هي أساس القوة والشوكة، التي يقوم عليها نظام المدنية والاجتماع، ومن هنا رتب الإسلام مبادئ الجمهورية في الشؤون الروحية ترتيبًا جمع بين الفوائد الروحية والمنافع المادية، وبين التدين والتمدن، وهكذا قام الدين والدنيا جنبًا لجنب، حيث أمر بالصلاة فأكد على الجماعة، وأمر بالزكاة، فأسس بيت المال لتكون منافع قومية على حساب المنافع الشخصية، أمر بالصوم فوضعه في وضعٍ اجتماعيٍ، حيث يأكل الصائمون طعام السحور والإفطار في دقيقة واحدة وثانية واحدة، وهكذا يبدأ صوم المسلمين في لحظةٍ واحدةٍ، وينتهي في نفس اللحظة، أما الحج فهو عبارة عن الاجتماع، ونظَّم الجهادَ بإمام وقائد، أما الأمور الاجتماعية فهي كلها منظمةٌ بشكل جمهوري، وكذلك الحكومة والسياسة قائمتان على الشورى الاجتماعية، **"وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ"**، لا على الاستبداد الشخصي، وكذلك يتم نصب الخليفة والإمام بالقرار الاجتماعي لا بالإرث العائلي، وكذلك في أمور البيت وضع الإسلام أحد أفراد العائلة راعيًا وسائر الأفراد رعية، ليقوم نظام اجتماعي في كل بيت، ويهنأ العيش في كل قبيلة، وفي السفر أمر الإسلام بتعيين واحد من المسافرين أميرًا للسفر ليتم السفرُ في صورة اجتماعية، وتنقسم مشاقُّ السفر وصعوباتُ الرحلة بين الجميع.

وعلى كل فإن الإسلام نظَّم الحياة الروحية والإسلامية بالأصول الجمهورية، ثم هذه الاجتماعية هي التي جعلت البرامجَ الإسلاميةَ سهلةَ الوصول، فإن الأحكام الاجتماعية يسهل العمل بها.

وقد اختارت الأمم الراقية المعاصرة المبادئ الجمهورية للإسلام وجعلتها جزءا من حياتها؛ لكن لا في الحياة الروحية التي هي غاية إسلامية، تجعل الأمور الروحية تنتظم، بل في الحياة الاجتماعية، فبذلك قامت جمهورية صورية في النظام المادي، فالحكومات المعاصرة اليوم برلمانية، والانتخابات اجتماعية، ونشر الأفكار والنظريات الدولية والقومية يتم عن طريق الجمعيات والنوادي واللجان، والاحتجاجات تكون في الصبغة الاجتماعية؛ بل إن الشكاوى الشخصية تكون عامةً في صورة القضايا الوطنية، إن التفاوض يجري عن طريق الوفود، والدعاوى لاتحتاج إلى الدلائل بل إلى الأحزاب والكثرة التي تساندها، والتجارة تديرها الشركات، والصناعة تتطور عن طريق المصانع الاجتماعية، حتى إن الحياة العائلية أيضا قائمة اليوم على وضع الفنادق، ومبارات اللهو واللعب تكون في صورة جماعية.

الحاصل أن كل جزء من أجزاء الحضارة والاجتماع يرتدي اليوم لباس الاجتماعية والجمهورية، والفرق أن الإسلام وضع مبادئ الجمهورية في تنظيم المقاصد الروحية بشكل تنتظم به المنافع المادية، ولكن الأمة المحبة للصورة فَصَلَ هذه المبادئ عن الجانب الروحي، واستعملها في تسهيل المنافع المادية، وهذا ما أقام صورة التنظيم؛ ولكن فاتها التنظيم الحقيقي، فإن الإسلام إذا أقام الجمهورية أقامها بشكل جامع لايتخلله قلق واضطراب، وإذا حصل عليها رجال المادة والصورة استعملوها استعمالًا

داخله كثير من الاضطراب والتشويش، فالجمهورية الإسلامية هي التجميع دون التفريق، والتوحيد دون التشتيت، والأمم التصويرية تعتبر المبادئ الجمهورية أمورًا ترادف الازدحام، فهي تجمع كثيرًا من الأفراد في مكان واحد، سواء كان لهم مركز أم لا، وهذا يزيد الوضع تشوشًا واضطرابًا، وإن كانت تنشأ صورة الاجتماعية والجمهورية، إلا أنها حكومة افتراق وشقاق، فإن سخط قائد من قواد حزب يعتزل ويقيم حزبًا جديدًا، ثم إن انفصل أحد من هذا الحزب الجديد يقيم حزبًا جديدًا، فصورة الجماعة قائمة من الألف إلى الياء؛ ولكن الجمعية مفقودة في كل مكان، مما ينتج أن الاختلاف والشقاق يحدثان في لون جماعي، فمبادئ الجمهورية التي أُنشئت لأهداف سامية استخدمها الماديون في الأهداف الخسيسة، التي لاتحتاج إلى صبغة جماعية، وأفضى موقف المولعين بالصور إلى أن الدنيا سميت بالدنيا الجمهورية؛ ولكن الحياة الدينية لم تبق جمهوريةً حتى في صورةٍ فرديةٍ.

المثال الثالث: قضية الخطابة والبيان

وعلى سبيل المثال فإن الخطابة جزء هام من الحياة الإسلامية، ولا شك أن المسلمين استعملوها بكل إتقانٍ في صالح الأهداف، وجاؤا بأساليب فصيحةً عند ما كان العالم أبكم، لايعرف من أسلوب الكلام والحوار شيئًا، فالمسلمون لم ينطقوا بنفوسهم؛ بل أنطقوا العالم كله، وصدق الشاعر الحالي:

"إن نطق العرب هو الذي أنطق الجميع"

وبما أن القرآن الكريم كان معجزة الفصاحة والبلاغة، والذي عقد عناوينَ لخطب ومحاضرات كل بابٍ، وزوَّد المسلمين بموادَّ علمية وأساليبَ بيانيةٍ هائلةٍ،

وجعل المسلمين فرسانَ ميدان الخطابة، فقد قام خطباء الإسلام بإحداث زلزلةٍ في عالم الكفر والشرك، وهدم قصور التقاليد والأعراف الجاهلية، وألجأوا الكثير منهم إلى العودة إلى الإسلام.

فمبدأ الخطابة استعمله المسلمون في نشر الإسلام وإشاعة الدعوة الإسلامية بشكلٍ أثار حيرة الجميع، وكان هذا هو الغرض الأصيل وراء مبدأ الخطابة، فالخطابة منذ فجرها ترمي إلى تذكير الأمة وتقديم النصح والموعظة، ونفخ الروح الإيمانية في قلوب الناس، ورد الغافلين منهم إلى الإسلام، وتلقين الذاكرين بالثبات على صراط الحق والصدق، وتوضيح المسائل الفقهية بأسلوبٍ مؤثرٍ، وترغيب المسلمين في الأعمال الصالحة والمقامات الروحية، ولم يكن الغرض الأصيل وراء الخطابة أن يكون استعمالها في قضايا المادة والمعدة، فإن الشؤون الحضارية، والشؤون الدنيوية لم تكن في حاجةٍ إلى التذكير، فإن الإنسان الذي يعيش في هذه الدنيا لايستطيع أن ينسى هذه الدنيا حتى يكونوا بحاجةٍ إلى التذكير؛ نعم! إن الإنسان كان بحاجةٍ إلى التذكير بأمور الآخرة، لكونها بعيدةً عن الأعين وخافيةً على القلوب، فكانوا يحتاجون إلى التذكير بها بأسلوبٍ رائعٍ، وقد قام المسلمون بأداء هذه الفريضة بأحسن طرازٍ، حيث قام خطباؤهم فألانوا القلوب، وأثاروا الأرواح، وأدمعوا العيون، وأنذروا الغافلين، وبشروا العاملين، وبذلك أحدثوا هزاتٍ في قلوب العامة وأعلوا كلمة الله.

والأمم الراقية المعاصرة قد اختارت هذه المبادئ القرآنية، وقد تعلمت من المسلمين فصاحة الكلام وسحر البيان، ولكن لأي غرض؟ لا للدين، لا للدين الإسلامي ولا للدين الذي تدين له، بل للبحث في الأمور الحضارية التافهة، وهذه السلسلة من محاضرات وخطب وبيانات المجالس والمؤتمرات والندوات تدور حول

المواضيع التافهة، نحو حاصلات الملح وأسعار السوق، ومصنوعات القطن، وتطوير النطاق التجاري، وترويج الصناعة والحرفة والعمل باليد، وعمالة المصانع وأسعار القطار والمواصلات وصناعة الخياطة والحياكة ومناهجها وتصدير وإيراد القرطاسية والبضائع الأخرى، وضرائب المنازل السكنية، والفروع المدنية، التي تعمل في إعداد الملذات الجسدية والشهوات المادية، مثلًا على فوائد السفور والعري، وإحصاءات الزنا والخنا، وتفاصيل السرقة وارتكاب الجرائم وما إليها.

الحاصل أن كل قسمٍ من أقسام الحياة المادية مما يتعلق بالتجميل والتزيين هو اليوم موضوع الخطب والمحاضرات، إن فصاحة المحامين، وطلاقة ألسنتهم، وأقضية القضاة ليست إلا وسائلَ لإكمال الأغراض المادية التافهة التي تتعلق بالمدنية وتطوير المعاش لا بالديانة والصدق والدين ومكارم الأخلاق.

فالقرآن الكريم هو الذي زوَّد الناس بالخطابة وسلاسة الألفاظ ومبادئ المحاضرات ووسائلها مما جعل الناس ينطقون؛ ولكن محل هذه المبادئ هي الحقائق والمعارف الإلهية، لتقوم بين العباد وربهم صلة، لا هذه الوسائل المادية وترويجها، التي جعلت العباد ينفرون من العبادة، ويتخبطون في هوى نفساني، ويقعون من علياء الروحانية إلى أوحال المادية، فالأمة النصرانية استعملت هذا المبدأ؛ ولكن في غير وجهه، فجاءت النتيجة بقدر ما حاولت.

المثال الرابع: قضية التفكير والتدبر

وقد وضع القرآن الكريم مبدأ التفكر والتدبر، ودعا عقلاء العالم وبصراءه إلى الاعتناء بهذا الجانب، لتتخرج الخزائن الخفية للأرواح فيما يتعلق بالسماوات والأرض

وما فيها من أنواع النباتات والحيوانات وعجائب الإنسان الظاهرة والباطنة وما إليها، وضع هذا المبدأ ليتدبر العباد عجائب الخلق وبدائع الكون بدقة نظرٍ وثقوب فكرٍ، فيتوصلوا إلى ربهم بديع السموات والأرض، ويسعدوا بنعمة الإيمان والمعرفة: **"لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ"** (سورة ص: ٢٩).

وكمال الصنائع الإلهية سيبرز بقدر التدبر، وبقدره تتضح الفروع الكثيرة للأفضال الإلهية، وبقدر رغبة الطبع في التدبر يرغب الإنسان في الطاعات والعبادات، وهكذا يسعد الإنسان المتفكر بنعمة الدنيا والآخرة، ويقبض على دولة الراحة والطمآنينة، وهذا التدبر سيفتح له طرقًا جديدةً للروحانية، وهذا هو الغرض الأصيل للتدبر، ولهذا رغَّب الإسلامُ الناس في التفكر.

الانتقال الذهني إلى الإيجادات من خلال المبادئ القرآنية:

ثم القرآن الكريم كما دعا الناس العقلاء إلى التفكر، وضع خطوطًا عمليةً سليمةً للتدبر، وهكذا وضع مبدأ التفكر وأسلوب التفكر معًا، وقد سلط القرآن الكريم في كثير من المواضع ضوءًا على الحقائق الشرعية والكونية وما بينها من ارتباطٍ بأسلوبٍ معقولٍ، تنتقل به الأذهان مباشرةً بعد أدنى تدبرٍ إلى مئاتٍ من الاختراعات والإيجادات.

والفرق أن الدماغ المتفكر إذا كانت له صلةٌ بالمجال الروحي انتقل إلى الإيجادات المعنوية والنظريات الروحية، التي تتعلق بالعلوم والمعارف، وإن كان ذالك الدماغ غارقًا في الماديات فهو ينتقل في الإيجادات المادية، التي تتعلق بالصناعة والحرفة، والحركة الفكرية الأولى تسمى "اجتهادًا"، والحركة الفكرية الثانية تسمى "إيجادًا".

بيد أن كلًّا من الخطوطين يصلح للكشف عن أسرار الكون وخزائن العالم، وأذكر على سبيل المثال أنه لا بد من النظر في مبدأٍ واحدٍ، يتكون من عدة آياتٍ وروايات، وهو أن العناصر المتضادة البسيطة، إن وضعناها في أمكنةٍ متفرقةٍ، لايحدث فيها رقي، ولايظهر منها شيءٌ يخالف طبيعتها وجوهرها، ولكن إذا جمعناها بترتيبٍ خاصٍ، تتصادم خواصها وتظهر عجائبات مختلفة الألوان، وهذا التركيب يجعل فيها رقيًّا وزيادةً.

كما أن القرآن الكريم ذكر نوعًا غير مرئي من أنواع الخلائق الإلهية، وهو نوعٌ، كله طاعة، ولايمسه شيء من العصيان، وهو نوع الملائكة عليهم السلام، قال الله تعالى: **بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ٥ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** (سورة الأنبياء: ٢٦-٢٧)، وقال أيضا: **عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** (سورة التحريم: ٦).

ثم ذكر نوع الشيطان الذي هو رأس جميع أنواع الكفر والعصيان، ولا صلة له بالطاعة والعبادة، حيث قال تعالى: **وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا** (سورة الإسراء: ٢٧)

ثم ذكر البهائم والأنعام، التي لايهمها إلا الأكل والشرب، ولاعلاقة لها بالطاعة والمعصية، ومن هنا شبه الله سبحانه الناس الغافلين عن مصيرهم، المنكرين لربهم، الغارقين في ملذات الدنيا وشهوات الطعام والشراب، شبههم بالأنعام، قال تعالى: **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ** (سورة محمد: ١٢).

وكذلك الناس الذين استعملوا قواهم الفكرية والجسدية في حطام الدنيا وتركوا الإيمان بالله والآخرة، وصاروا في غفلةٍ عظيمةٍ، شبههم الله سبحانه أيضا

بالأنعام والبهائم، حيث قال: **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** (سورة الأعراف: ١٧٩).

وهذه الأنواع المذكورة (نوع الملائكة ونوع الشيطان ونوع البهائم) من الأنواع البسيطة، التي خصها الله بميزة خاصة من الطاعة أو المعصية أو الغفلة، فهذه الأنواع تمارس أعمالًا تناسب طبيعتها حتى يأتي أجلها، فلا يحدث فيها رقي ولا جدة.

الملائكة بعد ما خُلقوا انقطعوا إلى الركوع والسجود حتى آخر ساعة من ساعات حياتهم، فهم لايعرفون غير ذلك النوع من الطاعة، الذي يشتغلون به، ويجهلون بالمبادئ الكلية للعبادة، حتى يتمكنوا من إيجاد أنواع جديدة وجزئيات كثيرة للطاعة، فهم يعملون بما أُمروا به، ولايستطيعون إحداث شيء جديد في مجال العبادة عن طريق الاستنباط من المبادئ الكلية.

وكذلك الشيطان، فهو مجبول بطبعه على الكفران والعصيان والطغيان، وكل فرد من أفراده يشتغل بأسلوبٍ من أساليب الإغواء والإضلال، فلا يطرق طريقا غير هذا الطريق، ولا ينصرف ولا يحيد، ولايمكن لجيل شيطاني لاحق أن يختلف عن الأجيال الشيطانية السابقة، فالدرب الشيطاني الذي سارت عليه أجيال الشيطان في الماضي، عليه تسير أجياله في المستقبل، ودربه معلوم؛ فإنه يسوِّل للنفوس الإنسانية المعاصي والذنوب، ويحملها على الكفران والذنوب، وهذا درب سارت –ولا زالت تسير– الأجيال الشيطانية قديمًا وحديثًا.

وكذلك البهائم أُودعت طباعُها عاطفة الأكل والشرب، فهي مشتغلة بها، بدون تطور وتأخر، فالبقرة في عصر آدم كانت تأكل ما تأكله الأبقار في زمننا هذا،

فقد هداها الله إلى ما يناسب طبعها من الطعام والشراب، فهي فيها منهمكة، لاتحرص على الزيادة، ولا ترغب في الجدة.

وبعد ذكر هذه الأنواع الثلاثة ذكر القرآن الكريم نوعًا رابعًا، أودع طبعه خصائص الأنواع الثلاثة المذكورة جملةً، وقد رُكبت طينته بهذه الخصائص بشكلٍ جيدٍ، فجعل الله سبحانه الهيكل الترابي يحتوي على العناصر المتضادة المبعثرة في الملائكة والشياطين والبهائم بنسقٍ جميلٍ واتزانٍ كاملٍ، وسمى هذا الهيكل إنسانًا، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع المركب من عناصر الشيطنة والملكية بقوله: **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا o فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (سورة الشمس:٧- ٨)، وفي آيةٍ أخرى أشار إلى ما فيه من عنصر البهيمية، حيث قال: ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** (سورة الحجر: ٣).

وهذه العناصر المتضادة المتمثلة في الملكية والشيطنة والبهيمية التي كانت مبعثرةً في الملائكة والشيطان والبهائم، إذا جُمعت في الإنسان نشأ في النوع الإنساني مزيجٌ من الخصائص المتفرقة، فهو في جميع مراحل الحياة تتفرق نشاطاته، وتتفرق أفكاره وأعماله.

وإن من خصائص تفرق الأعمال هو التطور والزيادة، فإنا إذا جمعنا بين الشيئين نشأ شيءٌ ثالثٌ، وهذا هو ارتقاء الأشياء، وإن فرَّقنا الأشياء المجتمعة حصلت أشياء كثيرةٌ، وهذا هو ارتقاء الأجزاء، وهذا هو عبارة عن التجديد والتطوير، مما يسبب اكتشافاتٍ علميةً عن طريق الترتيب العلمي، ويسبب اكتشافاتٍ روحيةً وماديةً وعجائبَ جديدةً عن طريق الترتيب العملي، ومن هنا تنشأ نظرية أن الإنسان هو الذي يستحق التطوير والتنمية والتجديد لا غير، فهو الذي

عُجنت طينته بعنصر التنمية والتطوير، وهذا التصادم من اجتماع العناصر هو الذي كشف مجالاتٍ جديدةً مضادَّةً للعلم والعمل والفكر، وبذلك يستمرُّ انطلاقه إلى الميادين المختلفة، ولاتنقطع نشاطاته.

وإذا نظرنا إلى الجانب البهيمي فالأغذية والملابس التي كان يستعملها الإنسان في عصر آدم عليه السلام قد تطورت كثيرًا اليوم، وشكَّلت الأكلاتُ والأشربةُ أنواعًا جديدةً.

وإذا نظرنا إلى الجانب الملكي فتطور الجانب الروحي ونشاطات التزكية والإحسان في ظل الأديان والشرائع السماوية إلى حدٍّ أن كل أمةٍ لاحقةٍ، تجعل الأمم السابقة تستحيي من الأجيال اللاحقة في مجال العبادة والقرب إلى الله، حتى بلغت الأسرةُ الإنسانيةُ إلى دينٍ كاملٍ، لم يبق بعده طريقٌ للروحانية، إلا أن باب التقدم لم يُغلق في وقتٍ من الأوقات، فإن مبادئ هذا الدين تحتوي على درجاتٍ عاليةٍ لانهاية لها من الرقي والازدهار، يسعى إليها الإنسان بجهوده المكثفة.

وإذا نظرنا إلى الجانب الشيطاني فالمكر والدهاء والنفاق والخداع وما إليها من الصفات الذميمة مازالت في ازديادٍ مستمرٍ، حتى أن كل أمة لاحقة تزدري بالأمم السابقة، ولاشك أن هناك كثيرًا من أنواع الغدر والنفاق سوف تنجزها الأجيال البشرية اللاحقة مما لم تعرفه الأجيال السابقة.

الحاصل أن الإنسان يملك شأن التميز المتطور في كل مادَّة، فهو يتطور من طورٍ إلى طورٍ أفضل، وقد ذكر القرآن الكريم تطورات الإنسان في الخير والشر، والملكية والشيطنة في قوله: **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٥ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ** (سورة التين: ٤-٥).

حقيقة الإيجاد:

إن التصريحات القرآنية قد ذكرت أن بعض أنواع الخلائق بسيطة، لايمكن أن تتطور، وبعضها مركَّبة، وهي التي تتحلى بالتقدم والتطور في كل جانب، مما جعل الرجل البصير يسهل عليه استنباط المبدأ المتمثل في أن العناصر البسيطة المتضادة إن بقيت متفرقةً، تؤدي وظيفتها الطبيعية؛ ولكن إذا جُمعت ورُكِّبت بترتيبٍ خاصٍّ واعتدالٍ مناسبٍ، فهذا الاجتماع يأتي بشيءٍ جديدٍ قويٍ، قد تعجز عنه العناصر البسيطة؛ وهذا مبدأ شائع بين الأنام، نعم إذا استعملها فلاسفة العالم في مجال الماديات دون المجالات الشرعية والروحية، يستطيع إنجاز طاقاتٍ جديدةً واختراع نماذج حضاريةٍ عن طريق تركيب العناصر المادية، ولا شك أن هؤلاء الفلاسفة إن لم يكونوا مجتهدين شرعيين فهم بلا شك مخترعون ماديُّون.

(١) مبادئ الصناعة البخارية:

وفي ضوء هذه المبادئ إذا فكرنا في أن النار عنصر، لايعمل في غير الإحراق، والماء عنصر لايعمل في غير الإرواء والإذابة والإطفاء، فهذان العنصران المتضادان لايملكان التطور والتقدم كتضادِّ الملكية والشيطنة؛ ولكن إذا وُضعت النار في الظرف الحديدي، ثم حُبس فيه الماء بطريقةٍ خاصةٍ، فهذا الاجتماع والاتصال يكون سببًا لنشأة قوةٍ ثالثةٍ: وهي قوة البخار، وبسبب اجتماع القوتين المتضادتين تتكون قوةٌ متطورةٌ، تملك خصائص الارتقاء، وهذه القوة البخارية، الجارية دائمًا إلى الأمام، الطائرة بالناس، تستطيع أن تحمل ألوفًا من الأطنان الحديدية، وتُحرِّك الدواليب الثقيلة، وتحفر الأراضي، وتُطيِّرُ الطائرات وتُسيِّرُ السيارات، وتجذب الهواء، وتدفع الماء، وعلى كل فيمكن أن ننزل بها إلى أسفل سافلين أو نصعد بها إلى

أعلى عليين، فالنظم القرآني وما يُستنبط منه من المبادئ والأصول إن قامت العقلية المادية باستعمالها في إيجاد الآلات والماكينات فلا داعي للعجب، مما يؤدي إلى أن الإيجادات المادية ليست غريبة على المبادئ الشرعية؛ بل هي أثر غير مرئي من آثارها، وإن لم يلتفت إليها أذهان الفلاسفة والمخترعين؛ ولكن الواقع أن جميع الاختراعات العصرية وعقليات المخترعين مستنيرةً بنور المبادئ القرآنية والعلوم الإلهية.

(٢) مبدأ الإيجاد شرعي ومأخوذ من الأصول الإلهية:

كما أن القرآن الكريم أشار إلى العمل المركب المتمثل في الصلاة، ثم نبه على أنها إذا تم تحليلها فهي مركبة من عدة أجزاء، كما جاء في الحديث النبوي: إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن[1].

والظاهر أن التسبيح والتهليل والتكبير وتلاوة القرآن عباداتٌ مستقلةٌ، فإن مارسناها مفردًا ظهرت لها آثار وأنوار، وإن جمعناها في عبادةٍ واحدةٍ كالصلاة ظهرت لها آثار مختلفة، وإن بحثنا عن حقيقة كل واحدةٍ منها ظهرت علوم وأسرار، وإن كشفنا عن كنه الصلاة التي هي مجموعة العبادات اطلعنا على حقائق ومعارف جديدة، مختلفة عن الحقائق السابقة.

الحاصل أن آثار المركب من العلوم والأعمال تختلف عن آثار المفرد، وهذه العلوم والأعمال بعد أن سرت في أجزاء المركب تنتقل الأذهان إلى استخراج أصلٍ كليٍ، يسمى التحليل والتركيب.

(١) أخرجه النسائي، في سننه، باب الكلام في الصلاة، ج٥، ص١٣٥، رقم ١١٤١.

واتضح سابقًا أن هذا التركيب والتحليل هو عنوان الرقي الإنساني، وإن مبادئ التحليل والتركيب –التي احتوت عليها الصلاة– إن تم استخدامها في الأجزاء المادية عن طريقٍ كيماويٍ، تشكل أساسًا للرقي المادي والاختراعات الجديدة.

وهذه الأعشاب الصحراوية إن جمعناها في ترتيبٍ خاصٍّ ووزنٍ محدَّدٍ، ينشأ الذهب، الذي يسمى بالكيمياء، وبتحليل مياه البحر يخرج الملح، وتحليل المعدنيات يسبب صناعة العجائب الكيماوية الكثيرة، واستعمال هذه الأصول في الأشياء المادية يؤدي إلى اكتشاف الكم الهائل من الإيجادات المادية؛ مما يوضح أن هذه المبادئ الفطرية التي وضعت في الأمور الشرعية هي بدورها مفردات ومركبات العقليات المادية، فهي تستطيع استخدامها كاستخدام العلماء الصالحين في تحليل الصلاة وأجزائها، فهذه الأصول من شأنها استخراج النتائج الجديدة في الماديات كاستخراج النتائج الجديدة في الروحانية؛ ولكن سيبقى هذا الفرق بأن استخدام هذه الأصول في العلوم الشرعية يسبب التفاصيل الخفية مما يسمى في الاصطلاح الشرعي "اجتهادا"، واستخدام هذه الأصول في الماديات يظهر الأسرار الخفية للمادية؛ مما يسمى "إيجادا".

وعلى كل فإن الاجتهاد العلمي أو الإيجاد العملي هو ثمرة من ثمار الأصول الطبيعية، التي أظهرها القرآن الكريم، وقد استعملها المسلمون كما يجب أن يستعمله أتباع الحق، فبعد التفكر والتدبر أظهر المسلمون أسرارًا كثيرةً من عالم الآفاق وعالم الأنفس، بما فيها مكائد النفس ومقامات الروح ولطائف القلب، وسجلوا بالألسنة والأقلام أسرار الغيب في كلام الحق وأفعال الحق، وتفجرت من قلوبهم ينابيع الحكمة؛ حتى وجدوا الحق في خضم الباطل، وجعلوا كل مخلوق شاهدًا على عظمة الخالق.

استعمال الأمة المسيحية المبادئ القرآنية للمادة والصورة:

فأصحابُ العلم والخبرة من النصارى عاملون اليوم بالمبادئ القرآنية، ولما رسخت هذه المبادئ القرآنية وما يماثلها من المبادئ في قلوب وعقول المسيحيين بسبب تعاليم المسلمين، استعملوها؛ ولكن في أي موضوع؟ هل في الروحانيات؟ لا، هل في معرفة الحق؟ لا، هل في البحث عن الآخرة؟ كلا؛ بل في الكشف عن أسرار المادية، وذلك ليس للتذكير بخالق الكون؛ بل لينسى الناس ذواتهم، وينقطعوا إلى مصالحهم المادية، فإن نسيان الحق من ثمار حب المادة وعبادتها، فإن كان المسلمون استعملوها في الروح والنفس والعرش والكرسي والكشف عن الحقائق الغيبية فاستعملها النصارى في النار والهواء والتراب: صورها وماينشأ منها من البرق والغاز والسلك والتليفون والراديو والقطار والسيارة، والطيارة والباخرة والمصانع والشركات، فبعضهم يفكرون في تحقيق طبقات الأرض، حتى يستخرجوا الذهب والفضة والمعادن الأخرى، وينهمكوا في التعيش، وبعضهم يفكرون في النباتات، ليستخرجوا الثياب والأوراق والمصنوعات الأخرى، وبعضهم يفكرون في صناعة الأثمار عن طريق أنواع التلقيح، لتتحرك التجارات، وبعضهم يفكرون في جلود الحيوانات وعظامها وأمعائها، ليتم صناعة الصنادق والسكاكين والأشياء الأخرى، وتتطور مواد الجمال والتزين، وبعضهم يفكرون في اختراع الآلات السريعة، حتى لايتأخروا في تحصيل المنافع المادية، ولاتبرد عاطفة التنعم، وبعضهم يفكرون في صياغة جديدة للماكينات والآلات عن طريق الحديد والنحاس الأصفر والمعادن الأخرى، وبعضهم يفكرون في صناعة أثاث الخشب، وبعضهم يفكرون في تطريز

الثياب والتنقيش؛ ليتطور رونق الحضارة المادية البراقة ويكثر ولع الناس بهذه المادية، وبذلك تفوِّت الأسرةُ الإنسانيةُ فرصةَ الاستفادة من هذه المبادئ، وذكر المبدأ والمعاد.

فاستعملت الأمة المسيحية مبادئ التركيب والتحليل هذه فتطورت، وحق لها أن تتطور، فهي مبادئ التطور، فأنشأوا مقامات المادة، وأنطقوا الحديد، وسيَّروا المعادن الثقيلة، وقوَّضوا الجبال، ونوَّروا المدن، ولوَّنوا وأحرُّوا الأبدان، وكأنهم جعلوا المادة كائنًا حيًّا كالروح، وبسبب هذه الحياة الظاهرة الجميلة جعلوا الباطن الشبيه بالمادة بعيدًا عن الحياة، فأبردوا الروح، وأماتوا القلوب، وسوَّدوا النفوس، وقضوا على الحياة الروحية، وأضاعوا الحقيقة في تزيين الصورة، وخرّبوا العاقبة، وانقطعوا إلى تدبر المحسوسات بعد القضاء على أسرار المغيبات، ولم يدروا ماذا فعلوا؟ وماذا حصدوا؟، اجتهدوا فأضاعوا الجهود، وبذلك خسروا الدنيا والآخرة.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ٥ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ٥ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ٥ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (سورة الكهف:١٠٣- ١٠٦).

النسبة بين الأمة المسلمة والأمة المسيحية هي نسبة الصورة والحقيقة:

الحاصل أن الحضارة المعاصرة ومناظرها الخلابة واتجاهاتها المدنية العامة إن كانت جلبت أنظار العالم، فالحقيقة أن جميع البهاء والرواء راجعة إلى المبادئ القرآنية، وما انبثق منها من عقلية وفكرة، والتي نشرها المسلمون في عصورهم، وصارت جزءًا لعقليات الأمم بشكل غير محسوس؛ حتى صارت طبيعة ثانية لهم،

وشرحتها كل أمة حسب العقلية لديها؛ ولكن المسلمين سلكوا مسلك الحقائق حسب العقلية المحبة للحقيقة، وانتهج النصارى منهج الصور والأشكال حسب العقلية المحبة للصورة والمادة، فكل منهما لقي التطور والازدهار، إلا أن تطور أحدهما حقيقي، وتطور الآخر رسمي، فبقدر ما تطورت الأمة المسلمة نحو الحقائق عن طريق المبادئ العلمية جرى النصارى نحو الصورة والمادة، فالمسلمون ينفذون إلى أغوار الروحانية، والنصارى متخبطون في الماديات، والمسلمون ظلوا يصعدون نحو العرش، والنصارى مازالوا ينزلون إلى حضيض الفرش، وبذلك قامت نسبة بين المسلمين والنصارى، وهي نسبة الصورة والحقيقة: نسبة الجسم والروح، نسبة الظاهر والباطن.

والمعلوم أن الحقيقة أصل من بين الصورة والحقيقة، والصورة أثر من آثارها، فالحقيقة تعطي صورتها وجودًا، والصورة تُظهر حقيقتها، أي إن لم تكن الحقيقة فلا إمكان لوجود الصورة، وفقدان الصورة لايؤثر سلبًا على الحقيقة، نعم! ظهور الحقيقة وانكشافها يحتاجان إلى الصورة، فوجود الصورة موقوف على الحقيقة، إلا أن وجود الحقيقة ليس بموقوف على الصورة، وإن كان ظهورها وظهور الأسرار الخفية موقوف على الصورة، فالأمة النصرانية مثل الصورة، والأمة الإسلامية مثل الحقيقة، وهذا يؤدي إلى أنه لولا الفضائل المعنوية للمسلمين لما ظهر جمال النصارى، وعدم جمال النصارى لم يؤثر في وجود الكمالات المعنوية للمسلمين، نعم! بدون الصورة لم تظهر الحقائق الكلية للمسلمين، وبتعبير آخر: صح لنا أن نقول: إن النظام الملي والتصويري للنصارى ناشئ عن الكيان الملي النموذجي للأمة المسلمة، فالأمة المسلمة مصدر الأمة المسيحية.

إن كانت الأمة المسلمة أصلا، فالأمة المسيحية فرعها، إن كان المسلمون أساسًا فالنصارى خريطة للعمارة المبنية على هذا، فجميع مظاهر هذه العمارة خاضعة لذلك الأساس، وبذلك قامت نسبة عجيبة بين الأمة المسيحية والأمة المسلمة، لم يقم مثلُها بين الأمم الأخرى.

النسبة القائمة بين نبينا مُحَمَّد وبين عيسى روح الله هي نسبة الأصل والفرع:

وبعد إدراك هذه الحقيقة توصَّلنا إلى لطيفة علمية، وهي أنها لما ثبت أن عقلية كل أمة نابعة من عقلية قائدها وإمامها، فإن كان القائد فَقَدَ العقلية الكاملة، لابد أن يفقد العامةُ تلك العقلية، وهذا يؤدي إلى أن النسبة التي تحصل للأمة من حيث العقلية هي ثمرة من ثمار نسبة الأئمة والقائدين، فلولا نسبة المربي الإمام لما تهيأت النسبة للأمة، فإن هذه النسبة تتفاوت حسب اختلاف العقلية، والعقلية ثمرة السابقين، فالنسبة هي الأخرى ثمرة السابقين، فإن كانت نسبة الأمة المسلمة والأمة المسيحية هي نسبة الحقيقة والصورة، ونسبة المصدر والصادر، ونسبة الأصل والفرع، فلا بد أن تكون النسبة بين خاتم النبيين محمد إمام المسلمين وبين عيسى روح الله إمام النصارى هي نسبة الأصل والفرع، ونسبة المصدر والصادر، فإن كانت فضائل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هي حقيقةً واحدةً، ففضائل عيسى روح الله هي صورة مباركة لتلك الحقيقة، وتسري في تلك الصورة مشابهة معنوية، فالتشابه بين الأصل والفرع شيء طبيعي، وبعد ذلك صحَّ لنا أن نقول: إن علاقة المسيح عليه السلام بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم تفوق العلاقات القائمة بين نبينا وسائر الأنبياء عليهم السلام، فعلاقته بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم هي علاقة حسية ظاهرة، لتظهر آثار

الحقيقة المحمدية على آثار المسيح الصورية، وتظهر تلك النسبة القائمة بين الحقيقة والصورة بشكل كامل في الذوات المباركة، ثم تظهر هذه النسبة في الأمم بشكل خاص، والظاهر أن النسبة الصورية أو العلاقة الحسية والارتباط الظاهري يشترط لها الاتصال الظاهري والقرب الحسي، فبدونها لا تقوم علاقة حسية.

المناسبات الخاصة بين المسيح عليه السلام وبين نبينا ﷺ:

وبعد التفكر يتبين أن ما بين نبينا محمد صليى الله عليه وسلم وبين المسيح بن مريم عليهما السلام من علاقات ومشابهات متنوعة لايوجد فيما بين نبينا وبين سائر الأنبياء عليهم السلام، ومن هذه العلاقات علاقة القرب الزماني وعلاقة القرب المكاني وعلاقة القرب التصويري وعلاقة قرب الأفعال وعلاقة قرب المكانة وعلاقة قرب الشرف، مما يدرَك بكل سهولة فيما يلي:

قرب الزمان:

وإذا فكرنا في قرب الزمان، فعصر المسيح عليه السلام متصل بعصر نبينا صلى الله عليه وسلم، حيث لايتخلل عصر نبيٍّ بينهما، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي[1].

والظاهر أن قرب الزمان واتصال العصر لهما دخل كبير في الاستفادة من الفضائل والكمالات، وكان الصحابة أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم الذين استفادوا مباشرة من النبي صلى الله عليه وسلم، واستناروا بأشعة

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، باب قول الله [واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها]، ج٦، ص١٠، رقم: ٣٤٤٢.

شمس النبوة بلاواسطة، ومن ثم يعرِفُ العالم الإسلامي سمو أخلاقهم وعمق علومهم، فكان عصرهم خير القرون، وصارت طبقتهم خير طبقات المسلمين إلى يوم القيامة، وكذلك كل طبقة اقتربت بالنبي صلى الله عليه وسلم بوجه من الوجوه، يكون لونها أعمق من غيرها.

وبما أن المسيح عليه السلام هو أكثر الأنبياء اتصالا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فعكس الكمالات المحمدية الذي كان بالإمكان انعكاسه على قلب المسيح لم يمكن انعكاسه على القلوب الأخرى بهذه القوة والشمول.

القرب الحسي والتصويري وقرائنه:

وكذلك الاتصال الحسي والقرب الخاص الذي يربط المسيح بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، مما أفاد المسيحَ ظاهرًا وباطنًا، فإن مريم أم المسيح قد حملت بالمسيح وهي عذراء ، وذلك بروح من الله وكلمته، ولم تكن صورة حملها سيئة حيث ذكرها القرآن الكريم بكل تفصيل:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا o فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا o قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا o قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (سورة مريم: ١٦-١٩).

وقد تمثلت هذه الروح لمريم الصديقة في صورة بشر شابٍّ كامل الخلقة، متناسب الأعضاء، معتدل القامة، فإن البشر السوي يطلق على مثل الشاب، الذي لايعتريه نقص وخلل في الأعضاء والقامة، ويحتوي على جميع المحاسن البشرية،

وهذا الشاب السوي هو الذي نفخ في جيب مريم، وهذا النفخ كان بمنزلة إلقاء النطفة، فحملت مريم العذراء، وبقي سؤال: من كان هذا الشاب السوي؟ ومن ذلك البشر السوي الذي تمثل في صورته الملك؟.

وإذا فكرنا في الإجابة عن هذا السؤال، فالشريعة الإسلامية التي تخبرنا أن الهيئة البشرية التي نفخت في مريم كانت مكتملة في التناسب والحسن والأعضاء بشكل لايوجد له نظير، علينا أن نسأل الشريعة نفسها عن تلك الشخصية المكتملة الخلق، هل ولد هذا البشر في هذا العالم أم أنه صورة خيالية، عرضت لمريم العذراء؟

فبعد تدبر النصوص الشرعية يظهر لي – والله أعلم بالصواب وعلمه أتم وأحكم- أنه لم يولد بشر كامل الخلقة، تامُّ الهيئة مثل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وذلك لوجوه:

الأول أن الكمالات الباطنية لنبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- في الإطار البشري بالغة الغاية القصوى، بحيث لايُتصوَّر أفضل منها، والظاهر أن مثل هذه النفس المكتملة تستطيع أن تتمثل في صورة مثلها، فكان من الضروري أن تكون هيئته الجسدية البشرية كاملة بحيث لايتصور أحد أفضل منها، ليتم انصباغ نفس بشرية كاملة، وإن فكَّرنا فالشريعة الإسلامية هي التي تكشف الستار عن ذلك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو: اللهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي، فَأَحْسِنْ خُلُقِي[1].

فالنبي صلى الله عليه وسلم يسأل الله سبحانه الكمالات الباطنية الموافقة للكمالات الظاهرة، ويسأل حسن الأخلاق موافقا لحسن الخلق، وحسن السيرة كما

(١) أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، باب مسندعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ج٤، ص٣٠١، رقم: ٣٨٢٣.

آتاه الله حسن الصورة، وبذلك يتبين أن الله سبحانه قد أودع التناسب المعنوي بقدر التناسب الظاهري، جاء في الحديث: الْتَمِسُوا الْخَيْرَ عِنْدَ حِسَانِ الْوُجُوه[1].

فكأنَّ الظاهر قالب، والباطن مصبوغ فيه، فبقدر وضع القالب تكون الحقيقة مصبوغة فيه.

وهذا الدعاء يشير إلى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم هو أحسن الناس وأكملهم في العالم كله، فإنه يطلب في دعائه محاسن الخَلْق كمحاسن الخُلق، ثم رزقه الله محاسن الأخلاق بشكل لم يؤت أحدًا في الأولين والآخرين، وإنك لعلى خلق عظيم، وقد سأل الرسول عليه السلام الكمال الأخلاقي بقدر ما عنده من كمال جسدي، وهذا دليل على أن الكمال الجسدي الذي أوتي النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤت أحد مثلَه في السابقين واللاحقين، فإن كان رجل يستحق أن يكون بشرًا سويًا، فهو شخصية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء في الحديث عن حسن يوسف ما يلي: إذا هو قد أعطي شطر الحسن[2].

فكان يوسف عليه السلام فريدًا في حسنه، وروي عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " هبط علي جبريل، فقال: يا محمد! إن الله يقرأ عليك السلام، ويقول: يا حبيبي إن كسوتُ حسن يوسف من نور الكرسي، وكسوتُ حسن وجهك من نور عرشى، وما خلقت خلقًا أحسن منك يا محمد"[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، ج٣، ص٤٠٢، رقم: ١٨٤١٦، قال الإمام السيوطي في اللآلئ ج٢،ص٦٨: هذا الحديث في معتقدي حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم، في **صحيحه**، ج١، ص٢١٨، رقم: ٢٥٩.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات، وحكم عليه بالوضع بسبب أبي بكر الأشناني الذي كان يضع الحديث، وكذلك أخرجه السيوطي في اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، وأخرجه الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة في باب فضائل النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد فُضِّل في هذه الرواية حسن النبي صلى الله عليه وسلم على حسن يوسف بقدر فضل العرش على الكرسي، وكانت عائشة الصديقة رضي الله عنها تقول في حسن نبينا: قطَّعت نساء مصر أيديهن بعد ما رأين حسن يوسف، ولكن لو رأين حسن حبيبي لقطَّعن قلوبهن، والثابت تاريخيا أن حسن يوسف أفضل من حسن العالم، والحسن المحمدي أفضل من حسن يوسف.

والنتيجة ظاهرة، وهي أنه لايوجد نظير في العالم للحسن المحمدي، فضلا أن يكون حسن أحد أفضل من حسنه، فقد أخرج الترمذي والبيهقي وابن سعد عن أبي هريرة والبخاري ومسلم عن البراء بن عازب يقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم مربوعا، وقد رأيته في حلة حمراء، ما رأيت شيئا أحسن منه[1].

وكان علي بن أبي طالب وأبو هريرة والصحابة الآخرون يشبهون النبي – صلى الله عليه وسلم- بالقمر تارة، وبالفضة تارة أخرى، وبالشمس تارة، وبالأشياء المنورة الأخرى وكانوا يقولون: لم أر قبله ولا بعده مثله[2].

فقولهم: "لم نر مثله قبله" دليل على أنه لم يوجد حسن مماثل في الأزمنة السابقة، وقولهم: "لم نر مثله بعده" دليل على أنه لم يُخلق حسن مثل حسن نبينا صلى الله عليه وسلم، والظاهر أن هذه الرؤية ليست حسية؛ بل هي رؤية علمية، فكأنهم يدَّعون حسب علمهم أنه لم يوجد في الحاضر والغابر حسين مثله، ولن يوجد في المستقبل، والمعلوم أن علم الصحابة رضي الله عنهم ليس ظنًّا أو خرصًا، بل لابد أن يكون لهم

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، ج٦، ص١٣٠، رقم٥٨٤٨.

(٢) انظر: أخرجه أحمد بن حنبل، في مسنده، ج١، ص١١٠، رقم ٧٤٦، و٩٤٦، ١٠٥٣، وعبد الرزاق ج٥، ص٣١٩، رقم٢٠٤٩٠، وأخرجه الترمذي، في **سننه**، ج٤، ص٤١٥، رقم ٣٦٣٧.

نقل صريح أو استنباط صحيح من صحيح الأخبار والآثار، فحاصل المدعَى أنا نقول حسب العلم الشرعي: إن مثل حسن نبينا في الصورة والهيئة لم يُخْلَق قبل ولا بعد.

وهكذا كان الصحابة يذكرون حسن النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب إيجابي، فكانوا يقولون ما رواه الشيخان البخاري ومسلم عن البراء قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا[1].

وعن عبد الله بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحسن البشر قدمًا[2].

وكل هذه الكلمات التي كان يطلقها الصحابة –رضي الله عنهم- في بيان الحسن النبوي يوضح أن نبينا كان أكمل الناس وأحسنهم في المحاسن الظاهرة، كما كان أحسنهم في المحاسن الباطنة، وهذا هو معنى "بشر سوي"، إن كان ذلك أصلا، فهذا فرعه، وإن كان ذلك أساسًا، فهذا هو المبنى الذي يقوم على ذلك الأساس، ويكون خاضعا له، ومن ذلك تقوم بين الأمة النصرانية وبين الأمة المسيحية علاقةٌ، لم تقم بين الأمم الأخرى في العالم.

حتى إن فيلسوف الإسلام الشهير والحكيم بو علي بن سينا قال بعد الاطلاع على مثل هذه الروايات: لم يُخْلق في العالم بشرٌ –كالنبي محمد- في اعتدال المزاج وكمال القُوَى وتمام الأعضاء.

وكل هذه الشواهد تدل على أن الشريعة التي أخبرتنا بأن مريم العذراء لما انتبذت مكانًا شرقيا، تمثل لها الملك بشرا سويا، هي التي تخبرنا بأن ذلك البشر السوي الذي لايوجد له نظير في العالم هو شخصية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد

---

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، ج٣، ص١١٠، رقم٣٣٥٦، ومسلم في صحيحه، ج٤، ص١١٨، رقم٢٣٣٧.

(٢) أخرجه المتقي الهندي في **كنز العمال**، رقم١٧٨١٢.

التفكر في جميع النتائج توصلنا إلى أن ذلك البشر السوي الذي تمثل له الملك جبريل هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، مما ينتج أن جبريل تمثل لمريم العذراء في صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان شبيه نبينا محمد بمنزلة زوج مريم ووالد المسيح، والله أعلم.

ولكن كان هذا الرأي لحد الآن قياسًا ووجدانا في عقل هذا الكاتب، وكنت لا ألتفت إلى هذا الرأي لكونه رأيا مغلوبا لقليل العلم والعمل، وكنت لا أجترئ على تسجيل هذا الرأي؛ ولكن بعد ما رأيت أن بعض العلماء المتعمقين في العلم مالوا إلى هذا الرأي، فوجدت لهذا الرأي نوعا من الصحة والقوة؛ وكتبت ما كتبت، ولكن هذا نوع من اللطائف العلمية فحسب.

إن ما قاله الشيخ عبد الغني النابلسي في تفسير آيةٍ في الإنجيل يسلط ضوءا كافيا على هذا الموضوع، ويدل على أن الإنجيل أيضا مشير إلى نفس النتيجة.

ويقول العلامة الآلوسي صاحب روح المعاني: إن بداية الإنجيل مأخوذة من رواية متى، التي جاءت فيها وصية المسيح عليه السلام، ونص هذه الوصية: "بسم الأب والابن وروح القدس"، وبغض النظر عن تفسيرات علماء النصارى فإن تفسيرات علماء الإسلام التي تحتوي على عبودية المسيح صالحة لأن تتقبلها كل طبيعة باحثة عن الحقيقة.

فالشيخ عبد الغني النابلسي قدس سره ألف رسالة مستقلة لبيان الفرق بين بسملة الإنجيل وبسملة القرآن، وسماها بـكشف الغين عن الفرق بين البسملتين، وفسر فيها آية الإنجيل بما يلي:

"فالأب إشارة إلى الروح الذي هو أول مخلوق الله تعالى كما في الخبروهو المسمى بالعقل والقلم والحقيقة المحمدية، ويضاف إلى الله فيقال: روح الله للتشريف والتعظيم كناقة الله؛ وروح القدس إشارة إليه أيضا باعتبار ظهوره بصورة البشر السوي النافخ في درع مريم عليها السلام؛ والابن إشارة إلى عيسى عليه السلام وهو ابن لذلك الروح باعتبار أن تكوُّنه بسبب نفخه"(1).

واتضح بهذا التفسير أن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم له دخل كأب في تكوُّن المسيح، ثم إن قولي لايتجاوز الدعوى بأن شبيه محمد نبينا بمنزلة والد المسيح، حيث تمثل جبريل لمريم في صورة نبينا؛ ولكن كلام الشيخ يتجاوز هذا الحد؛ فيقول: إن التمثل لم يكن لشبيه محمد بل للحقيقة المحمدية، التي صارت سببا لحمل مريم بالمسيح.

وعلى كل فإن بسملة الإنجيل وتفسير الشيخ النابلسي ومذهب الجمهور تفيد في الجملة أن الحقيقة التي نفخت في جيب مريم العذراء كانت لابسة لباس الصورة المحمدية، سواء كانت الحقيقة هي الحقيقة المحمدية كما ذهب إليه الشيخ، أو كان جبريل، كما هو مذهب الجمهور، إلا أن دعواي تبقى صافية في كلتا الصورتين، فإن شبيه نبينا محمد هو الذي نفخ في مريم، فحملت بالمسيح.

هذا إلى أنَّا إذا أعملنا التفكير وجدنا أنه لايوجد تعارض بين مذهب الجمهور ومذهب الشيخ النابلسي، فإنه من الإمكان أن يتمثل جبريل لمريم في صورة تشبه نبينا محمدًا؛ ولكن تكون هذه الصورة مستنيرة بالحقيقة المحمدية، ليكون القول بشبيه محمد قولًا هادفًا، وتكون الحقيقة المسيحية أقرب إلى الحقيقة المحمدية، والسر

---

(1) الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، **روح المعاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ)، ج3، ص208، تحت قوله تعالى: ولا تقولوا ثلاثة.

في ذلك أن الأمة المسيحية تتلوها الأمة المحمدية، فكأن الأمة المسيحية تمهيد لظهور الأمة المحمدية، التي كان من مهامها الكشف عن الغرض الحقيقي لخلق الإنسان والكون، كما جاء في بشارة عيسى عليه السلام مما ذكره القرآن الكريم بلفظه: **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** (سورة الصف: ٦).

فكان من المناسب أن تطَّلِع الأمة النصرانية على حقيقة نبي الإسلام، حتى تكون الأمة النصرانية قريبة إلى الصبغة المحمدية، وتكون صالحة لقبول الدعوة الإسلامية، وهكذا تم إطلاق كلمة الحقيقة المحمدية على جبريل، الذي كان في ذلك الوقت مصبوغا بالصبغة المحمدية، ومتمثلا في صورته، والظاهر أنه بعد هذا التطبيق لايبقى تعارض بين مذهب الجمهور وبين مذهب الشيخ النابلسي، وبذلك لايكون كلامي مخالفًا للجمهور؛ بل ياتي مؤيَّدا بكلام الشيخ النابلسي رحمه الله.

القرائن الدالة على فرعية عيسى بن مريم عليه السلام وجهات المناسبة والتشابه بينه وبين نبي الإسلام:

وعلى كل فقد ثبتت دعواي بمذاهب العلماء والحكماء والفلاسفة وبآية في الإنجيل وبعدد من النصوص الشرعية التي سأذكرها قريبًا، وتتجاوز هذه الدعوى مرحلة التخيل والوجدان إلى مرحلة الدعوى الشرعية، التي تقول: إن الشبيه المبارك والبشر السوي الذي تمثل فيه جبريل ونفخ في جيب مريم كان شبيه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وبهذا يتجلى بشكل واضح أن مريم عليها السلام كانت بمنزلة زوجة هذا الشبيه، فقد حملت بسببه، وربما هذا هو السبب وراء كون مريم عليها السلام زوجة النبي عليه السلام في الجنة، فكانت في الدنيا أيضا بمنزلة الزوجة أمام شبيه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والله أعلم، وعلمه أتم وأحكم.

فقد جاء في المعجم للطبراني ومسند أبي يعلى حديث طويل، جاء فيه: عَنْ سَعْدِ بن جُنَادَةَ ، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللهَ زَوَّجَنِي فِي الْجَنَّةِ مَرْيَمَ بنتَ عِمْرَانَ ، وَامْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ، وَأُخْتَ مُوسَى[1].

ولما اتضح أن مريم عليها السلام حملت بذلك الشبيه، وصارت بمنزلة زوجته، حتى كانت زوجة حقيقية لنبينا في الجنة، فهل بعد هذا كله تبقى شبهة في أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان بمنزلة والد المسيح عليه السلام، وكان المسيح بن مريم بمنزلة ابنه، وإذا كانت الصورة المحمدية لها دخل في ولادة المسيح فليس من البعيد أن نقول: إن المسيح كان بمنزلة الأولاد.

فكان من الصواب المعقول أن يظهر المسيح بن مريم بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ليكون عقبه، كما يأتي الابن بعد أبيه في الدنيا، ومن ثم رُفع المسيح حيا إلى السماء بعد قضاء نحو نصف عمره، وسوف ينزل قرب الساعة كرجل من الأمة المحمدية، لتظهر نشأته الصورية بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لتكون بمنزلة ابنه[2].

ففي نشأة المسيح الأولى كان ظهور النبي في صورة البشر مثالًا، وولادة المسيح حقيقةً، إلا أن المسيح في نشأته الثانية كان ظهور النبي حقيقيا، حيث قد سبق ظهوره، ونزول المسيح يكون بمنزلة ولادة مجازية، تتمثل في نزوله من السماء، وبذلك يتبين أن ظهور المسيح بن مريم عليه السلام من ثمار ظهور نبينا، وهو فرع

---

(١) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى : ٣٦٠هـ)، في **المعجم الكبير**، ج٣، ص٣١٥، رقم: ٥٣٥٣.

(٢) إن ما سجله الشيخ هنا هو في الواقع لطيفة علمية، وليس جزءا من العقيدة الإسلامية.

لنبينا محمد، مما يوضح أن المسيح بن مريم عليه السلام يسعد بكونه فرعَ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إضافةً إلى البنوة الروحية التي يشارك فيها جميع الأنبياء، حيث يستفيدون من فضائل ومحاسن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وسوف أتناول بعض جهات التشابه والتشارك بين نبينا والمسيح بن مريم عليهما السلام في السطور التالية:

القرينة الأولى: شأن الخاتمية

من ثمار هذا الفرع أن آثار المسيح وأحواله ومعجزاته وكراماته تشبه إلى حد كبير أحوال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن كان نبينا صلى الله عليه وسلم أوتي من فضائل النبوة أعظمها، حيث جُعل خاتم النبيين، فكان المسيح بن مريم عليهما السلام نال شيئًا من هذا النوع من العظمة، فكان خاتم أنبياء بني إسرائيل، قد وُلد رسولنا في أولاد إسماعيل، فكان خاتم جميع الأنبياء، وولد المسيح في أولاد إسرائيل بن إسحاق، فكان خاتم أنبياء بني إسرائيل، وبذلك قام نوع من التشابه بينهما في منصب ختم النبوة، وهذا كما قيل: الولد سِرٌّ لأبيه.

القرينة الثانية: الشعبية والقبول

ولما كانت الخاتمية منصبًا عظيمًا يجمع بين الصفات الحميدة كلها، فكان من الضروري أن يحظى صاحبها بشعبية طيبة، وتسعد رسالاته بقبول عام في الدنيا كلها، وانطلاقا من هذا فقد وعد الله سبحانه الأمةَ المحمدية بأنها ستنتشر في العالم كله، ودينها يدخل كل بيت مدر ووبر بعز عزيز أو ذل ذليل، هكذا ورد في الآثار فيما يتعلق بخاتم بني إسرائيل أن الأمة النصرانية ستقود العالم كله قبل خروج المسيح الدجال، وهذا -كما يبدو- من آثار ختم النبوة العالمية.

القرينة الثالثة: غلبة الرحمة

كما كان من الضروري أن يتمتع خاتم الأنبياء بمنزلة عالية من الأخلاق، وهي ملكة الرحمة، فإنها بدونها لاتنشأ شعبية عامة ومحبوبية تامة، فإن مهمة ختم النبوة تتوقف عليها، (وقد خلق الله سبحانه هذا العالم برحمته التي وسعت كل شيء، ثم استوى على عرشه) وآتاها الله سبحانه كلا من خاتم جميع الأنبياء وخاتم بني إسرائيل، فقد وصف نبيَّنا بقوله تعالى: **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ** (سورة آل عمران: ١٥٩).

وهكذا وصف الله سبحانه المسيح بن مريم حيث قال: **وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا** (سورة مريم: ٢١).

وهكذا تماما وصف اللهُ سبحانه صحابة كلا النبيَّين بالرحمة، فقال في صحابة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: **رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** (سورة الفتح: ٢٩)، وقال في حواريي المسيح بن مريم: **وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً** (سورة الحديد: ٢٧).

وهكذا وصف تعالى صحابةَ الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواضع وعدم الاستكبار، فقال: **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** (سورة المائدة: ٥٤)، كما وصف بنفس الصفة حواريي المسيح فقال: **ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** (سورة المائدة: ٨٢).

القرينة الرابعة: العبودية

والظاهر أن الرأفة والرحمة والتذلل لله عبودية محضة، وهي من أفضل الكمالات البشرية مكانة، ولما كانت صفة الرحمة قد أوتيها خاتم الأنبياء كافةً وخاتم أنبياء بني إسرائيل، وهذا يقتضي طبعًا أنهما قد أوتيا العبودية الكاملة مع ما بينهما من

تفاوتٍ في نوعية العبودية، كما تفاوت معنى الخاتمية لديهما، إلا أنهما كانا على عبودية كاملة لله سبحانه؛ حيث وصفهما الله تعالى في القرآن الكريم بصفة العبد بشكل متميز؛ مع أن الناس كلهم عباد الله، فقد وصف الله رسولنا محمدا بهذه الصفة فقال: **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** (سورة الإسراء: ١)، وقال في موضع آخر: **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** (سورة الجن: ١٩).

وقد وصف الله تعالى المسيح بن مريم بهذا الوصف مرتين في القرآن الكريم، فقال في موضع على لسانه: **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** (سورة مريم: ٣٠)، وقال في موضع: **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا** (سورة النساء: ١٧٢).

وعلى كل فإن كان المسيح بن مريم يشبه نبينا في وصف الخاتمية إلى حدما، فهو كذلك يشبهه في أخلاق الخاتمية ومقاماتها، مما يوضح أنه بين المسيح بن مريم ونبينا محمد عليهما السلام مناسبة تامة خَلقا وخُلُقا ومكانةً، كما تكون بين الشريكين في شيء أو بين الأب والابن.

القرينة الخامسة: العصمة والبراءة

ومن ثم نرى أن المسيح بن مريم عليهما السلام أشبه في معصوميته بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الحاجة إلى العصمة ظاهرة لاجتناب المعاصي،

وسبب المعاصي اثنان: النفس والشيطان، فكأن أحد العدويَّين داخلي، والآخر خارجي، ولتفادي كلا العَدُوَّيْن يؤتي الله الأنبياء والمرسلين مقام العصمة، فالعصمة من الأهواء النفسانية أنهم معصومون عن الصغائر فضلا عن الكبائر، والعصمة من الآثار الشيطانية تتمثل في أنهم لايؤثر فيهم عمل شيطاني فضلا عن الإغواء والإزلال، فكان رسولنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على مرتبة عالية من هذا النوعين، فإن كان يشبه نبيَّنا أحدٌ في العصمة إلى هذه الدرجة، فهو المسيح بن مريم عليه السلام، فله مناسبة خاصة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم لما بينهما من نسبة الأصل والفرع.

إن من شواهد التقدس والعصمة لدى هذين النبيين الجليلين- عليهما السلام- أن كل نبي- عليه السلام- يجري على لسانه "نفسي نفسي" يوم القيامة، ويذكرون ما صدر عنهم من زلة؛ لكن هذين الخاتمين سيكونان مبرأين تماما من الزلات، وعندما كانت الأسرة الآدمية تحتاج في أهوال يوم القيامة إلى شفاعة الأنبياء عليهم السلام، فكل نبي يعتذر نظرًا إلى ما صدر عنه من زلات ظاهرة، يكون نبينا خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم مستعدًّا للشفاعة الكبرى، فلم تصدر عنه زلة، تحول دون هذه الشفاعة، وقد يظهر مثل هذا الشأن لخاتم أنبياء بني إسرائيل: المسيح بن مريم، فإنه لاينكر الشفاعة لكونه قد صدرت عنه زلة؛ بل هو ينكر قائلًا: إن أمتي اتخذتني وأمي إلهين من دون الله، فأستحيي من المثول بين يدي الله، وأخاف من أن يسألني الله: أأنت الذي اتُّخذتَ إلهًا من دوني، وكفؤًا لألوهيتي؟ فإني إذًا أتصبب عرقًا، ولا أستطيع أن يتحرك جفني ولا لساني، فحاصل هذه المعذرة ليس

خطأ صادرًا كما ذكره الأنبياء الآخرون، بل هي تتضمن شكوى سلوك غير مرضي للقوم، حيث جعلوني غير صالح للشفاعة، فكيف أكون شفيعا اليوم، وبأي لسان أنطق بكلمة الشفاعة في الجناب الإلهي لا سيما لهؤلاء القوم الأشقياء؟

فالمسيح بن مريم كان في عصمته وبراءته أشبه بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا كان من مقتضى منصب الخاتمية، الذي أوتياه، وكان كل منهما معصومين عن الخطأ والزلة.

ومن جانب آخر، فالعصمة تتمثل في العصمة من الشيطان الرجيم، وكان المسيح بن مريم في هذا الوصف أيضا كامل المشابهة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الحديث النبوي يفيد أن الشيطان يمس كل مولود بالشر والضرر، فيبكي الطفل، ولايخلو من هذا حتى الأنبياء؛ ولكن الله سبحانه نزَّه كلا من المسيح بن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين على الإطلاق من المس الشيطاني، فقد جاء في الحديث النبوي عن ولادة المسيح بن مريم ما أخرجه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ [وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ][1].

أما ولادة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "ما منكم من أحد

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، ج٢، ص٢١٥، رقم: ٣٤٣١.

إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا وإياك؟ يا رسول الله قال وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير"[1].

فقد أفاد الحديث الأول أن الشياطين لم يستطيعوا أن يمسُّوا المسيح بن مريم بسوء، بينما الحديث الثاني أفاد أن الشيطان هو الآخر قد تأثر بنبينا، فضلًا عن إصابته بسوء، فيعمل بخير ويأمر بخير، فاشترك المسيح بن مريم ونبينا محمد في أن الشيطان لم يمسهما بسوء؛ ولكن ثبت فضل نبينا محمد على المسيح بن مريم بأن الشيطان لم يتأثر بالمسيح؛ ولكنه تأثر بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولاشك أن هذا الفرق ناشئ عن التفاضل بينهما في الشرف والمكانة؛ ولكن بسبب منصب الخاتمية وقاهما الله شر الشياطين، ولم يتيسر ذلك لغيرهما من الأنبياء عليهم السلام، فثبت بذلك نوع مشابهة بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبين المسيح بن مريم.

القرينة السادسة: العلم والمعرفة

ومن المناسب أن نفكر في الكمالات العلمية بعد العصمة والبراءة فنجد فيها مناسبة قوية أيضا بين هذين النبيَّين؛ حيث إن ما يخرج من إحدى مشكاة النبوة يظهر من مشكاة النبوة الأخرى، كما يظهر في حديثهما مع الله سبحانه يوم القيامة، حيث ينطقان بكلمات متشابهة؛ فإن الله تعالى عند ما يسأل المسيح بن مريم: أأنت الذي أمرت الناس بأن يتخذوك وأمك إلهين من دون الله، يجيب قائلا: **سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ٥ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ**

(١) أخرجه مسلم، في **صحيحه**، ج٢، ص٤١٨، رقم: ٢٨١٤.

اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ○ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (سورة المائدة: ١١٦ – ١١٨).

وهكذا عند ما يَرى نبيُّنا محمدٌ أناسًا من أمته، يُساقون إلى سوء العاقبة يوم القيامة يقول: أصحابي أصحابي، فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، يقول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مثل ما قال المسيح بن مريم: **وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ○ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (سورة المائدة: ١١٧–١١٨).

والحديث بكامله أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ثم قرأ [**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**] وأول من يُكْسَى يوم القيامة إبراهيم وإن أناسًا (ناسا) من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي أصحابي، فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح [**وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي**] إلى قوله [**الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**][1].

القرينة السابعة: نوعية الهجرة والجهاد

ومن ثم نرى أن رسولنا صلى الله عليه وسلم لم يؤذن له بالجهاد في حياته المكية الممتدة نحو ١٣ عامًا، والتي واجه فيها الرسول وأصحابه صنوفًا من العذاب

---

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، رقم ٣٣٤٩

وألوانًا من الأذى، وذلك ليكون الرسول صلى الله عليه وسلم مظهرا كاملا للجمال، وكان مأمورًا بالصفح الجميل والصبر على المكاره، فكان عبارةً عن العفو والصفح والرحمة والألفة، فلم ينطق بكلمة شديدة فضلا عن الدفاع بالسلاح والأيدي، حتى أنه مع تصاعد التعذيب والعناد من قبل المشركين أُمر هو وأصحابُه بالهجرة من مكة؛ ولكن لم يؤذنوا بالدفاع والقتال؛ ولكن لما عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة يوم فتح مكة، وقد استقرت دعوته واستتب أمرها، وتفتحت لها العقول والقلوب، أمره الله سبحانه أن يكون مظهر الجلال والجمال معًا، ففي يده سيف، يصحبه الرعب والهيبة، ويخاطب أهل مكة الذين لم يألوا جهدًا في تعذيبه وتعنيفه، ويخاطبهم بأسلوب الفاتح: إما الإسلام وإما السيف، ولم توضع الجزية بين القتال والإسلام في أرض الحجاز، التي أخرجت عاصمتُها مكةُ الرسولَ وأصحابه، فلم يكن لهم إلا خياران: إما أن يسلموا وإما أن يخرجوا للقتال، فالجزية والذمَّيَّةُ إنما هما لغير الحجازيين، الذين لم يرتكبوا معصية إخراج الرسول، فكانت حياة الرسول البدائية جمالًا محضًا، وحياته النهائية كمالًا محضا، وجُمع بين الجلال والجمال، لتشاهد الدنيا في حياته صلى الله عليه وسلم كلًّا من شأن الجمال وشأن الجلال.

وكذلك تمامًا نجد خاتم أنبياء بني إسرائيل: المسيح بن مريم؛ حيث حياته البدائية –وهي قبل رفعته إلى السماء– مظهر الجمال الخالص، حتى يؤمر بأنه إن ضرب أحدٌ إحدى صفحتي وجهك فقدِّم له الأخرى، أي حياةٌ كلها العفو والصفح، والحلم والصبر، لا عنف ولا ثأر، يريد اليهودُ المغضوب عليهم أن يصلبوه، فيحبسونه في مكان؛ لكن الرسول الجليل عليه السلام لم يتناولهم بأدنى دفاع، بل يصبر ويحتسب، أجل! تتجلى الغيرة الإلهية، فترفع نبي الله من الأرض إلى

السماء حيًا، ولم يمسه سوءٌ، فيرجع أعداءُ الله خائبين محسورين، ولكن الله تعالى يعيده من السماء إلى الأرض بقوة عظيمة، وحياته منقلبة من الجمال إلى الجلال، ويخوض معركة عالمية عظيمة مع الدجال الذي يكون قد أفسد العالم كله و ألقى الناس في أشد الفتن، فيخوض المسيح بن مريم معه في حرب عظيمة، مدججة بالسلاح، ولايكون الخيار سوى الإسلام والقتال، ولا مجال للجزية، إما الإسلام وإما القتل لتتطهر الأرض من وجود هؤلاء الأشرار.

فحياة المسيح بن مريم عليه السلام كانت في البداية تشبه حياة سيدنا محمد المصطفى البدائية صلى الله عليه وسلم، وحياته النهائية كحياة نبينا النهائية، فتجلى في حياة كليهما شأن الجمال وشأن الجلال بشكل كامل وفي وقت مناسب.

فالخلاصة أنه إذا كانت الهجرة فُرضت على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد فُرضت على المسيح بن مريم، إن كان في مكة من ذرية إسماعيل من ارتكبوا جريمة إخراج الرسول من مكة، فحرموا نعمة الجزية، وملئت أرض الحجاز بالإسلام أو طُهِّرت من المشركين فكذلك كان في بني إسرائيل الذين كان لهم فضل على العالمين آنذاك من أكرهوا المسيح بن مريم على ترك هذه الدنيا، فيعود المسيح بن مريم ليحرموا المشركين كلهم نعمة الجزية، وسيملأ الأرض كلها بالإسلام والعدل، ويطهرها من المشركين.

الحاصل أن الحياة النبوية قبل الهجرة كما نشاهدها في أرض الحجاز نرى مثلها في أرض الشام الخصيبة، وكما أن العودة إلى مكة كانت لنبينا بعد الهجرة قوية ذات شوكة وسطوة، كذلك سوف تكون عودة المسيح بن مريم عليه السلام من السماء إلى الأرض عودة قوية، يصحبها كل من الشوكة والقوة والهيبة.

وكما أن نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يقبل من قومه بني إسماعيل الجزية كذلك لن يقبل المسيح بن مريم من قومه بني إسرائيل الجزية.

والحاصل أن هناك مشابهة قوية بين حياة المسيح بن مريم وحياة نبينا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم في مراحل الحياة وتنفيذ الأحكام، كمشابهة بين الأب والابن.

ولاية العهد للمسيح:

والمعلوم أن الابن يكون ولي العهد لأبيه، فيخلفه في مهمات الأمور، ويدافع عن دولته ومواقفه كل الدفاع، ولا يتهيأ منصب ولي العهد لغير الابن، ونرى مثل هذا في حياة خاتم الأنبياء محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم، فعندما يخرج الدجال ليعيث في الأرض فسادا، يأتي المسيح ابن مريم هابطًا من السماء إلى الأرض، ليدافع عن الدين الإسلامي، ويحمي المسلمين من فتنة المسيح الدجال، كأنه ابنه وشبيهه، فإن له مشابهة في كثير من مراحل الحياة المختلفة.

ونظرًا إلى هذا كله يمكن لنا أن نقول: إن شخصية المسيح بن مريم عليه السلام هو أكثر شخصيات الأنبياء شبهًا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فهو سيقوم بتفنيد جميع مكائد الدجال، والقضاء النهائي الأخير على كل ما لايمت إلى الإسلام بصلة، ويجدد الدين بشكل غير مسبوق، فكما أن المسيح بن مريم كان آخر المجددين للتوراة، كذلك كان آخر الشارحين والعارفين لمعاني القرآن، وبفضل المشابهة بينه وبين رسولنا صلى الله عليه وسلم يفوَّض إليه منصب تجديد الدين الإسلامي، كما كان مجددًا للدين المسيحي، وكان المسيح عليه السلام خاتم أنبياء بني إسرائيل، وبعد

دخوله في عهد النبوة المحمدية سيكون خاتم المجددين للعالم كله، وبهذه الخصوصية يستطيع المسيح بن مريم عليهما السلام أن يقضي على جميع مكائد الدجال ومصائده الشيطانية، ويقتله شر قتلة، فيجعله عبرةً ونكالًا.

وكما أن الأب يستقبل ابنه الذي يرجع بعد أداء مهمته بكل حب وشفقة، ولايرى مفارقته بحال، فكذلك المسيح بن مريم عليهما السلام يستقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره بعد أداء مهمته المتمثلة في إظهار الدين الإسلامي على الأديان كلها، ولايترك شيئا من آثار الدين غير الإسلام، ويوفق لقتل الدجال، ثم يجرع كأس الموت يستقبله رسولنا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم في روضته، حيث ينام هو في جنب الرسول في موضع خاص له، وقد تُرك له ذلك المكان، كأن الرسول صلى الله عليه وسلم يحتضن شبيهه وخليفته الذي أدى مهمته بنجاح، ولايرضى بفراقه منذ ذلك الوقت إلى قيام الساعة؛ بل إلى أبد الآباد.

منزلة إكمال العبادة:

وكما أن رسولنا صلى الله عليه وسلم بُعِثَ مبلغًا للدين الإسلامي، وداعيا إلى الله بإذنه، وهذا الغرض لم يكن ليكتمل إلا بصورتين: الأولى أن يكون الإكمال من حيث القوة الباطنية والكيفية القلبية، وإن قل عدد المسلمين، والثانية أن يكون الإكمال من حيث الكمية والعدد، ولايبقي في العالم رجل كافر.

والظاهر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتم في حياته الإظهار الكيفي للدين، فعدد الذين أسلموا في حياته صلى الله عليه وسلم بلغ إلى نحو مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نسمة، وهذا عدد قليل بالنسبة إلى سكان العالم؛ ولكن جماعة الصحابة هذه كانت في قوتها الباطنة وكيفيتها القلبية جماعة عظيمة، لاتدانيها جماعة

أخرى في العالم، بل بركات هذه الجماعة هي التي تنقسم حتى اليوم، فقد صبغ الرسول المصطفى قلوبهم صبغة جعلت كل فرد منهم أمة بأسرها، وتفوق كيفية أعمالهم كمية أعمال العالم كله، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تسبوا أصحابي؛ فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه[1].

فيمكن أن أقول: إن رسولنا صلى الله عليه وسلم قد أتم الدين في حياته من حيث الكيفية، أما الإكمال من حيث الكمية بحيث ينتشر الإسلام في العالم كله ويدخل كل بيت مدر ووبر فهذه المهمة تم تفويضها إلى المسيح بن مريم عليهما السلام، فهو سينزل من السماء إلى الأرض وينجز هذه المهمة بإذن الله، كما صرح به عدد من الأحاديث النبوية الصحيحة، ففي مسند أحمد من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: "لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخل عليهم كلمة الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، أو يذلهم فيدينون لها[2].

فمنصب إظهار الدين الذي أُسند إلى نبينا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم أسند نفسه إلى رسول الله وكلمته: المسيح بن مريم عليهما السلام، نعم! هناك فرق بين الصورة والحقيقة، فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم حقيقة مطهرة، فأسند إليه منصب إظهار الدين بصورة حقيقية، لادخل فيها للكمية، وبما أن المسيح بن مريم عليهما السلام صورة مطهرة، فأسند إليه مهمة إظهار الدين بشكل صوري

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، ج٣، ص٤١٥، رقم: ٣٦٧٣

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل، في **مسنده**، ج٤، ص١٢، رقم: ٢٣٨١٤.

وحسي، لاتوجد فيها حقيقة القرن الأول، وإن كانت له نفس النوعية، وبما أن الكمية تقوم على الكيفية، وإنما الكمية تُظهر الكيفية، فإظهارالدين من قبل المسيح بن مريم عليه السلام ليس إلا فيضا من فيوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

التشابه في أمارة الساعة:

قد اعتُبِر نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم نفسه من أمارات الساعة، فقال: بُعِثتُ أنا والساعة كهاتين[1].

كذلك عُدَّ المسيح بن مريم عليهما السلام من أمارات الساعة، فقال الله تعالى: **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** (سورة الزخرف:٦١).

فكون المسيح بن مريم عليهما السلام أمارةً من أمارات الساعة فيضٌ من فيوض نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولذلك سوف ينزل المسيح بن مريم كأمارة كبرى للساعة.

كيفية البشارة:

ثم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم يبشر بنزول المسيح بن مريم بكل حب وشفقة، ويذكر ما له من دور في إحياء الدين وتجديده، حيث يقول: "كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى ابن مريم في آخرها والمهدى من أهل بيتى في وسطها"[2].

وكذلك نجد المسيح بن مريم يذكر هدف بعثته، فيقول: بُعِثْتُ مصدقًا للتوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعدي، اسمه أحمد، كما جاء في القرآن: **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ**

---

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، ج٥، ص ٣١٨، رقم ٦٥٠٤.

(٢) المتقي الهندي، **كنز العمال**، رقم٩٦٧.

مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ (سورة الصف:٦).

وبما أن الصورة المحمدية هي التي كانت تمثلت بشرًا سويًا أمام مريم العذراء البتول، فحملت بالمسيح بن مريم، فكأن المسيح من هذه الحيثية هو الابن التمثيلي لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقامت له مناسبة خاصة بنبينا محمد المصطفى، وأوتي من الخصائص ما لم يؤت غيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام، منها:

١ - منصب ختم النبوة بالنسبة إلى بني إسرائيل

٢- الشعبية والقبول العام

٣- مقام العبودية

٤- غلبة الرحمة

٥- شان البراءة والعصمة

٦- كثرة العلم والمعرفة

٧- نوعية الهجرة والجهاد

٨- منصب إكمال الدين

٩- منزلة التبشير بمبعث المصطفى

١٠- أمارة الساعة.

ومن هنا نقول: إن للمسيح بن مريم مناسبة تامة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ثم قد علق الرسول صلى الله عليه وسلم النجاة على الإيمان بالمسيح بن مريم، مع أن الإيمان بجميع الأنبياء جزءٌ من الإيمان؛ ولكن ذكر المسيح بشكل مخصوص، كما جاء في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن

النبي صلى الله عليه وسلم قال: من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل[1].

الحاصل أن المسيح بن مريم هو شبيه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقامت له خصائص طبيعية، وللمناسبة الصورية بينهما ظهرت من المسيح كمالات صورية.

الإنجازات الحضارية المعاصرة هي من فيض نبينا ﷺ:

فما صدر من المسيح بن مريم من المعجزات التي تتمثل في إحياء الأجسام نحو إحياء الموتى، وإحياء الصور نحو صنع هيئة الطير وتزيين الأشكال نحو إبراء الأكمه والأبرص وتشكيل الأخبار نحو إخبار الناس بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، وتجميل الأبدان نحو إبراء المصابين بالأمراض المستعصية وتصوير الغيبيات نحو إبداء المائدة في السماء؛ كل ذلك كمالات صورية، يتجلى فيها إبراز الجسم والصورة، وإعداد النماذج والأمثال، وفي تعبير آخر: إن معجزات المسيح بن مريم تدور حول الظواهر الكونية، فكأن الإطار الإعجازي للمسيح بن مريم ينحصر في المادة والجسم أو العالم المادي، فإن إيجاده يتوقف على القوة التصويرية، فالجمال الإعجازي للمسيح بن مريم ينتهي على الصورة، والظاهر أن الصورة تتعلق بالأجسام لاغير، فالإعجاز المسيحي يتعلق أساسًا بالصورة والجسم.

وبما أن المسيح بن مريم قد قام بتربية أمته من خلال عقليته التصويرية، فقد انتقلت هذه العقلية التصويرية إلى أمة المسيح: النصارى، مما أنشأ في قلوب النصارى عاطفة الميل إلى التصوير وإظهار الهيئة وإيجاد الأشكال وتزيين الهيئات وإحياء الصور،

---

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، ج٣، ص١١٨، رقم:٣٤٣٥.

فهم مولعون بحب الصور والأشكال والإظهار والتصنع، كأن هذه الأمة حُرمت كليًا من معرفة الحقائق والبواطن، وفهم الخفايا وإدراك الغيبيات، فإن كان النصارى لايستطيعون نفخ الروح كالمسيح بن مريم، فهم يستطيعون تحريك الآلات الكبيرة بمساعدة البواخر والبترول والغاز والكهرباء، فإن كانوا لايستطيعون أن يصنعوا كهيئة الطير ويجعلوها تطير، فهم استطاعوا أن يصنعوا الطيور بالمعادن ويجعلها تتحرك بالزنبرك (Spring)، فلهم نفس الذوق واللون، وإن فقدوا معرفة المسيح بن مريم، ولما علمنا أن حب الصور قد أُودِع أمة النصارى بسبب العقلية التصويرية التي تمتع بها المسيح بن مريم، وهذا هو الآخر كان بسبب الفيض المحمدي كما مر سابقا فلا أبالغ إن قلت: إن الكمالات التصويرية والإيجادية التي يتمتع بها النصارى اليوم هي الأخرى من الفيض المحمدي، الذي بسببه ظهر المسيح بن مريم، ثم نشأت أمة نصرانية، وصارت جديرة باستعمال الظواهر المادية وتسخيرها، فكل ذلك من فيوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه ببركة نبينا عرفت الدنيا العلم والمعرفة، وبفضله عرفت معارف القرآن والسنة؛ مما يدل على أن التقويم العقلي للأمة المسيحية وما اخترعته من معطيات وتسهيلات حضارية يرجع فضله إلى نبينا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم، نعم! قد حدثت العقلية التصويرية بمشابهة النبي صلى الله عليه وسلم، وظهرت هذه الكمالات بالكمالات العلمية لنبينا محمد المصطفى، التي تتمثل في علوم القرآن، فبداية هذه الأمة ونهايتها كل ذلك جاء من فضل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

المقارنة الروحية والمادية بين الأمة المسلمة والأمم المسيحية:

وإذا كان الأمر كذلك فما هي الأمة التي تكون أجدر بالكمال الصوري والمادي من الأمة المسيحية؟ كان من الضروري أن تظهر على يديها العجائب المادية

والاكتشافات العلمية، وتكون أسبق الأمم إلى الاكتشافات، فلم يكن مستبعدا ظهور مثل هذه العجائبات بفضل الصورة المحمدية.

كما أنها لم تكن في الدنيا أمة أجدر بالمناقشات العلمية والكشف عن اللطائف والمعاني المستورة من الأمة المسلمة، فكان من الضروري أن تفيض هذه المعاني الدقيقة ولطائف الأسرار الغيبية على قلب ولسان هذه الأمة، وتفوق كل أمة في العالم في الجانب الروحي، فهذا هو المأمول من بركة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

والحاصل أن تشكيل الأمة الأولى تمَّ بالصورة المحمدية، وتشكيل الأمة الأخرى تمَّ بالحقيقة المحمدية، ومن ثم تقدمت الأمة المحمدية نحو مدارج الروحانية، وتقدَّمت الأمة النصرانية نحو مدارج المادية، فكانت واحدة محور الشعائر المادية بينما كانت الثانية محور الشعائر الروحانية، فإن دخلتَ مساكن الأمة المحمدية المحبة للحقيقة وجدتَ من بعيد منارات المساجد، وأبراج الخانقاهات، وقباب الضرائح، وهي شعائر الروحانية، وإن دخلتَ مساكن الأمة النصرانية المحبة للصورة دون الحقيقة وجدتَ مداخن المصانع، ومنارات منازل الساعة، وأعمدة الأسلاك والراديو وقباب المستشفيات، ومباني السينما الناطحة للسحاب، ومباني المتاحف الفخمة، وتماثيل الشخصيات الشهيرة، وهي شعائر المادية أو الحياة المترفة أو التعمق السكني.

فإن كان هنا ألوف من الناس يجتمعون في الخانقاهات لمشاهدة الحقيقة، فيجتمع هناك في دور السينما والمتاحف أيضا الألوف لمشاهدة الصور والتماثيل، فإن كانت مشاهدة الأولى تزيد الإنسان ذوقا دينيا، فمشاهدة الثانية تقوم بتطوير التمدن

والرفاهية، فالأولى تجتهد في الكشف عن المعاني بينما الثانية تكدح في الكشف عن الصور، فالأمة الأولى أسيرة الروحانية، حتى بلغت العرش الإلهي والأمة الثانية أسيرة الهوى والمادة، حتى جابت وسائلُها العالمية الحديثة أقطار الأرض وأكناف الدنيا، اطلعت إحداهما على خبايا أرضية عن طريق المادة اللاسلكي، والثانية سمعت صوت الملكوت عن طريق الروح اللاسلكي، فأمة تقدمت نحو العلى ومازالت كذلك، والأمة الثانية وقعت في الحضيض ولاتزال.

الحاصل أن أمة تقدمت نحو تزيين الظواهر، والثانية نحو تهذيب البواطن، فإن كانت الأولى موجدة الاختراعات المادية والاكتشافات العنصرية، فالثانية كانت موجدة كمالات النفس والروح، اختراعات إحداهما زودت بأسباب راحة الروح، بينما قامت اختراعات الأمة الثانية بترويح الجسم وترفيه العقل.

قامت إحداهما بتعليم الناس علوم القلب عن طريق التأليف والمدارس والجامعات، بينما قامت الثانية بتعليم الناس فنون القالب وفنون المعاش عن طريق الطباعة والجامعات، فاتخذ كل منهما سبيلا وفق التقويم العقلي والتشكيل الفطري، أخذت الأمة المسلمة سبيلًا إلى الحقائق، فكل صورة عملية ذكرها القرآن تمثلت سببًا في معرفة الحق والوصول إليه، بينما اتخذت الأمة النصرانية المائلة بطبعها إلى الصور والأشكال سبيلًا إلى التصوير، فكل عملية قامت بها سببت الوصول إلى الصور والماديات، وكل طريق انبثق من هذا الطريق أدى إلى العالم المادي.

وعلى كل فاتضح جليًا أن النسبة بين الأمتين كالنسبة بين الجسم والروح، والصورة والحقيقة، وهذا لأن هذه هي النسبة بين قائديهما، وهي النسبة بين الصورة والحقيقة، فهما مع الافتراق والتباين يحمل منهجهما نوعية التشابه والتطابق، كما أوضحتُه بأمثلة عديدة.

وهنا انحلت عقدة، وهي أن الجميع يعرفون أن الحقيقة مقصودة بالذات، بينما الصورة لاتكون إلا سببًا للمعرفة.

سِرُ التشابه بين الأمة المسيحية والأمة المحمدية:

فلو كان هناك طريق لمعرفة الحقيقة غير طريق الصورة لم يكن من الضروري وجود الصورة والتصوير، ولكن بينهما نسبة قوية، فمع ما بين الصورة والحقيقة من بُعد المشرقين حيث الحقيقة لطيفة غيبية والصورة كثيفة شهودية، مع ذلك كله يوجد تشابه بينهما في الشكل والوضع، وإلا لم يكن كل واحد منهما سببا للتعريف بالآخر؛ ولم تتمكن عين من رؤية الحقيقة بعيدة عن الصورة، وبناءً على هذا تقوم بين الأمة المسلمة والأمة المسيحية علاقة الحقيقة والصورة، ومن هنا ظهر تشابه وتطابق بين أعمالهما، وعاد من الضروري أن يكون النظام التصويري للأمة المسيحية سببًا للتعريف بالنظام الحقيقي للأمة المسلمة، كما ان الصورة تكون سببًا لمعرفة حقيقتها، فمن يريد معرفة دقائق التشريع الإسلامي فعليه أن ينظر في صور وأشكال الحضارة النصرانية؛ فهي معرِّفة بالحضارة الإسلامية، فنظاماهما المادي والروحي هما وجهان لشيء واحد، ينطبق كل منهما على الآخر، وذلك لأن المبادئ القرآنية هي التي شكَّلت كلتا الحضارتين، وقامت شخصية نبوية واحدة بتأسيس القوميتين، فخرجت إحداهما من الحقيقة المحمدية، بينما خرجت الثانية من شبيه محمد، فيمكن أن نقول: إن المبادئ الفطرية التي ذكرها القرآن الكريم لما ظهرت على أيادي الأمة التصويرية، بنوا حضارة مادية، ولما ظهرت تلك المبادئ على أيادي الأمة المسلمة المحبة للحقيقة بنوا نظامًا روحيًا، كما تظهر الأصول الإلهية في كلام الله متمثلة في الهيئة العلمية، مما يسمى بالتشريع، وتتمثل هذه

الأصول في أفعال الله، مما يسمى بالتكوين، إلا أن التشريع والتكوين وجهان، ومن هنا تنطبق نماذج الأول على الثاني، فلاتوجد صورة أمثل في إيضاح الحقائق العلمية من شرحها بالأمثلة التكوينية، وفي هذا دليل على كون الله كلامًا فطريًا، فإن الكلام الرباني الفطري هو الذي يتمكن من انطباق على الأفعال الربانية الفطرية، وهكذا يكون التكوين الإلهي سببًا في شرح وإبانة حقائق التشريع الرباني، فإن نفس المبادئ هي التي تعمل في كل مكان، متمثلة في الصبغة العلمية في مكان وفي الصبغة الحسية في الآخر، ولما كانت المبادئ القرآنية هي التي تعمل في كلا النظامين: النظام الحقيقي للأمة المسلمة والنظام التصويري للأمة المسيحية فلا بد من انطباق أحدهما على الآخر، كما يجب أن يكون النظام التصويري للمسيحية سببًا للتعريف بالنظام الحقيقي للإسلام، فليس من المبالغة أن نقول: إن القضاء الإلهي قد أجرى الأمة المسيحية على الخطوط المادية في ضوء النور القرآني لتكون ذريعة إلى تعريف الحقائق الإسلامية الشاملة، فلولا الحقائق الإسلامية لما كانت حاجة إلى هذه النماذج التصويرية، ولا إلى التعريف بها.

والسر في ذلك أن الإسلام - كدين رباني أخير- جاء دينا شاملًا مصبوغًا بالصبغة الربانية الغامقة، فليس في الدنيا دين قام بشرح وبيان أسرار الغيب وحقائق العلم ودقائق المعرفة ولطائف النفس ومقامات الروح، كما فصَّلها الإسلام.

فكانت نوادره وطرائفه وحقائقه ودقائقه أمورًا مستحدثة للدنيا، وكانت فوق أن تدركها العقول الناقصة والقلوب المتخلفة، المولعة بالمشاهدات والمحسوسات، ولا تتمكن من معرفة هذه الحقائق السنية، وتتردد من الإيمان بها، مما أدى إلى وجوب إحداث نماذج تصويرية في عالم المحسوسات، بقدر الحقائق الإسلامية، لتكشف النماذج عن

أسرار الحقائق الروحية، فظهرت في المادة صور متشابهة، ليكون للباطن دليل ظاهري، حتى تدركها هذه العقول المريضة والأذهان المتخلفة، وتعتبرها أمورا معقولة، وتؤمن بالغيب عن طريق المشاهدات، حتى لاتبقى حجة للجاحد والمكابر، ويكون الإسلام دينًا مقبولًا لدى الجميع، آمن به الروحانيون بنور باطنهم، والماديون ببريق النظائر المادية، وهكذا تكون هذه الاكتشافات المادية وسائل إلى الحقائق الروحانية للإسلام.

الحضارة النصرانية سبب للتعريف بالتدين الإسلامي:

وفي تعبير آخر: إن الإسلام خاتمة الرقي الروحي، فكان لابد للمادية المعاصرة للإسلام أن تكون خاتمة الرقي المادي، ليظهر كل جانب من جوانب الحياة الروحية عن طريق الجوانب المادية المتقابلة للروح.

وكان من الممكن أن تهتم الأمة المسلمة بالجانب الروحي والجانب المادي معا؛ لكن هذا قد ينعكس سلبًا على النشاطات الروحية، فإن من الصعب الجمع بين الأمرين باتزان، ثم لما كان المطلوب من الأمة المحمدية أن تعتني في كل لحظة وساعة بالجانب الروحي وتطويره، فكيف يمكنها العناية بالاختراعات المادية في الوقت ذاته؟ وبما أن الجانب الروحي يقتضي نشوء الجانب المادي، فيجب أن تنشأ أمة أخرى مطبوعة على حب التصوير، مليئة بالعواطف التصويرية، مولعة بتشكيل النماذج التصويرية الرائعة، بالإضافة إلى أن تكون لها علاقة بالإسلام وتعاليمه الروحية، لتنطبق عليها كل الانطباق، وتكون ماديتها وجها آخر للروحية الإسلامية، ولا شك أن الأمة المسيحية هي التي تفي بهذه الشروط، فإن حب التصوير وصنع التشكيل من الأمور التي تركزت في فطرتها بسبب مربيها الأول: المسيح بن مريم عليه السلام، ثم مآثرها التصويرية تتلاءم مع الحقائق الإسلامية، وذلك لوجوه:

أولًا: إن المبادئ الإسلامية هي التي شكَّلت بناء الحضارة المسيحية.

وثانيًا: إن جبريل -عليه السلام- تمثل في صورة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- بشرًا سويًّا أمام مريم العذراء البتول، ومن ثم تكونت العقلية التصويرية؛ مما جعل الأمة المسيحية معدن التشكيلات والصور والأجسام والمظاهر.

ولا شك أن الصورة المحمدية هي أقرب إلى الحقيقة المحمدية، وكذلك الصور الناشئة عن أثر الصورة المحمدية تكون أقرب إلى الحقائق الناشئة عن الحقيقة المحمدية، ولا شك أن هذه الحقائق هي أجزاء الشريعة الإسلامية، وهكذا قامت علاقة متينة بين الحضارة المسيحية ومآثرها التصويرية وبين الحضارة الإسلامية وحقائقها العلمية، وحُقَّ للأولى أن تكون سببًا للتعريف بالأخرى.

فالمبادئ القرآنية التي استفادت منها الأمة الإسلامية وكشفت عن أسرار الحقائق الإسلامية، استفادت منها الأمة المسيحية وأبدعت في المآثر التصويرية، فإن كان الوجه الباطني للفطرة الإسلامية يجب إبرازها بيد الأمة الإسلامية فكان من الضروري أن يبرز الوجه الآخر المادي والحسي للفطرة الإسلامية بيد الأمة المسيحية.

فيسر الله تعالى للأمة الإسلامية النظام التشريعي للإسلام، فاستفادت من المبادئ الإسلامية وقامت بها قامت من خدمات ومآثر، كما يسر الله تعالى للأمة المسيحية النظام التكويني للإسلام، المتمثل في الصور والأجسام، فقد كانت تربَّت في الصور العلمية لرسولها: المسيح بن مريم عليهما السلام.

ففي حين أتيح للأمة المسلمة أن تقوم بشرح الحقائق الإسلامية أمام الأمم والأقوام، وتعرِّفهم بالمقاصد الإسلامية السنية، أتيح للأمة المسيحية أن تستفيد من المبادئ القرآنية وتأتي في مقابل كل حقيقة إسلامية بمثال مادي رائع، يحبب إلى الناس

الظاهريين الحقائق، ولاتتمكن طبيعة مادية من إنكارها، فكلما تقدمت الأمة المسلمة في شرح الحقائق وبيان الغوامض، تقدمت الأمة المسيحية في إنشاء الظواهر المادية والنماذج الصورية، وهكذا انطبقت الثانية على الأولى انطباق اللباس على الجسم.

أمثلة على التعريف بالدين الإسلامي عن طريق الحضارة المسيحية:

المثال الأول: نطق الأعضاء

إن من عقائد الأمة الإسلامية أن أعضاء الجسم كلها تنطق يوم القيامة، وتشهد بما فعله أصحابها من خير وشر، وكانت هذه العقائد مما أثار حوله العقلانيون والملحدون بعض الشبهات، واعتبروا نطق الأعضاء مستحيلًا؛ ولكن الحضارة المعاصرة قد اخترعت أشياء ناطقة، ذهبت باستحالة نطق الأعضاء، نحو الآلة الحاكية (Gramophone) والجوال والهواتف والآلات المسجلة، حيث يضغط الإنسان على الزر الصغير، فبدأ ينطق بشكل مثير للعجب، فلاعجب أن تكلمت الجثة الإنسانية بعد إذن رباني، فإن الله تعالى قد سجّل الأعمال الإنسانية في كتاب جامع لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

المثال الثاني: المعراج الجسدي

وكذلك ظلت قضية المعراج الجسدي لرسول الله محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المسجد الأقصى، ومنه إلى السدرة المنتهى أو إلى ما شاء الله من العُلى بعد مجاوزة سبع سماوات وبسرعة البرق أو أكثر؛ من القضايا الهامة التي صعُب قبولُها لدى العقلانيين والماديين، فقالوا ما قالوا من استنكار واستعجاب؛ ولكن قضية الوصول إلى القمر عن طريق الطائرات رائدات الخلاء، (كما قام به علماء الطبيعة الذين يعزمون الآن على عمران الخلاء) قضت على اعتراضات العقلانيين، وتركتهم حيارى

مشدوهين، فاضطروا إلى الاعتراف بصحة المعراج الجسدي لرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم؛ فإن الإنسان الأوربي المادي- الذي ينهمك في الملذات ويهتم ببطنه ليل نهار- إذا أمكنه الوصول إلى الفضاء مع مسافة سريعة وبقوة النفظ وأثقال الطيارات، فما سبب الاعتراض على وصول الرسول الصادق بجسده الخفيف وجسمه اللطيف- بسبب قلة الغذاء والاستمتاع بالملذات وكثرة العبادة والمجاهدة في سبيل الله- إلى ما أراده الله، وقطع مسافات الأرض والسماء بمركب "البراق" الأسرع من البرق الخاطف؟ فاختراع الطيارة وإمكانية الوصول إلى القمر قد أقاما دليلًا صارخًا على صحة المعراج الجسدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى كأن هذه الاختراعات تحققت لبيان الحقائق الإيمانية، ولايجوز لأمة مادية من بعد أن تعترض على مثل هذه الحقائق، المؤيَّدة بالحس والواقع والعلم الحديث.

المثال الثالث: الرؤية عن بعد

قد أفادت الكتب التاريخية أن الخليفة الثاني سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه كان يخطب على منبر الرسول وكان قد بعث جيشا، وأمَّر عليهم سارية فجعل يصيح: يا سارية الجبل، ياسارية الجبل، وقد سمع سارية هذا النداء-وكان بينه وبين المدينة آلاف ميلٍ- وأوى إلى الجبل، وبعد أيام لما قدم رسول الجيش إلى المدينة أخبر بأن جيش المسلمين كاد أن يُهزم، فسمعنا: يا سارية الجبل، فأوينا إلى الجبل فهزم اللهُ الأعداءَ.

إن بلوغ النداء العمري إلى سارية وهو منه على بعد آلاف ميل كان من كرامات عمر الفاروق، وهذا ما أثار الحيرة والاستنكار لدى العقلانيين والماديين، حيث لم يقتنعوا بأن الإنسان المادي كيف يصل صوته إلى هذا المكان البعيد بلاواسطة مادية ظاهرة؟ ولكن اختراع اللاسلكي نبَّه هذه العقول الكثيفة، وبين لها

أن الإنسان المادي إذا عاد يستطيع أن يوصل صوته بلا سبب ظاهري من الشرق إلى الغرب فما الذي يدعوكم إلى إنكار وصول صوت الرجل الرباني بسبب روحي خفي إلى أذني سارية، فكأن اختراع اللاسلكي أثبت صحة مثل هذه الكرامات.

المثال الرابع: رؤية ما رواء الجدران

قد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرى من وراء ظهره كما يرى من أمامه[1]، وقد اعتبر الماديون والعقلانيون أن هذا اعتقاد ديني سارٌّ، ليس له أساس من الصحة؛ ولكن الدراسات الطبية لخبراء وعلماء أوربا قد أدهشت الجميع، فقد أثبتوا أن القوة المبصرة لاتختص بالعين؛ بل هي تعم الجلد الإنساني كله، وتحت الجلد الإنساني ذرات صغار، وهي عيون صغيرة، وهي تبصر كما تبصر العين، وحسب ما قال الطبيب فركول: منذ آلاف السنين كانت الدراسة بدون النظر بالعين أمرا شائعًا؛ ولكن الإنسان لما علم أنه يمكنه أن يستعمل العين فيما يستعمل الجلد، فترك النظر بالجلد، حتى فقد مؤهلة النظر بالجلد"، فكأن أطباء أوربا قد اكتشفوا هذا ليتم به تقريب المعجزة المحمدية إلى عقول الماديين والملاحدة.

المثال الخامس: تسجيل الأصوات

قد أخبر الله سبحانه في القرآن بأن كل ما يلفظه الإنسان فهو محفوظ، ويُعرض عليه يوم القيامة جميع أقواله وأعماله، وكان الماديون يتحيرون في شأن حفظ الأصوات؛ ولكن الاختراعات الجديدة للعلم الحديث أثبتت أن أصوات البشر كلها محفوظة في

---

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، ج١، ص٢١٥، رقم٤١٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل ترون قبلتي هاهنا فوالله ما يخفى علي خشوعكم، ولا ركوعكم إني لأراكم من وراء ظهري.

الفضاء، وأصبحنا نسمعها عن طريق الآلات؛ إلا أن هذه الأصوات اختلطت بحيث أصبح التمييز بينها صعبًا، وسوف نقدر عما قريب على التمييز بين الأصوات، وليس من العجب أن نسمع تلك الخطبة التي ألقاها المسيح بن مريم على الحواريين، وكأن هذا الاكتشاف قد عالج مشكلة حفظ الأصوات؛ بل مهَّد الطريق لنزول المسيح بن مريم، والذي أخبر به الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا.

المثال السادس: انقياد الشجر و تسليم الحجر

قد أخبرت الأحاديث النبوية أن الأشجار كانت تنقاد لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم بارحة مكانها، وقد تحنو على الرسول وتسلم عليه، وتشتغل بالصلاة والتسبيح اشتغالا يناسب وضعها.

ولكن الطبائع المادية قد ثقل عليه قبول هذه المعجزة، وقالوا كما قالوا في الكثير من المعجزات: إن هذا أمر لم نره ولم نسمعه من قبل، وقد أثبتت الدراسات العلمية لعلماء النبات أن النباتات تسمع وترى، وتتحادث فيما بينها، ويعتريها الصحة والمرض، والنوم واليقظة؛ بل يساورها الحب والعشق، وينفعها الدواء، ومنها ما يستحيي من الحركة الإنسانية؛ والحاصل أن جميع مدارج الحس والشعور- التي تعتري الحيوانات- تتواجد في النبات حسب شأنها، فقد أقام الدكتور "جندر بوس" خبير النباتات جامعةً في مدينة كولكاتة عاصمة ولاية بنغال الغربية في الهند، يقوم فيها بتدريس مادة حيوية النبات، وقد ألف رسالةً تحتوي على حقائق نباتية، فهذه المشاهدات والتجارب للخبراء والعلماء دليل صارخ على حقية القرآن وما جاء فيه من نطق الأعضاء، فكأن هذه العلوم جاءت لتقرِّب إلى الأفهام الحقائق القرآنية، فالحقائق اللطيفة أُبرزت عن طريق المواد المحسوسة المادية.

المثال السابع: وزن الأعمال

قد ذكر القرآن أن الأعمال الإنسانية-التي يعتبرها الإنسان ضائعة سوف توزن يوم القيامة، فإنها محفوظة بعينها، ويجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر.

وظنه الماديون أمرا مستحيلا، فإن الأعمال أعراض لاتقوم بذاتها، فكيف يكون لها بقاء ووزن؟ ولولا أن العلم الحديث قد أثبت وزن الأعراض لما اعترفوا به أبدًا، فبفضل التطورات العلمية عاد الهواء اليوم يوزن، حتى تُملأ الدواليب والعجلات بالهواء، ثم يوزن الهواء، فبقدر الهواء يجب السعر.

واخترعت ألمانيا جهازًا للوزن، يوزن به الأخلاق فضلًا عن الأعمال، فمثل هذه الاختراعات المادية قد أبرزها الله على يد العلماء والخبراء اليوم للكشف عن الحقائق الغيبية والمعاني الإسلامية.

المثال الثامن: شق الصدر

جاءت الأحاديث الصحيحة لتفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد شُقَّ صدرُه في طفولته وفي شبابه، وقد قام به ملائكة الرحمن ليملؤوا قلبه علما وحكمة وبصيرة وهدى، ثم سوَّوْه كما كان، فتردد المادِّيون في تصديقه، فكيف يبقى الإنسان على قيد الحياة بعد ما شُقَّ صدره؟

ولكن فن الجراحة المعاصرالمتطور الذي سهَّل عمليات جراحية بشكل مدهش ذهب بأوهام الماديين، وقرَّب إلى الأفهام قضية شق صدر الرسول- صلى الله عليه وسلم-، فالأطباء البارعون يشقون الصدور والبطون كل يوم، وقد يخرجون الكبد والقلب، ثم يركِّبونها في مكانها، وقد يُخْرجون المثاني ثم ينظفِّونها

وينزعون ما فيها من الأدران والأوساخ ثم يخيطونها ويركِّبونها في مكانها؛ ولكن نظام الجسد لايتغير شيئًا؛ بل قد تعمل هذه الأعضاء الخاضعة للجراحة بشكل أفضل، فإذا كان هؤلاء الأطباء الماديون يستطيعون قطع الأعضاء والتصرف فيها بمساعدة الآلات الطبية، فذلك الرب الذي يدبر أمر الكون ويتصرف فيه بلفظ "كن" كيف لايقدر على شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم بأسراره الخفية، وملأه بالعلم والفضل ثم تركيبه في مكانه بشكل صحيح؟

فبعد النظر في العمليات الجراحية الطبية يمكنني أن أقول: إن الله تعالى أنشأ فن الجراحة في هذا العصر وجعله يتطور ليقتنع الماديون بشق صدر النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يثيروا اعتراضات على المظاهر الروحية في الإسلام.

وعلى كل فإن هذه الأمثلة المادية برزت شواهد قوية على الحقائق الإسلامية العلمية والمعنوية، وأوضحت اللطائف الروحية ومهَّدت الطريق لفهم الإسلام أمام أمم العالم، حتى كأنها وُضعت لشرح الإسلام وبيانه، وهنا قامت علاقة قوية بين الحضارة المادية والحضارة الإسلامية، وبات من المعقول أن تظهر هذه الاكتشافات في العهد الإسلامي، فإن للتعاليم الإسلامية دخلًا في إنشاء هذه الاختراعات، فهذه التعاليم جامعة بين المادة والروح، ولم يأت بمثل هذه التعاليم غير القرآن الكريم، فلو كان القرآن لم يكشف عن هذه الجوانب العلمية ولم يمهد طريق المعرفة أمام العقول لما كانت اهتدت إلى أسرار الكون وأسرار المادة والروح، فالعقول البشرية ماكانت لتفكر في مثل هذه الاختراعات قبل نزول القرآن الكريم، وماكانت في حاجة إلى ذلك، فكانت حقائق الإسلام الشاملة هي التي تقتضي مثل هذه النماذج الشاملة النادرة، فإن الأديان الأخرى قد عجزت عن تفصيل المعاني الغيبية بشكل

يسهل إدراكها، ولا استنارت العقول الإنسانية في عصر الأديان الأخرى بأنوار العلم والمعرفة لتستطيع هذا الاختراع والاكتشاف، وقد اتضح أن قيادة عصر النهضة والاكتشاف لابد أن تكون بيد الأمة النصرانية، فهي أقرب الأمم إلى المسلمين وأوفقها للروح الإسلامية، فإن اختراع الأمور المادية التصويرية الموافقة لأهداف الإسلام المعنوية لاتقوم به إلا أمة، نشأت بفضل الصورة الإسلامية وتربَّت ببركاتها الصورية، وهذه الأمة هي الأمة النصرانية، فقد نشأ وجودها القومي (بواسطة المسيح بن مريم عليهما السلام) بالشبيه المحمدي، فقامت بينها وبين الأمة المسلمة نسبة الصورة والحقيقة.

شمول النظام المادي والروحي:

ومن هنا يجب أن نعلم أن الإسلام لكونه آخر الأديان جاء أشمل الأديان وأكثرها رسالةً إلى العالم، فكان له أن ينتشر في العالم كله وتنتشر معه حقائقه، كما كان من اللازم أن تنتشر النماذج التصويرية والمظاهر المادية التي أثبت جذورها الإسلام، وفي تعبير آخر: اقتضى العقل والحكمة أن يكون التدين الإسلامي عالميًا، والتمدن النصراني أيضا عالميًا، ولم يبق في الدنيا مكان لم يصل إليه أثر التدين الإسلامي أو التمدن النصراني، ليكون الإسلام مقبولًا في كل مكان، ومن ثم أخبر الإسلام بشيوع الإسلام في أواخر الزمان أي في عصر المسيح والمهدي عليهما السلام، حتى تدخل كلمة الإسلام في كل بيت مدر ووبر، كذلك جاءت الأحاديث النبوية بما يفيد سيادة النصارى وشعبية حضارتهم، وقد قامت لها جذور في هذه الأيام، فبكثرة وسائل الحمل والنقل وآلات المواصلات تطورت التجارة الأوربية وانتشرت الاكتشافات العصرية، وكذلك نشأت في القلوب دوافع البحث عن الحق، وهكذا اعتنق الكثير الإسلام، وفي خضم الحياة

المادية إن كان دينٌ يهدي الإنسانَ إلى الحق والصدق ويلبي نداء القلب ويستجيب لوحي الخاطر فهو الإسلام لا غير.

ففي عصر العلم هذا إن كانت الأديان قد تزعزعت أركانها فالإسلام قد توطَّد له كيان وترسَّخت له أقدام، أما الاكتشافات العصرية والاختراعات البراقة فهي تؤيد الإسلام؛ بل تأتي شاهدةً قويةً على حقيته، فضلًا عن أن تقضي عليها، وبفضل هذه الأمور الطبيعية اتضح كون الإسلام دينًا فطريًا يوافق العقل والفطرة، فكان لزامًا أن تتطور هذه الأمة بجانب الأمة المسلمة؛ ولكن الأعجب أن الأمة النصرانية مازالت في تطور وسيادة، وأن الدين الإسلامي هو الذي يتطور ويخترق آفاقًا جديدةً، وعاد الأعداء سببًا قويًّا لنشر الإسلام، وصدق ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم: "وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر"[1].

نوعية العلاقة بين المسلمين والنصارى:

وإن وضعنا في الاعتبار نسبة الصورة والحقيقة هذه اتضح لنا مبدأ أصولي هام، وهو أن كل حقيقة تميل إلى الصورة، ومن ثم يحفظ الإنسان صورته وجسده، ويقوم بتجميلها، ويقيها الحر والبرد، ويعالجها إذا أصيبت بالمرض، ليعيدها إلى الحسن، فإن كانت الحقيقة لاتحمل أي صلة بهذه الصورة والهيئة الجسدية، لم يكن من الضروري على الحقيقة الباطنة القيام بتعهد الجمال الصوري، فالظاهر أن الصورة هي التي تتسبب لظهور ما بالحقيقة الباطنة من كمالات خفية، فإن خلت الحقيقة عن لباس الصورة لايمكن التعريف بها في العالم، ومن هنا يجب طبعا الحفاظ على الصورة والهيئة، ونفس الأمر يحدث في الصورة، فإنها إذا كانت ترجمانا للحقيقة،

---

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر، ج٤، ص١١٧، رقم: ٣٠٦٢.

فعليها أن ترجع طبعًا إلى أصلها، فإن كانت في عزلة عن الحقيقة تارة لسبب من الأسباب، فهي مع هذا كله تؤول إلى الحقيقة وتنقاد لها، وإلا فإنها بعد انقطاع كامل لم يبق للصورة وجود في العالم، وهذا المبدأ يدعو المسلم المحب للحقيقة إلى الرغبة في النصراني المحب للصورة، كما أنه يؤكد على وجوب عودة النصراني إلى أصلهم: الإسلام، ففي جهةٍ جاء حديث يفيد أن المسلمين يميلون إلى النصارى فيتشبهون بهم في جميع الأمور الحضارية وغير الحضارية، ونص الحديث: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ؟[1].

وكذلك ورد في حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بني إسرائيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلاَنِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ بني إسرائيل تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً ، قَالُوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي"[2].

فقد أخبر الحديث بالتشابه بين المسلمين والنصارى في العلم والعمل، أما العمل فأقبحه الزنا لاسيما زنا الأمهات، وأما العلم فشر العلم الجدل والنزاع، وقد شرح هذه الأحاديث سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بقوله: أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سمتًا وهديًا[3].

---

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، رقم٣٤٥٦.

(٢) أخرجه الترمذي، في **سننه**، رقم٢٦٤١.

(٣) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص١٢٥.

وفي الجانب الآخر إذا عاد العلماء من النصارى يدركون أصول الإسلام عن طريق الحقائق المادية ومآثر الاختراعات الباهرة، ويتعودون تعاليم الإسلام أحبوا أم كرهوا، فلم يعد الإسلام لهم غريبا، ومن ثم تخبر الشريعة الإسلامية بأن النصارى يدخلون في الإسلام في العصر الأخير، فالثابت بالكتاب والسنة دخول النصارى في الإسلام بعد قدوم المسيح بن مريم عليهما السلام، واتباعهم الإسلام بواسطة المسيح. فالمسيح بن مريم يرجع إلى الدنيا وهو يتبع الإسلام، ويقيم شعائر الإسلام، ويمحو شعائر النصارى، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويرفع الجزية، ولايقبل غير الإسلام دينًا، ولايقرر جزاءً غير القتل، فسيكون للنصارى حكم ما كان للمشركين في العصر الأول: إما الإسلام أو السيف، فلم يكن لهم جزية.

قال الله تعالى: **وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا** (سورة النساء: ١٥٩).

فكما أخبر الحديث بإقبال المسلمين على الحضارة النصرانية، كذلك أخبر الحديث بعودة النصارى إلى الدين الإسلامي، فإن كان المسلمون اليوم يغرقون في الحضارة النصرانية من مفرق الرأس إلى أخمص القدم، فأوربا وبلاد الغرب أيضا عادت تميل إلى الإسلام وتعاليمه، سواء لم يذكروا اسم الإسلام؛ ولكن قد اختاروا كثيرًا من الأعمال الإسلامية، فانصبغ كثير من أعمالهم بالصبغة الإسلامية، وقد بقي الانقياد السافر والإقرار، وهما الآخران سيأتيان قريبًا بإذن الله، وهذا التحول: تحول المسلمين إلى الحضارة النصرانية عند غلبتها، وتحول النصارى إلى الإسلام عند قوته العامة أثر من آثار ما بينهما من نسبة الحقيقة والصورة.

الحاصل أنه كما تكون الصورة وسيلة للتعريف بالحقيقة، وكذلك الأشكال الحضارية لدى النصارى سوف تكون وسيلة للتعريف بالإسلام وحقائقه، وتجعل النصارى يدخلون في الإسلام، فتتبعهم جميع الأمم التابعة لهم في الدخول في دين الله.

فإن كان المسلمون مالوا إلى الحضارة النصرانية فهذا لأن تلك الحضارة ليست إلا صورة مادية وحسية من صور دينهم، وإن كان النصارى رجعوا أو يرجعون إلى الإسلام فهذا لأن الإسلام بطانة حضارتهم وحقيقتها الأصيلة، والفارق بينهما أن أهل الحقيقة إذا مالوا إلى الصورة فهذا في حقهم تنزُّلٌ ودناءة، وإذا اتبع أهل الصورة الحقيقة فهي رقيٌّ لهم وتطور، واستعمال صحيح للمشاعر، فالحقيقة هي الأصل والمقصودة بالذات، فالرجوع من الوسائل إلى المقصود تطور، والخوض في الوسائل دون بلوغ الغاية تنزل ودناءة.

سبب العداوة القائمة بين المسلمين والنصارى:

ثم من الطبيعي أن الصورة إذا ظلت تابعة لحقيقتها، وناطقة بلسانها، فيكون بينهما انسجام وتآلف؛ ولكن إذا تمردت الصورة وأعرضت عن حقيقتها؛ بل أخضعتها، وأرادت استعباد الجسم والروح فلا يوجد في الدنيا عدو أكبر للحقيقة من صورتها، فيكون من المعقول معاداة الحقيقة هذا النوع من الصورة.

فلو كانت أمم النصارى ساريةً إلى الإسلام خاضعةً لصورته وحقيقته، متمسكة بالتواضع والانقياد مكان الاستكبار والانحراف، لكانت بينهم وبين المسلمين مودة لاتوجد فيما سواهما من الأمم، كما قال تعالى: **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** (سورة المائدة: ٨٢).

ولكنهم إذا مسخوا صورتهم وانسلخوا من حقيقتهم وعادوا صورة محضة، لاتنطق بلسان الحقيقة؛ بل تحاول محوها، قامت بينهم وبين المسلمين من العداوة ما لايقوم فيما بين سائر الأقوام، كما أعلن ذلك القرآن الكريم: **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (سورة المائدة: ٥١).

الأمم المسيحية هي التي تقوم بتلبيس الحقائق:

ونظرًا إلى ما بينهما من نسبة الصورة والحقيقة تنشأ فكرة أخرى، وهي أن الصورة إذا كانت تستر حقيقتها، وتعتبر غيرَ الحقيقة حقيقةً، كانت الصورة وسيلةً للتلبيس محل التعريف، فإن الصورة ترجمان الحقيقة، وإذا صارت لاتمثل حقيقتها فهي تمثل غيرها من الحقائق الموهومة لامحالة، واعتبار غير الحقيقة حقيقةً هو عين التلبيس والخداع، وهذا ما يؤدي إلى التباس الحقيقة بغيرها من الأمور.

والمعلوم أن هناك رجالًا معدودين يميزون بين الحقائق وغيرها، ولاينخدعون بالتلبيسات؛ ولكن الطبائع العامة تقع في ورطة التلبيس، فلا تظهر لها الحقيقة في صورتها الوضاءة المشرقة.

والأمم النصرانية المنحرفة في هذه الأيام تأتي في زمرة هذه الصورة المحرَّفة، فهي بسبب جهلها بالحقائق أقامت المظاهر الإسلامية عن طريق الصور المادية؛ ولكن هذه الصور لاتمثل الإسلام الصحيح، بل تمثل الحقائق الموهومة، فأقامت الصورة، وغيَّرت الحقيقة، فبقيت المباني إسلاميةً وعادت المعاني نصرانية، فالتبس الأمر على عامة الناس ممن لم تتم لهم تربيتهم، فاعتبروا غير المعاني معانيَ بسبب الاشتراك في الألفاظ،

وعلى سبيل المثال قام عنوان الحضارة؛ ولكن ماذا تحت هذا العنوان؟ البول قائمًا وتنظيف النجاسة بالورق، والأكل باليد اليسرى، والرقص في النوادي وإباحة الخنا والزنا، وأكل أموال الناس بالقمار والميسر وصب الخمور في الكؤوس الزجاجية الملونة وما إليها، والمعنى أن إضاعة الحياة والوقت في أسباب التنعم والدعارة والمجون عادت تحمل معنى الحضارة اليوم.

مع أن الإسلام أقام الحضارة على أسس سليمة تتمثل حقيقتها في تزكية النفس وتهذيب الأخلاق الربانية، إلا أن الحقيقة تُمسخ اليوم، ويبقى لها اسمها وصورتها، مما جعل كثيرًا من الناس يعتبرون هذه الصورة المشوَّهة حقائق إسلامية، وابتعدوا عن حقائق الإسلام.

التلبيس الناشئ من اسم المدنية:

أو مثلًا أبقَوا عنوانًا إسلاميًّا باسم المدنية، والتي كانت ترمي إلى نشر الرفاهية بين الناس والتضامن الاجتماعي وأداء الحقوق وانقسام الأشغال ونقاء المعاملات وعواطف المواساة والتسلية وضبط النفس وما إليها؛ ولكن ما الذي تعنيه المدنية اليوم غير إشباع النفس بالأكل والكسب والغرق في وسائل التنعم، والجشع في جمع الأموال والحياة الضائعة في طرق الأهواء؛ فمدنية اليوم تتلخص في الأثرة والأنانية والنفعية، فالمدنية كلمة إسلامية؛ ولكن يراد بها معنى غير إسلامي تماما، وهذا هو التلبيس.

التلبيس باسم الحرية:

وكذلك شأن الحرية، فهي مبدأ إسلامي، يريد الإسلام تحرر النفوس من عبودية الهوى؛ ولكن حرية اليوم تعمل على التحرر من كل فضيلة، ونبذ الشرائع

الإسلامية، والاستغناء عن الهدى الرباني، واتباع الهوى، والطعن في الدين الإسلامي، والتمسك بعقله الضعيف حتى في الأمور الدينية، والظاهر أن أداء هذه الممارسات باسم الحرية ليس إلا تلبيسًا عظيمًا.

التلبيس بالمداراة:

وهكذا أخذوا كلمة المداراة، وهي كلمة إسلامية تدل على تأليف قلوب المسلمين، ومعاملة حسنة مع الأعداء في الأمور المباحة؛ ولكن المداراة تغيرت اليوم تمامًا، فهي تعني اليوم المداهنة في الدين وستر الحق، والسكوت على الباطل، والسكوت عن الحق الأبلج تحت الهوى النفساني أو ضغوط مادية.

التلبيس بالوقاروالثقة بالنفس:

الثقة بالنفس لفظ إسلامي جميل، وحقيقتها هي الوقار والاحتراز من الذل، واجتناب النفاق؛ ولكنها اليوم تعني النخوة والغرور والكبر والاستعلاء والفخر والخيلاء.

الحاصل أن العناوين بقيت إسلاميةً، والمعاني صارت إلحاديةً، والثوب شرقي؛ ولكن الجسد غربي، وهذا ما أدى إلى أن عامة الناس الذي ينخدعون بالمظاهر والرسوم وقعوا فريسة العناوين البراقة، واعتبروا ما يُراد بهذه الكلمة من معانٍ غير إسلامية مبدأً إسلاميًّا، فحُرِموا الحقائقَ الإسلاميةَ وتورَّطوا في المعاني المصطنعة، وهذا هو تلبيس عملًا، وجهل مركب علمًا، فلايرجع الإنسان إلى الحق مادام لم يتم خرق رداء التلبيس، ومن ثم نرى الحقائق الإلحادية قد تمكنت في القلوب بسبب الألفاظ البراقة ومعانيها الأوربية، وغابت المعاني الإسلامية عن القلوب، ووضعت هذه الأمة أساسَ القضاء على الإسلام باسم الإسلام، وشق طرقا لانتزاع الإسلام من القلوب، فبقي الإسلام

لفظًا، وذهبت معانيه، بقيت النقوش، وضاعت الحقائق، كما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث:

يُوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَبْقَى مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ[1].

فالصورة التي وضعها الله لتكون سببًا للتعريف بالحقيقة حوَّلتها هذه الأمة لتكون سببًا لستر الحقيقة، حتى عاد من مميزات هذه الأمة إبراز غير الحقيقة في صورة الحقيقة، وجعل الكذب صدقًا، والنور ظلمةً، ومن شواهد ذكائها ودهائها أنها أكثر الأمم مكرًا وخداعًا ونفاقًا.

فالأمم المسيحية تتظاهر بفعل ما تعمله الأمة المسلمة، فالمسلمون يثبتون الحقائق، والنصارى يظهرونها، وبما أن العامة مفتونون بسحر الظاهر والجمال الكاذب، فهم يتهافتون عليه ويبتعدون عن الحقائق، ومع الأيام يحسبون الظواهر حقائق، فلا يبقى من الحقائق إلا اسمها، كما جاء في الحديث: ولا يبقى من الإسلام إلا اسمه.

وهذا ما شكَّل نوعين للإسلام، الأول: ذلك الإسلام الظاهري، الذي لاصلة له بالواقع، والثاني: الإسلام الحقيقي، الذي بقي في صورته الأصيلة.

والمفتونون بالظاهر اعتبروا الأول الإسلامَ الحقيقي، بينما تمسك أولو البصر والبصيرة بالإسلام الحقيقي، مما سبَّب نشوء معركة حامية بين الجديد والقديم، ومن ثم نشأت ظاهرة التحزب والتفرق، والتي نخرت في جسد الأمة، وأحدثت ضعفًا في الأمة، حتى صارت أقوى الأمم من أضعف الأمم، ومن أسبابه ذلك اللون من التلبيسات، التي أنشأها أهل الكتاب، وما زالوا يفعلون.

---

(١) أخرجه البيهقي في **شعب الإيمان**، رقم ١٧٦٣.

ومن أجل ذلك قد نهى الله سبحانه أهل الكتاب عن لبس الحق بالباطل بصفة خاصة، فقد كان المتوقع صدور هذه الظاهرة عن المأخوذين بسحر الصورة والظاهر كأمثالهم، قال تعالى: **يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** (سورة آل عمران: ٧١).

وفيه دلالة كافية على أن الأمة المسيحية –كأمة– ظلت تخبئ العداء للأمة المسلمة، وتعمل على ما يسبب ضعف الأمة الإسلامية، فالمصائب والآلام التي تلحق بالأمة الإسلامية من قِبل الأمم المسيحية لايلحق مثلها من قبل غيرها من الأمم، وبناء على هذا لايصيب الأمةَ الإسلامية من المخاطر من جهة الأمم الأخرى مثل ما يصيبها من جهة النصارى.

الأمة المسيحية هي أكثر الأمم منافسةً للأمة المسلمة:

وبذلك نقول: إن الأمة المسيحية هي التي تنافس دائمًا الأمة الإسلامية، وليس هذا وهمًا أو خيالًا أو زعمًا محضًا؛ بل هي دعوى شرعية، أيدتْها نصوص الكتاب والسنة، فهي حقيقة ثابتة، كان الإسلام في عهده الأول واجه أربعة أعداء، وكان المشركون العرب أولَهم؛ إلا أن هذه المواجهة كانت موقتة، انتهت بعد مدة؛ حيث تطهَّر العرب من أنجاس الشرك ودخلوا في دين الله أفواجًا؛ حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا؛ ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى بها"[1].

ثم كانت مواجهة ثانية مع اليهود، الذين كانوا منتشرين في الحجاز، وكانت تغلي صدورهم حقدًا على الإسلام والمسلمين، وينسجون مكائد ودسائس؛ ولكن

(١) أخرجه ابن ماجة، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، في **سننه**، (بيروت: دار الفكر، د.ت.د.ط)، باب الخطبة يوم النحر، رقم: ٣٠٥٥.

انتهى أمرهم أيضًا، فكانت لهم جبهتان: بنو قريظة وبنو النضير، فقُتلت بنو قريظة عن آخرهم، ونُفيت بنو النضير إلى بلاد الشام، إلى جانب ذلك ضُرِبتْ عليهم الذلة والمسكنة للأبد، حتى لاتقوم لهم قائمة أبدَ الدهر.

وفيهم قال الله تعالى: **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** (سورة البقرة: ٦١).

ثم كانت مواجهة ثالثة مع الإيرانيين، أولي قوة وبأس ومملكة حضارية قوية؛ ولكن لما مزَّق مَلِكُهُمْ رسالةَ رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم قال عليه السلام: إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ"[١]، فدارت بهم الدوائر، وتضعضع لـمُلْكِهم بنيان، وعمَّ البلادَ الفوضى والاضطراب، حتى لم يبق لهم كسرى صاحب استقلالية، حتى جاء العهد الفاروقي، الذي أخضع ملك إيران للدولة الإسلامية، وانتهى أمرهم أيضًا للأبد.

ثم كانت مواجهة رابعة مع الأمم المسيحية، التي كانت لهم مملكة ذات شأن عظيم، امتدت من الروم إلى الشام؛ ولكن هذه المواجهة لم تنته في الماضي، ولن تنتهي أبدا في المستقبل، وقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بدوام هذه المواجهة كما أخبر بالمواجهات الثلاث، حيث قال: والروم ذوات القرون، إذا هلك خلَفَه قرن، الحرب بيننا وبينهم سجال، ينالون منا وننال منهم"[٢].

---

(١) أخرجه البخاري، محمد بن إسماعيل، في **صحيحه**، (بيروت: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ)، باب الطيب للجمعة، ج١، ص٣١٨، رقم: ٣١٢١.

(٢) بهذه الألفاظ نقل الشيخ الحديث، ولم يذكر المصدر، وما وجدت بهذا اللفظ حديثا، وقد أخرج الإمام ابن أبي شيبة في مصنفه ما نصه: عن ابن محيريز قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فارس نطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعدها أبدا والروم ذات القرون أصحاب بحر وصخر كلما ذهب قرن خلف

فهذه الأمة الوحيدة من بين أمم العالم، التي تتصدى للأمة المسلمة، وتنافسها دائما، وتعاملها معاملة الخصم للخصم، ويصدِّق التاريخ دوام هذا النزاع، وسيبقى هذا النزاع والتنافس، حتى يظهر الإسلام على الأديان كلها، وقبل ذلك تكون الحرب سجالًا، وتتضارب الكفتان، والظاهر أن الحرب السريعة الانتهاء هي التي تكون حربا سافرة، أما الحرب التي تمتد لقرون، فهي حرب يتحكم فيها المكر والتلبيس والقوة والخداع، وبذلك يقضي العقل بأن الحرب الحقيقية إذا قامت للمسلمين فهي تكون مع المسيحية المحبة للصور، فإنها عُجِنَت طينتُها بالتلبيس والتصوير، فالأمة المسيحية هي الأمة المنافسة للمسلمين دائمًا، فالمسلمون في حاجةٍ إلى يقظةٍ دائمةٍ وتنبهٍ تامٍ للتعامل مع النصارى، أما الأمم الأخرى فهي لاتستطيع مواجهة المسلمين بشكل شامل، فهي ليست منافسة ولا حريفة، بل بمساعدة النصارى قد تُنَافِس المسلمين وتُحَارِبهم.

ولست أنا وحدى بالذي يؤمن بهذا المبدأ الأصولي؛ بل يقره بعض النصارى أيضا، حيث يكتب "اللورد" حاكم الهند العام إلى "ديوك آف ولنكدن" في عام ١٨٤٣م: لا أستطيع أن أتغاضى عن عقيدتي بأن المسلمين هم عدونا الحقيقي، ولذلك اخترت سياسة إرضاء الهندوس"[١].

وعلى كل فبناء على اعتراف الفريقين بهذا الأصل ثبت أن الفريقان هما الحريفان المتنافسان دائما، وأن الحروب بينهما تمتد بصورة التلبيس والخداع السياسي، وكل ذلك يأتي دائمًا عن طريق التصوير والخداع الصوري.

قرن مكانه ، هيهات إلى آخر الدهر هم أصحابكم ما كان في العيش خير". (ابن أبي شيبة، أبوبكر عبد الله الكوفي، في **مصنفه**، (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤٠٩هـ)، رقم: ١٩٣٤٣.

(١) الدكتور لاجبت رائے، Unhappy India (الهند البائسة)، (الهند: مطبعة بنّا، كولكاتا، ١٩٢٨م)، ص٤٠٠.

عاقبة الحضارة المسيحية بلسان أهلها:

وقد تجلى هنا أن الصورة التي تحاول -بشكل مكشوف أو مستور- القضاء على حقيقتها، أو تحاول تشويه صورتها فهي في الواقع تحاول القضاء على ذاتها، فإن الحقيقة لم تُخلق لتموت؛ فكيف تمحوها صورتُها، التي هي في بقائها العارضي مدينة للحقيقة، فإن كانت الحقيقة تلبَّد وجهُها بالغبار في وقت من الأوقات، فما لبث أن تهُبَّ نفحةٌ من الرياح، تكشف عن الوجه، وتزيل الغبار، ويبرز بها الوجه خالصًا نقيًّا.

فالاهتمام الزائد من قبل الأمم المسيحية بالصور إن كان أثَّر في الحضارة الإسلامية والمعاشرة الروحية تأثيرًا سلبيًا، وألقى غبار التلبيس والكتمان على وجهها، فهي لاتضر بالحقائق الإسلامية بقدر ما هي تضر بالحضارة المسيحية المولعة بالتصوير والتزوير، وإن كانت الاكتشافات الحضارية تُستخدم اليوم للقضاء على الحقائق فتدبروا أي شيء يتضرر في الواقع؟ وأي الأمتين أكثر ضررا: المسلمون أم النصارى؟ اتركوا البداية والوسط، وركِّزوا على العاقبة والنهاية، تعلموا سريعًا أن هذه الأمة التصويرية إذا كانت اختارت طريق الوسائل دون الحقائق، وطريق اللون والرائحة، أو رمت باللُّب واكتفت بالقشر، فقد فقدت حسن العاقبة وحسن التفكير فيما بعد الموت؛ بل لم تنتفع حق الانتفاع بالوسائل التي جعلتها مقصودةً، وابتُليت بالأضرار الجسيمة والمصائب الأليمة، التي حَرَمتْها هدوءَ الفكر وأمنَ المادة، فالانشغال بالوسائل عن الحقائق والاهتمام بالأجساد الميتة وتزيينها لايمنع أن تفوح منها روائح كريهة، فقد بدأ ينتشر التعفن، وانكشف ما تحت الظاهر اللماع من خبث وقّاح، فهم يصيحون بألسنتهم بأنهم قدموا العالَمَ إلى شارع المدنية والرقي؛ ولكن

قلوبهم تشهد بأنهم دفعوا الإنسانية إلى حضيض من الذل والهوان، وإلى مدنية عادت عارًا للإنسانية.

فساد الأخلاق في الحضارة المسيحية:

إن الحضارة المسيحية أغرفت الإنسانيةَ في بحار من الشهوات والنزوات، وقوَّضت جميع عناصر البناء وأركان الحكمة المتمثلة في تهذيب الأخلاق وتدبير المنزل وسياسة المدن؛ فسقطت أعمدة الحكمة، التي طالما قام عليها للإنسانية بنيان فخم شامخ، فانهار البنيان كله، وبتعبير آخر: إن هذه الحضارة أخرجت الإنسان من الإنسانية إلى جنس البهائم والأنعام، مما قضى على جوهر الإنسانية، وأثار تساؤلات المثقفين الأكاديميين حول هذه الحضارة، فلم يذكر هذه النتائج المشؤومة للحضارة الغربية أعداؤها؛ بل عاد رجالها والمعتزون بها يبدون مخاوفهم، ويعترفون بما جرَّت عليهم هذه الحضارة من بلاءٍ وبيل، وشر مستطير، ويشهدون بسوء ما دعتهم إليه هذه الحضارة من أقوال وأفعال وموضات شائنة بذيئة.

يحكي الأستاذ جارج ايلن ايدانون في كتابه "الحضارة" عن كبار المؤلفين الحقائق التالية:

ذهاب الإخلاص:

"إن النفاق هو خلاصة هذه المدنية، فالناس يؤمنون ظاهرًا بالرب؛ ولكنهم يتفانون في سبيل المال والمادة، ويزعمون بلسانهم الحرية،؛ ولكن حملة لواء الحرية يكونون في تعذيب وتضييق، يدَّعون اتباع المسيح؛ ولكن حياتهم عبارة عن ارتكاب المحرمات والفواحش، ويلوكون بلسانهم كلمات الصدق والحق؛ ولكنهم أجلسوا الكذابين والمزوِّرين على كرسي الحكم والسلطة، يُظهرون الأخوَّة بلسانهم؛ ولكن

الرجال الذين لايشاركون في حروبهم الوطنية أو حفلات القومية المزعومة، فمصيرهم إما السجون أو رصاصات البنادقة"[1].

فساد الفهم:

يرثي الفيلسوف الأوربي برناردشا (George Bernard Shaw) على العواقب الوخيمة التي دفعت الإنسانيةَ إليها هذه الحضارة الفاسدة والمدنية، فيقول:

"أوَ تحسبون أنكم سبقتم الأممَ الماضيةَ بآلاف القرون؛ ولكني أرى أنكم تنقصون، وتقعون في الحضيض، بسرعةٍ لايكفي لإصلاحها عشرون ألف عام، فلو كنا في زيادة لزادت عقولنا على عقول السابقين، وكانت أكثر طهرًا ونقاءً من عقولهم، لو كنا في زيادة، لكنا أكثر ضبطًا للنفس وكبحًا للهوى، ولو كان الأمر كذلك لما كنا نحترق بنار الحقد والبغضاء، ولما بلغت أهواؤنا النفسانية إلى حد الجنون والإدمان، ولما دعانا جوعُنا الكاذب إلى جشع لاينتهي وبشع مدمر لاينقضي، وإذا كان الأمر كذلك فبأي لسان يصح لنا أن نقول: إنا سبقنا الأمم الماضية"[2].

وبمثل هذه الكلمات المليئة بالحسرات والعبرات يتحدث باحث أمريكي عن هذه الحضارة فيقول:

فساد العفة والعصمة:

"آه! ماذا فعلنا؟ قد صنعنا الغوَّاصات وقوارب طوربيد (Torpedo Boat)، والغازات السامة والطيارات؛ ولكن هذه أمور خارجة، فماذا عن داخل نفوسنا؟ لقد غذَّينا بهذه الآلات البهيميةَ المركوزة في الفطرة الإنسانية، وصرنا

(١) جريدة سچ بالأردية لكناؤ، ٢٤/ يناير/ ١٩٣٠م.

(٢) مجلة القاسم الأردية الصادرة عن ديوبند الهند، شوال عام ١٣٤٨هـ.

مسؤولين عن دمار بني آدم، ما هذه السينما وما هذه السيارات؟ ليست إلا سفيرةً للفحشاء، تسهِّل لنا السرقة، واغتصاب البنات، وليست نوادينا ومجامعنا إلا محافل الفحشاء وهتك العورات، حتى لم يعد في الرجال نوع من الغيرة، ولا في النساء ما يسمى بالعفة، فسدت المنازل، لاتبالي الزوجات بأزواجهن، ولا الأزواج بزوجاتهم، إن أعظم تحفة للأصدقاء والأحباب هي الزوجات والبنات، وعيون الشهوة للرجال هي أعظم كنز للنساء اليوم"[1].

هذه الشهادات الكتابية أدَّاها رجال هذه الحضارة، ممن أوجدوها وفُتنوا بها؛ ثم لم يتحدثوا فيها عن الإمكانات؛ بل تحدثوا عن الحقائق والواقع، فقد اعتبر أحدهم هذه الحضارة "نفاقا"، واعتبرها الثاني "منتهى ذل الإنسانية"، بينما اعتبرها الثالث "جنون الهوى والشهوة".

فشهد رجال هذه الحضارة بأن الاختراعات المادية والرقي النفساني تُستخدم للقضاء على روح الحقائق وإفساد عالم الروحانية، ومن ذا الذي تكون شهادته أقوى من رجالها الذين أوجدوها وخدموها، واطلعوا على عواقبها وبدايتها ونهايتها؟

فهذه الشهادة جاءت إعلانًا صارخًا بأن هذه الحضارة الفاسدة وما فيها من فساد في الأخلاق ودناءة في السلوك وما لها من عواقب وخيمة أقلقت الوسط الثقافي، البصير، المعنيِّ بالأخلاق والمعاني الإنسانية، واضطرته إلى إبداء مخاوفهم من هذه الحضارة والندم على ما فعل، حتى صاح صيحة الغريق لإطفاء نار المادة والمعدة، التي أحرقت عالم الأخلاق الروحية؛ ولكنه مكبل بأغلال هذه المدنية الزائفة، فيسكن بعد بكاء، ويصبر بعد جزع، وينتظر ثورة جديدة في الكون، تمحو دائما مثل هذه المسيرة السيئة.

---

(١) المرجع السابق.

وقد لخص هؤلاء الفلاسفةُ الثلاثةُ هذه الحضارة في عناصر ثلاثة: النفاق والشهوة ودناءة الأخلاق، المهم أن نعلم كيف توصلوا إلى هذه النتيجة؟ فالجواب أنه تشهد بصدق أقوالهم كل المؤشرات والعادات والتقاليد المنتشرة بين الناس، فتُنشر اليوم الوحشية والبهيمية والسفور والشهوة باسم الحضارة؛ حتى نزل الإنسان إلى حد الحيوان، ولم يبق له من الإنسان إلا اسمه، فقد فَقَدَ جميع الأسباب التي يطلَق عليها الإنسان الحقيقي، فهل بقي للإنسان المعاصر ميزة من ميزات الإنسانية الصحيحة؟

ذهاب الحياء والحجاب:

أَوَلَا نشاهد الرجال والنساء والصغار والكبار يتجولون عريانًا، وينزو بعضهم على بعض على مرأى ومسمع كالكلاب والخنازير؟

تكتب مجلة المدينة: إن العري منتشر في فرنسا وألمانيا، وقامت لنشره مؤسسات ومنظمات باسم منظمة العرى الملية، والمحافل الفطرية، وكان لها أربع مائة ألف عضو، تشارك فيها النساء بشكل فعال حتى عام ١٩٢٨م؛ ولكن إحصائيات عام ١٩٢٩م تدل على أن أعضاءها في ألمانيا بلغت عدد أربعة ملايين، إن أعضائها رجالا ونساء صغارا وكبارا قد أعلنوا أنهم يعيشون عريانا متجردين عن كل ثوب[1].

ضياع الغيرة:

إذاً فمن ذا الذي يمنع الناس الذين نزعوا لباس الحياء من الانشغال بأعمال وقحة فاقدة الغيرة؟ ومن ثم فإن تجارة الأعراض وبيع الأجساد وأعمال الفحشاء المنتشرة في هذه الحضارة لايوجد لها نظير في القرون الماضية حتى في عهودها القبيحة، وجاءت

---

(١) صحيفة المدينة، بجنور، ٠٩/ مايو عام ١٩٢٩م.

إحصائية جرت في مدينة لندن، أفادت أن أعمال الفحشاء التي مورست في إحدى حدائق لندن في عام واحد، والتي سجلها مركز الشرطة المحلي تتلخص في ما يلي:

- أعمال فاقدة للحياء: ٣٢٥
- أعمال الزنا: ٣٦٩
- الإعانة في أعمال الزنا: ٣٥
- السمسرة في هذه الأعمال: ٢
- الزنا بالجبر: ٢
- الهجوم على المرأة: ٢
- الإهانة: ٥٦ [1].

هذا مصير حديقة في مدينة بريطانية، وبذلك تقاس منتزهات المدن الأخرى وأماكنها العامة، وإذا كانت أعداد الفحشاء في الأماكن العامة من المنتزهات والشوارع، فما ظنك بالأماكن المستورة من الفنادق ومراكز الدعارة؟

ممارسة الفحشاء جهارًا:

إن الدستور البريطاني وإن كان لايسمح لامرأة ببيع الجسد؛ ولكن تكتب امرأة مسؤولة: "فيما بين عام ١٩١٥م وبين عام ١٩١٧م قُبِضَ على عشرين ألف امرأة للانشغال بأعمال بيع الأعراض، وكانت هؤلاء النساء السفيهات اللواتي أتحن للشرطة أن تعتقلهن، وإلا فهناك ملايين من النساء السعيدات، اللواتي وقفن حياتهن في هذا الشغل ولم تعثر الشرطة لهن على أثر ولا خبر [2].

---

(١) جريدة سچ (الصدق)، ١٣ يوليو عام ١٩٢٨م.

(٢) صحيفة انقلاب بالأردية، ٠١/ يوليو/ ١٩٢٨م.

وفي مجلة "محشر خيال" الصادرة عن مدينة دلهي نُشرت فقرات من مقال للأستاذ تيلر كرافت بعنوان "وجوه سافرة لأدعياء الحضارة"، أنقل بعضها هنا:

١- يبلغ في مدينة لندن عدد نساء تمارس مهنة الفحشاء برخصة قانونية ٣٠ ألفا، هذا بغض النظر عن الممارسات الفاقدة للحياء[1].

٢- يكتب جان بل: يوجد في نيويورك الآن ٤٠ ألف امرأة تمارس الجنس جهارًا، ولا يشمل هذا العدد تلك النساء التي تمارسه في البيوت والفنادق، والإحصائية تفيد أنها توجد امرأة عاهرة من بين كل ١٠ آلاف فتاة، وتقدر أن هؤلاء العاهرات في مدينة نيو يورك يمارسن الجنس مع ٥٥٤٠٧٠٠ رجال، هذا يعني أن ١٥١٨٠ رجلا يستخدمون النساء العاهرات يوميا؛ مما يؤدي إلى أمراض خبيثة"[2].

يبدو أن الحد من أعمال الفحشاء ليس من أعمال الحضارة الجديدة ؛ بل مهمتها توفير كل فرصة لممارسة الزنا والخناء.

"سالوليشن آرمي" هي جماعة منظمة، تعمل في مجال خدمة الخلق والتوعية القومية، ومن مهامها أنها تنظم مكان التوليد للنساء التي يلدن أولادًا غير شرعيين، ونشرت مجلة MEDICAL CHRONIC AND GUIDE الأمريكية في مايو عام ١٩٢٨م، ما اقتست منه مجلة FORWERD الصادرة عن مدينة كلكتا هذه الفقرات:

---

(١) صحيفة محشر خيال، يونيو عام ١٩٣٥م.

(٢) صحيفة انقلاب، ٠١/ يوليو عام ١٩٢٨م.

"إن أمكنة توليد الأولاد غير الشرعيين معمورة بالنساء الناضجات، اللواتي يمارسن الجنس بكل رغبة وتفكير؛ ولكن الوضع قد تغير الآن، فهي معمورة بالبنات الحديثات السن من الطالبات ومن في عمرهن ممن كان يجب أن يكنَّ في المدارس والجامعات بدل أن يكنَّ أمهات، وبلغ عددهن نسبة ٤٢٪، وتترواح أعمارهن بين ١٥ و١٦"[1].

وهذا فاشٍ في الدولة، التي شاعت فيها أدوية منع الحمل وضبط النسل، حتى عاد من المستحيل كون المرأة أما بلا قصد منها، والمظنون أن ١٪ من أعمال الفحشاء يبلغ مكان التوليد.

وقد نُشر في مجلة مؤخرا أن البنات غير المتزوجات قد أعلنت في مدينة GLASGOW البريطانية أنهن يردن مساعدة الطلاب في المدينة عن طريق بيع قبلاتهن بثمن رخيص، مما دفع مئات من الطلاب المغفلين إلى التطواف حول الشوارع وإنفاق كثير من المال على قبلات الحسناوات الرخيصات.

ما أكثر غيرةً أولئك الرجال الذين أكلوا من ثمن بغاء بناتهم الصغيرات، وما أكثرهن رحمةً على الطلاب بتقديم القبلات سعرًا رخيصًا.

تتواجد في لندن نوادي للفتيات، التي تأخذن العهد على ترك النكاح طوال الحياة، نعم! يشبعن شهواتهن عن طريق المخادنة وعقد الصداقة مع الشباب.

جنون الشهوة:

إن هذا الجوع من الهوى، الذي لايشبع لم يتوقف عند حد الضرورة ولا عند إشباع الغرائز الطبيعية؛ بل بلغت حد الجنون، فلم يعد عندهم في هذا المجال فرق بين الرجال والنساء؛ بل فرق بين الإنسان والحيوان.

---

(١) صحيفة سج (الصدق)، ١٣ / يوليو/ ١٩٢٨.

يكتب "وهي تيلر كرافت": إن للشذوذ الجنسي (لواط وسِحاق) نوادي ومجتمعات، ولها أعضاء ومشرفون، ليسوا من الأوباش وسفلة الناس؛ بل هم أساتذة المدارس والكليات، ورهبان الكنائس، ومدراء المجامع وخبراء العلوم والفنون، فهم يستغلون مناصبهم لصيد الفتيات[1].

وتكتب مجلة "آ گـ" عن السِحاق[2]:

"إن أوضاع الفتيات مثيرة للعجب والأسف، إن المولعات بالسحاق يتصدين لأقرب النساء إليهن، فيتخذنهن فريسة شهواتهن، وعددهن يزيد إلى حد خطير"[3].

وتضيف مجلة "آ گـ" قائلة: "إنهم يستعملون الحيوانات لإشباع غرائزهم، مما ينفر منه الطباع السليمة، والمثير للعجب أن هذا الخبث يوجد قليلًا في الرجال؛ فقد أكد عدد من الأطباء –ومنهم طبيبان من البيوت الشريفة- بأن هذا الخبث يتفشى في نساء القبائل الشريفة، واللواتي يملكن الكلاب لهذا الغرض".

"وفتحت امرأة نادية للكلاب بقرب منتزه هائيد، تقوم فيها بتعليم الكلاب ممارسة الجنس مع النساء"[4].

ضعف الباءة وأمراضه:

إن أول ما يؤدي إليه مثل هذه الأعمال الخبيثة هو تفشي الضعف في الجسد، وفقدان القوة الرجالية، وتراكم الأمراض، تنقل صحيفة "انقلاب" عن صحيفة بريورتن الهندية: انظروا في حال من يفتخرون برجوليتهم، فهناك ألوف من النساء،

---

(١) صحيفة محشر خيال، دلهي، يونيو عام ١٩٣٥م.

(٢) وهو شذوذ جنسي بين امرأتين، يقابله لواط بين رجلين.

(٣) صحيفة محشر خيال دلهي، يونيو عام ١٩٣٥م.

(٤) صحيفة محشر خيال، يونيو عام ١٩٣٥م.

يتخطبن للبحث عن الرجال الأقوياء، ومع ذلك لايظفرن بأزواج أولي رجولة، فقد بلغ عدد مثل هؤلاء النساء في ألمانيا ٣٥ في كل ألف، وفي أسبانيا ٤٤ في كل ألف، وفي البلقان ٥٠ في كل ألف، وفي سويسرا ٥٦ في كل ألف، وفي بريطانيا ٥٩ في كل ألف، وفي فرنسا ٦٠ في كل ألف، وفي أمريكا ١٥٩ في كل ألف[١].

الضعف العقلي:

وكان من المستحيل أن لاتؤثر هذه الأعمال الخبيثة في العقول والأفكار؛ بل تؤثر أولًا في العقول، كما تكتب جريدة NEWS OF THE WORLD البريطانية في السابع من أكتوبر عام ١٩٢٨م: "بسبب الفتور العقلي قد بلغ مرض الجنون في السنوات الست الأخيرة من ٢٥٤٧٠ ألفا إلى ٦١٥٢٢ ألفا، وفي بداية العام الجاري بلغ نحو ١٣٨٢٩٣ مائة ألف"[٢].

ضعف البصر:

إن البصر هو أكثر ما يتضرر بمثل هذه الأعمال الفاحشة من بين القوى الدماغية، ويكتب الأستاذ بانير عن قوة البصر لدى الأمم المتحضرة في ٢٦ يناير عام ١٩٣٠م:

"إن الإحصائية الجديدة تدل على أنه كان في بريطانيا قبل عشرين سنة خمسةُ ملايين من الناس، يستعملون النظارات، وقد بلغ عددهم الآن نحو ثمانية ملايين أو تسعة ملايين؛ فكأن واحدا في كل خمسة رجال يحتاج إلى نظارة، فعدد ضعفاء البصر مازال في ازدياد"[٣].

---

(١) صحيفة انقلاب، لاهور، المجلد: ٣، العدد: ٣.

(٢) صحيفة سج (الصدق)، ٠٩/ نوفمبر ١٩٢٨م.

(٣) جريدة سج (الصدق)، ٠٧/ فبراير/ ١٩٣٠م.

وهناك تقرير صدر مؤخرا جاء فيه:

"إن كل أربعة رجال في العشرة يستعملون النظارات، واثنان منهم أيضا في حاجة إلى استخدامها، وبعد ٤٥ عاما سيحتاج كل إنسان إلى النظارات، وقد اتفق الخبراء على أن قوة البصر لسكان بريطانيا تضعف باستمرار، وليست بريطانيا هي السابقة في هذا المجال؛ بل تسبقها أمريكا، وتسبق ألمانيا الجميعَ في ضعف البصر"[1].

وهذا غيض من فيض المآثر المادية مما دعا إليه أوربا المتحضرة والمسيحيون المولعون بالتصوير والتزوير، للقضاء على الحقائق الروحية، وكل ذلك جاء بأقلام وألسنة أصحاب الحضارة الأوربية، وقد ظهرت آثارها المدمرة في الجانب الروحي، حيث عادت النفوس الأوربية تستضيء بالفحشاء وعدم الغيرة والزنا والخناء والشهوة والنجاسة النفسانية بدل الاستضاءة بكل من الحياء والغيرة والعفة والتقوى والطهارة وضبط النفس، أما الجانب المادي فقد ظهر أن الرجال عادوا ضعفاء فاقدي الرجولة، ومخزن الأمراض، وفاتري العقول، وكليلي البصر، مما أدى إلى أنه لم تبق أرواحهم ولا أجسامهم صالحة للعمل، وفي تعبير آخر: ذهب دينهم ودنياهم معًا، كما قال الشاعر الأردي:

انہیں موت ہی آئی شباب کے بدلے (بتغير يسير)

ترجمة: جاء موتهم عوضا عن الشباب.

فساد تدبير المنزل بسبب الفواحش:

وكما ظهرت آثارها المدمرة في تهذيب النفس، ظهرت كذلك آثارها الخطيرة في تدبير المنزل، فقد فسد هذا الجانب الهام.

---

(١) جريدة سج (الصدق)، ١٤ فبراير/ ١٩٣٠م

هل هم يستطيعون إقامة حياة زوجية سعيدة؟ هل أمكن أن يكون هؤلاء المفتونون في الهوى أوفياء لزوجاتهم أو تكون لهم زوجاتهم وفيات؟ هل من الممكن أن يكون مثل هؤلاء الرجال فاقدوا الأبصار، فاتروا العقل عضدًا للنساء في الأفراح والأتراح؟ كلا، فقد ظهرت النتيجة مؤسفة، حيث لم يبق هناك نظام منزلي، حجرات الفنادق منازلهم، والمومسات أزواجهم، والاختلاط في الأسواق معاشرتهم، والضحك أمام الناس سرورهم، والكشف عن الأسنان أخلاقهم، فلا صلة بين الزوج والزوجة، لا خلوص ولا نصح، ولا قرابة ولا انسجام، ليست المرأة إلا وسيلة لإشباع الغرائز، ولذا مادامت الشهوة الغريزية قوية، قويت العلاقة الزوجية، ولما خلا الظرف، أو تيسر طريق جديد للإشباع قامت منافرة بين الزوجين، وتفرقت بهما السبل، وتراكمت حوادث الطلاق.

كثرة الطلاق:

ومن هنا يكثر الطلاق في أوربا وأمريكا بشكل مدهش، كما يفيد هذا التقرير:

اسم الدولة أو القارة	حالات الزواج	حالات الطلاق
ففي القارة القطبية الجنوبية (Antarctica(	٢٣٥٠	١٨٤٥
لوس انجليس)Los Anglese(	١٦٦٠٥	٧٨٨٢
مدينة كانساس(Kansas(	٤٨٢٠	٢٤٠٠
اوهايو)Ohio(	٥٣٣٠٠	١١٨٥٨
دينور(Denver)	٣٠٠٠	١٥٠٠
كلوليند(Cleveland(	١٠١٣٢	٥٢٥٦

والمعنى أن نسبة الطلاق بلغت في بعض المدن ٥٠٪ فصاعدًا، وهذا يدل على أن خمسين امرأة في كل مائة امرأة مطلقةٌ(١).

وهذه عاقبة ذلك الزواج الخلاب، الذي عقده أرباب الحضارة الزاهية، والذين لم يسلكوا بأولادهم وبناتهم المسلك الشائك؛ بل ربطوهم بسلك الزواج وفق القانون المدني الحضاري، وبعد كل تدبر ورَوِيَّةٍ، وليس هذا من ذلك الزواج، الذي يعقده الآباء الشرقيون المتخلفون، ومن أجل ذلك لاتبلغ في الشرق نسبة الطلاق ١٪ في كل ألف زواج، مما يجوز لي أن أقول: إن التخلف الشرقي أفضل بكثير من التطور الغربي، فهنيئًا للغرب هذا الزواج الحضاري وما ينتج عنه من ثمار الطلاق المرة.

تكتب جريدة اوريكن ديلي)Oregon Daily(الصادرة عن مدينة بورت ليند)Portland(الأمريكية:

"في عام ١٩٢٧م كانت محاكم أمريكا منشغلة بحوادث الطلاق بشكل، لم يتهيأ لها الانشغال بقضايا أخرى، وقد بلغت قضايا الطلاق بعد عام واحد نحو ١١٠٨٤"(٢).

وعلى كل فإن هذا يسلط ضوءا كافيا على الحالة المنزلية وتدبير المنزل في الحضارة الأوربية، ويشكل دليلا كافيا على أن الحضارة قد دفعتهم إلى البوار والهلاك.

الرغبة في ضبط الولادة:

إن الهوى النفساني المتزايد كما جعل الرجال فاقدي الرجولة، كذلك جعل النساء مولعات بتدابير منع الحمل.

---

(١) صحيفة همدرد، الصادرة عن دلهي، ١٦/ ديسمبر ١٩٢٨م.

(٢) المرجع السابق، ص١٢، فبراير ١٩٢٩م.

وحاصل الحالة المنزلية في ظل هذه الحضارة المولعة أن الرجال قد ضعفت رجولتهم، ونساؤهم يبحثن عن رجال أقوياء، والذين لم تضعف لهم رجولة فهم في عربدة لاتنتهي، مع كل البراءة من زوجاتهم، فهم يطلقونهن من غير رجعة ولا ندم، فهؤلاء المطلقات-هن الأخر- بريئات من الرجال، ثم إذا كان منهم من يريد بقاء الزوجية، فهو يطعم الزوجة حبوب منع الحمل، فوجودها وعدمها سواء، ولما انتهت الصلة بين الزوج وزوجته أو قامت ولكن بلا أثر، أدى ذلك إلى تقلص في عدد الإنسان، حيث تكتب صحيفة بانير (Paner) في ٢٦ من يناير ١٩٣٠م:

انخفاض في عدد السكان:

"إن أحد أعضاء المجلس الحكومي في فرنسا (Chamber Of Deputies) قال في بيان ضاف له في ٢٩ من نوفمبر ١٩٣٠م: "إن ما نراه في فرنسا من انخفاض مدهش في عدد السكان سيؤدي حتما إلى أن الدولة سوف لاتجد بعد مدة رجالا يعملون جنودا على الحدود أو ربابين السفن ولا فلاحين للحقول والمزارع".

وتكتب مجلة إيطالية إحالة على هذا البيان: وما حال إيطاليا؟ فكل عملية الولادة التي حدثت في عام إيطاليا عام ١٩٢٨م جاءت أقل منها في عام ١٩٢٩م بقدر ٢٩ ألف، فإن جرى الانخفاض في الولادة بهذه النسبة فآل أمر بلدنا إلى ما آلت إليه فرنسا، بل أسوأ من ذلك... ثم هذا الانخفاض السكاني لايخص إيطاليا وفرنسا؛ بل يعم كل البلاد الأوربية، فالأرياف عادت إلى ضياع، وسكانها لجأوا إلى المدن واستوطنوها، وسكان المدينة يتسابقون إلى هذا الانتحار القومي والإنساني[1].

(١) صحيفة سج الأردية، ١٤، فبراير ١٩٣٠م.

الخلاصة أن أصحاب هذه الحضارة انشغلوا بالوسائل المادية عن تهذيب النفس والأخلاق، وعن تدبير المنزل وإصلاح الحياة العائلية، فتورطوا في عواقبها الوخيمة، وصاروا مجمع المساوئ وقبائح الأعمال، وهكذا اتضح مدى صحة دعاويهم الطويلة والعريضة بالحضارة والمدنية.

حقيقة سياستهم المدنية:

السياسة المدنية هي الجزء الثالث للحكمة العملية، والتي ترمي إلى الإدارة العامة للبلاد، وحفظ النفس والمال، واستتباب الأمن العام، والهدوء القومي، ونشر التعليم والتربية، وتطوير الصنعة والحرفة، ورفاهية البال ووسائل الترفيه والتجارة.

والأمم المادية جعلت الآفاق ترتجُّ بدعواهم بحسن التهذيب والتدبير، والمعاشرة الرائعة، وبمزاعمهم بحسن السياسة والإدارة؛ ولكن الدعاوي والمزاعم لاتغني من الحق شيئا؛ فإن نتائج الأشياء هي التي تتحكم في حسن الأشياء وقبحها، ولذلك أريد استعراض السياسة الأوربية وما فيها من مساوئ ومحاسن، وما يترتب عليها من آثار ونتائج، وذلك في السطور التالية:

الناس اليوم مفتونون بالآثار اللامعة للحضارة الجديدة، وتقاليد الحكومات المعاصرة المتمثلة في النصح القومي والإيثار والأخوة والمساواة والعدل والرفاهية العامة وما إليها من العناوين البراقة مما يبهر الأفكار ويخطف الأبصار، فنسألهم: ما حقيقة هذه العناوين؟ وما دورها في تحقيق الأمن وحسن المعاشرة؟

كثرة الجرائم:

إن تفكيري الخالص الصادق دعاني إلى أن أقول وبكل صراحة: كلما تقدمت الحضارة في ظل السياسة المعاصرة كثرت الجرائم، والحوادث المدمرة للدين والأخلاق

والإنسانية، حتى أشرفت الدنيا على الهلاك، ولذلك نرى أن كل منطقة تأثرت بالحضارة الأوربية، كثر فيها الدمار والفساد، ونعلم أن أمريكا هي مركز الحضارة الغربية ومهدها، والتي أبهرت العالَمَ اكتشافاتُها وتطوراتها، تكتب عن أمريكا هذه صحيفة تيلي غراف)Telegraph) اليومية البريطانية:

كثرة جرائم القتل والاغتصاب:

"في مدينة لندن يعيش الناس تحت خوف القتل والاغتصاب، ويزيد هذا الخوف في نيويورك بنسبة ٣٦٪، وفي شيكاغو بنسبة ١٠٠٪، ويدل تصريح البروفيسور تاكست دولز أستاذ قسم علم الجريمة)Dept.Of Criminology) بجامعة شيكاغو على أن عدد الجرائم في أمريكا بلغ في العام الماضي نحو مايلي:

- جريمة القتل: ١٢٠٠٠
- جريمة الغصب: ١٠٠٠٠٠
- جريمة السرقة والنقب: ٥٠٠٠٠٠

"حتى في عام ١٩٢٧م قد أنفقت حكومة أمريكا نحو ٢٨مليار روبية للحد من الجرائم، ومع ذلك لم يكن في هذا المال كفاية مطلوبة، ففكرت في زيادة المال وعدد الشرطة.

وقد علق الدكتور هوف مين على ما يجري في الحضارة الجديدة من تزايد في الجرائم في يوليو ١٩٢٨م تعليقًا رائعًا، حيث قال:

"إن جرائم القتل تزداد بسرعة عجيبة عاما بعد عام، مما يشكل عارًا على حضارتنا الأمريكية، وقد تعقَّد أمر الجرائم عندنا يوما فيوما، وفشل النظام في الحد من ظاهرتها المتفشية، وفي عام ١٩٢٧ حدثت جرائم القتل بشكل خطير، لايوجد لها نظير في تاريخ الجرائم".

والتقرير الذي قدمه الدكتور عن الجرائم المرتكبة في أمريكا بين ١٩٠٠م و١٩٢٧م، يفيد أن عدد جرائم القتل في هذه الفترة قد بلغ ١٢٣٣٤ قتلا، وذلك في أمريكا رمز الحضارة وأم الحرية.

وليست هذه الإحصاءات من نسيج خيال أعداء هذه الحضارة؛ بل قدمته الدوائر الحكومية في أمريكا، مما نشرته مجلة تيلي غراف البريطانية في ٠٤ من شهر أغسطس عام ١٩٢٨م.

فما ظنك -يا أخي القارئ- بالأمن العام وتهذيب العقول والنفوس في أمريكا، حيث تبلغ جرائم القتل ألوفًا، وجرائم السرقة مئات الآلاف، حيث ضاع النصح والإيثار، وماتت الضمائر وتبلدت المشاعر، ويعتبر هذه الحيوانات الإنسانية أناسا متحضرين، كيف نسلِّم بوجود أفكار سليمة وعقول متحضرة؟

الأسلحة الفتاكة المتطورة والحوادث المدمرة:

قد تم ذكر إحصائيات الجرائم التي جرت في عدد من الدول المتحضرة، وعلى هذا تقاس أوضاع كل الدول الأوربية والأمريكية، ثم لا يخفى على كل إنسان خبير ما قامت به الحكومات المتحضرة المعاصرة في الحروب الأهلية والعالمية من تدمير وإبادة، حتى عادت الحروب النووية أو ذات الأسلحة الفتاكة أكبر مظهر من مظاهر القوة والتحضر، مما جرَّ على العمران الإنساني ويلات تلو ويلات، وقد لخَّصت مجلة "بجنور" مآثر هذه الحروب وهذه الحضارة الراقية ذات العقول النيرة في ١٧ من شهر نوفمبر ١٩٣٦م فيما يلي:

"إن قوات حلف شمال الأطلسي المحتوي على كل من روسيا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وأمريكا واليابان ورومانيا وسرويه وبلجيم واليونان والبرتغال والمانتي نغرو

وما إليها تبلغ ٤٢١٨٨٨١٠ جنود، وقد تم علي أيديها قتل ٥١٥٧٣١٥ إنسانًا، أما المصابون فيقدر عددهم بـ ١٢٨٣١٠٠٤إنسان، وقد وقع نحو ٤١٤١٠٩٠ إنسانا في الأسر، كما أن قوات الفريق الثاني المتمثل في ألمانيا وأستريا وهنغري وتركيا والبلغارية بلغت ٢٣٨٥٠٠٠، وبلغ قتلاهم ومصابوهم نحو ٥٤٠٤٤٧٧إنسانا، وهكذا بلغ عدد ضحايا الحروب من الجانبين ٣٠٤٩٩٣٨٦ إنسانًا، بنسبة ٥٧٪، وجاء العلم الحديث)Science) نذير دمار لعمران بلاد علماء العلم الحديث، ثم لا يرضى هذا العلم ولا أصحابه ولا أولو هذه الحضارة بالتوقف عند أي حد، فهم لايزالون في إيجاد الأسلحة الفتاكة المدمرة للعباد والبلاد، وقد قال السيد استودن وزير المالية البريطاني في تقرير قدمه ٠م عام ١٩٣: إن الدنيا المتحضرة تنفق حتى اليوم على الشؤون الحربية نحو تسعة ملايين جنيه)Pound)، ما يعادل ١٢مليار روبية، وبريطانيا وحدها تخصص للمصلحة الحربية يوميا ١٤٤٠٠٠٠جنيه، أي ألف جنيه إسترليني في كل دقيقة[1].

إذًا ماذا أقول بشأن السياسة المدنية في تلك الحضارة التي تنفق للقتل والإغارة ١٣ ألف روبية في كل دقيقة، وحتى اليوم كان الناس يحسبون كلا من جنكيز خان وهولاكو خان ويزيد الأموي والحجاج بن يوسف الثقفي ونيرو[2] ونيبال[3] رموز الظلم والاعتداء، وذلك لأن الدنيا الأوربية المتحضرة لم تكن ظهرت على منصة الوجود؛ ولكن اليوم تؤكد الإحصائيات الجديدة بأن جميع المظالم والاعتداءات الماضية تمثل قطرة في بحار

---

(١) جريدة سج (الصدق) بالأردية، ١٧/ مارس ١٩٣٠م.

(٢) نيرو ملك رومي، حكم روما في الفترة بين ٥٤م – ٦٨م.

(٣) نيبال، لم أطلع من بعد على المسمى باسم نيبال، ممكن أن يعني بها الشيخ نابليون.

المظالم والاعتداءات التي تمارسها هذه الحضارة، فلو كان الملوك الظلمة في الماضي استفادوا من نور الحضارة الأوربية لكانوا في ظلمهم أرقى وفي اعتداءاتهم أسبق.

دمار العالم بالأسلحة الحديثة:

إن الازدهار المادي لأوربا قضى على أكثر من نصف سكانها، أما بقية سكانها فما يواجهونه من مصائب ومشاكل ناشئة عن العلم الحديث ومعالمه المتمثلة في كل من المصانع والقطارات والطيارات والكهرباء والغاز وما إليها، ليس بأقل من مصائب القتلى والهلكى، بل يفوقها بكثير.

جاء في صحيفة تيلي غراف اليومية في ٠٤/ أغسطس عام ١٩٢٨م: "في مركز حضاري كأمريكا بلغ عدد قتلى الدهس نحو ٢٥٠٠٠٠، وعدد المصابين ٥٠٠٠٠٠".

وكتبت مجلة Tenth Century في مايو ١٩٢٧م:

إن مصابي الحرب العالمية الأولى بين ١٩١٤م-١٩١٩م بلغ عددهم في بريطانيا ١٦٩٣٢٦٢، والمصابون بحوادث مختلفة في تلك الأيام بلغ عددهم ٢٣٨٥٧٦٦، وبلغ عدد الهلكى في المصانع والمعامل في أوربا بعد الحرب العالمية بسبع سنوات نحو ٢٩٢٦٣، وبلغ عدد الجرحى نحو ٢٨٥٨٣١، وأقيم لهم صندوق الدعم، يسهر فيه العلماء لياليهم؛ ولكن ما كانت الحوادث لتنتهي، بل تزيد مع الأيام، وهذه الإحصائيات تفيد أن ٨٥٠ إنسانا يصاب بالجروح في بريطانيا يوميا، وكل ذلك بسبب الاكتشافات العصرية والتسهيلات الحضارية.

حوادث السيارات:

في عام ١٩٢٦م في مدينة لندن وحدها بلغت حوادث السيارات المدمرة نحو ١٠٠٣، مما أسفر عن عدد كبير من القتلى، لايعلم عددهم إلا الله، وبلغت حوادثها

غير المدمرة ٤٦٠٣٦، ولايدرى عدد الجرحي بالضبط أيضا. وفي شوارع بريطانيا وويلز حدثت ٤٣٠٧حادثة مدمرة، و٢١٧٨٢ حادثة غير مدمرة.

حوادث المراكب الأخرى:

وفق صحيفة "نيوز آف دي ورلد" الصادرة عن لندن، ١٠ يوليو ١٩٢٨م: "فإن خمسة ملايين نفس تلقى حتفها على شوارع بريطانيا في عام واحد، ونحو ٢٠٠٠٠نفس تتعرض للإصابة بالجروح، ونسبة قتلى حوادث السيارات -بغض النظر عن عدد الجرحي والمصابين- يبلغ ٣ نفوس يوميا في مدينة لندن ، و١٢ نفسًا في بريطانيا كلها، ومع تطور الوسائل والآلات تتطور الحوادث وتتزايد المآسي، حيث زادت الحوادث في مدة ست سنوات بنسبة ٥٥٪ في الحوادث المدمرة، وبنسبة ١٢٥٪ في الحوادث غير المدمرة.

وهذه الإحصائية تحتوي على ما حدث بسبب سيارات الشوارع، أما حوادث صدام القطارات وغرق السفن وانهيار المعامل والمصانع وانفجار خزانات الغاز، وما إليها من الآلات العصرية المدمرة فلا تحويها هذه الإحصائية، ولا يعلم عددها إلا الله"[١].

فقدان السكينة القلبية بسبب الاختراعات الجديدة وكثرة الانتحار:

ما كان نور الحضارة الخلاب ليضيء ظلام الحياة الإنسانية، ولم تستطع هذه الثروة الطائلة إراحة القلوب والضمائر، إن المتمعين بآثار الحضارة وأنوار المدنية المعاصرة قد أظلمت قلوبهم بالشرود الفكري والاضطراب الذهني، كما ذكرتُه آنفًا،

(١) صحيفة سج، ٢٣ يوليو ١٩٢٨م.

ومن حُرم أنوارَ الحضارة بسبب فقرهم وقلة بضاعتهم فهم الآخرون قد اضطرب أمرُهم وغاب هدوؤهم، والمعنى أن السكينة القلبية لاتتهيَّأ لكلا الفريقين، لا للمتنعمين ولا للمحرومين، ومن الأسف أنهم لم يجدوا غير الانتحار سبيلًا ومَخْلصًا، حتى عاد الانتحاد لدى سكان أوربا وأمريكا المتحضرة عادةً قوميةً، كما نبه عليه الدكتور "هوف" في إحدى مقالاته، حيث يكتب:

"إن نحو ١٨٠٠٠ نفس تكون ضحية الانتحار في أمريكا كل عام، أما الذين حاولوا الانتحار وفشِلوا فلا نجد مصدرًا يفيد عددهم؛ ولكن يُقدَّر بـ ٣٠ ألف ضحية، والمعنى أنه يوجد في الدولة كل عام ٥٠ ألف إنسان مختل عقليًا".

ويضيف الدكتور قائلًا:

"إن نسبة المنتحرين في مائة مدينة بريطانية هي ١٥ في كل مائة ألف إنسان، وهذا في عام ١٩٠٠م، وبلغت هذه النسبة في عام ١٩٣٠ نسبة ٢٠ في كل ١٠٠٠٠٠، بالإضافة إلى القتلى والهلكى بسبب القفز من السقوف والسطوح، وبالإضافة إلى الحوادث الكثيرة التي اجتمع فيها القتل والانتحار".

ويضيف: "إن المجتمع هو المسؤول عن أكثر حوادث الانتحار، فإن نفاق حضارتنا هو مصدر مثل هذه الحوادث، وهو الذي ينتج مجموعةً من المشاكل، يلجأ ألوف من الناس للفرار منها إلى الانتحار طوعًا أو كرهًا"[1].

الحاصل أن الحضارة الجديدة وما فيها من آثار مدمرة أو مغريات فتاكة تدفع الحياة الإنسانية إلى الضياع والهلاك، وبذلك يتقلص نطاق هذه الحضارة.

(١) مجلة معارف الصادرة عن أعظم جراه الهندية، المجلد: ٢٨، العدد: ٢، أغسطس ١٩٣١م.

عاقبة الحضارة المعاصرة وخلاصتها:

إن إحصائيات الحوادث والجرائم تكشف عن حقيقة الأمن العام في البلاد المتحضرة، ثم كثرة الحوادث تدل على ما للإنسان الأوربي والأمريكي من شرود فكري وتشتت قلبي، وغياب الهدوء والسكينة، وبذلك يتضح أن الأمم المسيحية قد تمسكت بالمادية على حساب الروحانية؛ ولكن جرَّت المادية عليها وبالًا عظيمًا، حيث استحكمت أسس الإبادة والانتحار القومي، فعاد من الصعب الإبقاء على الحياة الإنسانية، فالعقلية المفتونة بالهوى النفساني قد هجم أولًا على الزواج، الذي كان سببًا عظيمًا للتناسل البشري، ثم الزواج الذي عُقِدَ لم يعد سببا للتناسل، فقد أفسدته كثرة الطلاق، والذي بقي من الطلاق أفسدته وسائل منع الحمل، وإذا جرى التناسل وخرجت نفوس بشرية فكان بعضهم ضحايا الفوضى والقتل والإغارة والاغتصاب، ومن نجا منها صار فريسة وسائل العلم الحديث المتمثلة في كل من المعامل والآلات والقطارات والسيارات والكهرباء والسكك الحديدية وما إليها، والأشقياء الذين خلصوا منها تورطوا في الحروب المدمرة وتعرضوا لأسلحتها الفتاكة، من الرشاشات والغازات السامة، والأسلاك ذات الأشواك، ورصاصات البنادق وقنابل الطائرات، وما إليها.

ثم البائسون الذين تخلصوا مما ذكر استهوتهم أهواؤهم النفسانية الجامحة، وأغرقتهم في بحار من الأمراض الجسمانية والنفسانية من فتور في العقل، وضعف في البصر، وخلل في الرجولة، وتشتت في الأفكار، وشرود في العقل، وتشوش في الخاطر، مما دفعهم إلى البطالة أو الانتحار، وكثرة الأموات.

وإذا كان منهم من تخلص من كل هذه الآفات والبليات الأرضية والسماوية وبقي صحيح الدماغ قوي الجسد، انشغل ليل نهار بشؤون العلم الحديث والاختراعات الجديدة، التي تجرُّ على الدنيا وحتى على الموجدين والمخترعين وأقاربهم مصائب كثيرة، منها أن تنسد أولًا أبواب التناسل البشري، ثم يتقلص ثم ينعدم، ولذا أمكنني أن ألخص مآثر هذه الحضارة في كلمتين: فئة تَقْتُل، وفئة تُقْتَلُ، فئة تحُدُّ السكين، وفئة تُسلِم رأسه، وهكذا تجري عملية القتل والموت بكل هدوء وسكون، وتتكاثر أمثال الانتحار والتقتيل، وهذه العمليات هي التي تسمى بأسماء براقة، نحو التهذيب والنصح، والإيثار، والمواساة، والأخوة والمساواة والعدل والرفاهية، أوَ إلى هذه المظاهر الأوربية يدعونا المتنورون منا؟، أهذا هو التنوير الفكري، الذي من حاد عنه استحق كل الأوصاف القبيحة، ألهذا يُتَّهم العلماء والصلحاء بمطاعن كثيرة؟ وتقام منظمات مخالفة للمولوية (Anti-Mullaism)، ويعاب الدينُ وأهله، وتُوْأد الشعائر الروحية، وتعتبر الحياة المصحوبة بالتقوى والطهارة والحيطة حياةَ الضيق والتخلف، ويُتخذ هُزُوًا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من أخلاق وأعمال؟ وتُصنَّف ضمن الحائل دون الازدهار الحضاري، والمخل بالمعالم المتطورة، فنسأل هؤلاء المتنورين: لماذا هذا السلوك؟ وعلى أي أساس هذا الموقف القاسي؟ أتدعوننا إلى هذه المظاهر، التي كشف العلماء الأوربيون بدورهم عوارها وفسادها؟

ماذا يقول حماة العلم الحديث واختراعاته الحديثة؟

إن بعض الناس لايجترئون على الطعن الصريح في الدين وأهله؛ ولكنهم يشيدون بالعلم الحديث والاختراعات الحديثة بشكل يجعل الدين أمرًا تافهًا وغير

لازم للازدهار الإنساني، أو شيئا مساويًا للعلم الحديث، وإن كان الدين يفوق العلم الحديث فالعلم الحديث هو الآخر لازم في مجاله بحكم كونه قوام الحياة المعاصرة.

ينصح الناس للعلماء بأمور يرونها تضمن للأمة الإسلامية الرقي والازدهار، ومن أهمها:

- وجوب التمسك بالعلم الحديث (Science).
- وأن المقررات الدراسية في المدارس ستبقى مظلمة ما لم يصحبها النور العلمي الحديث.
- وأن من أهم مظاهر تقصير وغفلة علماء الدين أنهم رفضوا العلم الحديث السائد في مجالات الحياة كلها، وألقوا الأمة على طريق التخلف، وجعلوها في ذيل الأمم ومؤخرة قافلة الحضارة.
- وأن كل انحطاط المسلمين يرجع إلى قلة اعتنائهم بالعلم الحديث، وإلا كان المسلمون يحكمون العالم كأوربا وأمريكا، ويقبضون على مقاليد التجارة، ويديرون دفة الأمور.
- وأن كثيرًا من الآيات القرآنية تحتوي على ذكر العناصر الأربعة والمواليد الثلاثة: الأرض والسماء والقمرين، وتُبين أن الكون كله مسخر للإنسان، فعدم التركيز على تسخير الكون والانشغال عن الانتفاع بالقوى المادية يعارضان تصديق القرآن الكريم، ويدلان على عدم عظمته في القلوب، ومن أجل ذلك بات من الضروري أن تتمسك الأمة المسلمة بالعلم الحديث ومخترعاته، وتتمهر فيه، وتنافس أوربا في الشؤون الاقتصادية والسياسية، لتحرر بلادها الهندية من الاحتلال الإنجليزي، وتفرض سيطرتها على العالم، وتتنفس الحرية المنشودة.

هذه خلاصة المقترحات والآراء التي يوجهها الناس المأخوذون بسحر العلم الحديث إلى العلماء، ولانشك في إخلاصهم؛ ولكن الإخلاص في القول والنصح لايجعله واجب القبول ما لم يتم إخضاعه لمعايير العقل والمنطق.

فيجب أن نفكر: إذا كان من آثار العلم الحديث ومخترعاته ما أكد به علماء ومفكرو أوربا في تصريحاتهم كما ذكرته آنفا، فعلى الرغم من هذا كله هل يجب على العلماء الأخذ بهذه المشورة؟ وما الذي يضطرنا إلى أن لا نعتبر بأقوال المفكرين الأوربيين ونجرب بأنفسنا، وندفع طلابنا إلى الاكتواء بنار مخترعات العلم الحديث، فنكون نحن وهم ضحاياها؟.

مع أن التجارب أكدت والدنيا شاهدت بأم عينيها عواقب هذه الوسائل غير الطبيعية، وكان العلماء كانوا يعرفونها بفراستهم من قبل، ولم يدخروا وسعًا في وضع الحد من انتشار هذه الظاهرة، وبذلك لقَّبهم المتنورون بضيق النظر وتخلف الفكر، فإن كان العلماء لم يهتموا في ضوء فراستهم أو تعاليم دينهم بهذه الحضارة المعارضة للفطرة فكانوا على حق؛ ولكن المثير للعجب أن الذين كانوا يصدرون في كل شي عن الإلهام الأوربي رافضين أقوال العلماء عرض الحائط، ما بالهم اليوم يتنكرون لأقوال المفكرين الأوربيين وتجاربهم العلمية، وينكرون مضار العلم الحديث ولايهتدون سبيلا؟ ويصفون العلماء حتى اليوم بالتخلف وضيق النظر؟ فإن كلَّ ما قدمتُه في بيان المعطيات السلبية للحضارة الأوربية هو أفكار وأقوال المفكرين الأوربيين المتقدمين دون العلماء المتخلفين، فما الذي دعا هؤلاء إلى إهمال هذه الأقوال؟ وهل من دليل أقوى من دليل المشاهدة والتجربة؟

العجيب أن أصحاب الحضارة يبكون حضارتهم وعواقبها، وأتباعَهم في الشرق يتفانون في سبيلها، ويستميتون في الوقوف على عتبه هذا الخراب المظلم على حساب عمرانهم الروحي وبيوتهم المشرقة، وصدقت جريدة "الصدق" إذ قالت:

"من دواعي العجب أن أوربا إذا دعتها تجاربها إلى رفض نظرياتها واضطرت لذلك، ففي نفس الوقت ينهض في دولتنا الهندية أناس -يصفون أنفسهم بـ "التنوُّر الفكري والتجدد العقلي"- ليلعقوا ما قاءت به أو رمت به أوربا، ويأكلوه بكل رغبة ونهم، ويستروا أجسادهم بثيابهم البالية، في الواقع ليس للعبودية الفكرية والخنوع العقلي حد ونهاية".

إن العبودية الفكرية تغزو أولًا الفكر والوعي، فإن صاحبها لايسعه إلا أن يكون لسان مولاه من غير وعي وبصيرة، ولايرجع إلى عقله ورشده لا في قليل ولا في كثير، ويردد كلامه صباح مساء.

وقد قال الميستر "كليد ستون" على مرأى من الناس ومشهد رافعًا القرآن الكريم بيده: "لن تتحضر الدنيا ما دام هذا الكتاب باقيًا"[1]، وقال اللورد ميكالي عند ما وضع خطة تعليم جديدة في الهند، في مقابل التعليم الديني الشائع في المدارس الإسلامية: "نريد تخريج شباب، هندي اللون والعرق، فرنجي الفكر والخيال[2]، فتناقل هذه الجملة أولئك المفتونون بالحضارة الغربية منا، وحصروا كل نوعٍ من أنواع الرقي والفلاح في التعليم الأوربي الجديد وفي رحاب مدارسها العصرية، وبما أن العلماء كانوا

(١) صحيفة مدينة بجنور، الهند، ٢٨/ يناير/ ١٩٣٦م.

(٢) المرجع السابق.

ينبهون على ما يحمل هذا النوع من التعليم من معطياتٍ سلبيةٍ ونتائج مدمرةٍ ويركزون على تعليم الكتاب والسنة، الذي يضمن سعادة الدنيا والآخرة فاتُّهموا بضيق النظر والتخلف، والحق أن العلماء كانوا يمنعون الناس من الوقوع في الهوة السحيقة بكل إخلاص وتفانٍ، في حين كان الآخرون يعتبرون التعليم العصري أمرًا ربانيًا، ويدافعون عنه في المجلات والرسائل.

ثم إذا جرت في أوربا موضة الأزياء والملابس القصيرة، وخفيت الأهداف والمقاصد، وصُنِعَت أساليب جديدة للشوارب واللحى، وعمت هذه الظاهرة الشرق والغرب، تهافت عليها كثير من الناس ظانِّين أنها أسرار الحياة الجديدة، واتهموا العلماء بنفس التهم لكونهم كانوا يدعون الناس إلى التمسك بملابس الصلحاء والمزايا الشرقية، حتى صارت هذه الموضات هي الأخرى بمنزلة الأمر الرباني، وباتوا يكتبون مقالات طويلة لرفض حديث "من تشبه بقوم فهو منهم" روايةً ودرايةً، كما قرأنا بعد ذلك مقالات تدعو إلى قص شعر النساء لكونه من سنة أزواج النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم.

ولما فشا الربا في أوربا، وانتشر في الشرق والغرب النظام الاشتراكي الربوي للتجارة، تلقَّف المفتونون بالغرب هذه الفكرة، وقرَّظوا هذا النظام، واعتبروه ضرورة الوقت، وقِوام فلاح المسلمين، وأكدوا بأن المسلمين ماداموا لم ينخرطوا في نظام الاقتصاد الأوربي لن تتمهد لهم طريق الفوز والفلاح، وبذلك أنزلوا النظام الربوي منزلة النص الرباني، ورموا العلماء بأنواع من التهم لكونهم حالوا دون انتشار هذه الظاهرة في المسلمين.

وبعد ذلك انتشر الزنا والخناء في أوربا، وأقيمت لها نوادٍ ومحافل، سلبت المرأة حجابها وعفتها، وفتحت للرجال باب الاستمتاع بالنساء على مصراعيه، فقام أذناب الغرب في الهند، ليجعلوا من سفور المرأة مبدأً هامًّا من مبادئ الرقي الملي، يوافق النص والعقل، ومع الأيام أصبح السفور والتبرج سنة القرون الأولى، ووُضع الرافضون لفكرة السفور في قفص الاتهام بالتخلف، وعاد من الضروري لكل إنسان يريد لنفسه التطور أن تخرج نساؤه وبناته سافراتٍ، وظل العلماء البائسون ضحية الاتهامات والافتراءات كالسابق، فإنهم أكدوا بكل قوة بأن هذا السفور يدعو إلى الزنا، وخراب البيوت العامرة، ودمار نظام الأسرة، كما يدافع أتباع الغرب في الشرق عن العلم الحديث ومخترعاته، عن طريق المقالات والصحف، ويأبون إلا أن يتم إدخاله في المقررات الدراسية في المدارس الإسلامية، فإنهم آمنوا بأن الرقي منحصر في العلم الحديث ومخترعاته، والمسلمون بدون هذا العلم لن يتنور لهم عقل، ولا يتهيأ لهم رقي وازدهار، حتى جعلوا المخترعات العصرية كلها بمنزلة المنشأ الرباني، واتهموا العلماء بضيق النظر والإهمال والبطالة، لكونهم لايرغبون في هذا اللون من الحياة، ولا يدعون الناس إلى اختيار هذا المنهج.

وعلى كل فتجدُّد القوم قديم، كقدم جمود العلماء، فليس حديثا تورُّطهم في حبال الإفرنج، ولا اتهامهم العلماء بضيق النظر والأفق، فجريًا على عادة العلماء وصبرًا على هذه الاتهامات لايسعني إلا أن أقول: إن العلماء لم يعتبروا الوسائل الحضارية الغربية وسائل حقيقية للرقي والازدهار، مهما تألَّقت وتأنَّقت، سواء كانت قضية تعليم أم قضية موضة الأزياء أم نظام الاقتصاد الربوي أم حرية النساء أم التجارب العلمية أم المخترعات الحضارية، وجمدوا على موقفهم وصبروا على ما

أصابهم من تهم وافتراءات، وقالوا بكل وضوح: إن من يدعو الأمة إلى التهافت على الحضارة الغربية لايدعوها عن علم وبصير، بل عن عبودية فكرية، وخنوع عقلي، وتقليد أعمى، فإن كان من الناس من يدعو اليوم إلى مثل هذه الأمور فنقول فيه كما قلنا فيمن قبله، ونعتبر هذه الدعوة ناشئة عن التبعية الفكرية للغرب في غفلة وتقليد، فهي في الواقع صدى ما يردده الغربيون، وعلى هؤلاء المقلدين للغرب أن يسألوا ضمائرهم ويفكروا: هل اتخذوا موقفهم هذا بعد تدبر علمي حر للقرآن الكريم أم تلقفوه من الغرب وحاولوا إخضاع القرآن لهذا الموقف بكل شطط وتعسف أو هل أخذوا من القرآن شيئًا أو أدخلوا فيه شيئا؟ أسئلة نتركها لهؤلاء المقلدين، فليفكروا ويأتوا بإجابات صحيحة.

ولنتفكر بأسلوب منطقي: هل الاختراعات الحديثة للحضارة المعاصرة المتمثلة في آلات وأدوات الغاز والكهرباء، والبخار والبترول تُحَقِّق الغرض الرباني من تسخير الكون للإنسان؟ أ هذه المنتجات المعاصرة هي التي أرادها الله سبحانه بتسخير الكون الذي هو موضوع مستقل في القرآن؟ ثم يجب أن نفكر: إذا كان هذا هو الغرض الرباني، فهذا الغرض تشريعي أم تكويني؟ فإن كان إيجاد الاختراعات من الأغراض الربانية التشريعية، بحث تطلب الشريعة الإسلامية إيجادها ونشرها فكلنا يعلم أن العصر النبوي وعصور الخلفاء الراشدين هو أفضل عصر لتحقيق الغرض الرباني والامتثال لأوامره ونواهيه، فقد لقَّبَ لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذه العصور بخير القرون بسبب الإطاعة والامتثال، فلو كانت المخترعات مطلوبةً شرعًا، لكان من اللازم وجودها في القرون الأولى بكثرة معدومة النظير،

ولكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقام بنفسه لجنة للسفور، أو أنشأ عددًا من البواخر أو دار السينما لتبليغ أمر التصور أو جهاز التليفون، ليتم به تبليغ الدين بسرعة إلى البلاد النائية أو أنشأ مذياعًا أو الراديو، ليستمع الناس كلهم إلى خطبة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في وقتٍ واحدٍ، كان من اللازم أن يفعل كل ذلك بدوره، ليضع منهجًا صناعيًّا لأمته، كما أقام لهم منهجًا في الأخلاق والتربية، ليقيم حجةً على العلماء، فيكونوا متهمين بكل انواع التهم اللاذعة بترك التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم؛ ولكن على العكس من ذلك رأينا في تلك العصور أن الصحابة رضي الله عنهم بعد فتح البلاد القيصرية والكسروية، حاولوا طمس المعالم الحضارية لدى تلك الأمم، وصَبْغَ الناس وثقافاتهم بصبغة إسلامية عربية ساذجة، فاقرأوا تاريخ الصحابة وسيرهم، تجدوا في حياتهم سذاجة في المدنية، وتقشفا في المعاشرة، وقلة في التكلف والأسباب والأدوات، حتى "إن خرج منهم واحد في عصرنا واطلع على ما نحن فيه حَسِبَنَا كفارًا، وحسبناه مجنونا كما قال الإمام الأوزاعي.

وعلى كل فإنا إذا لم نجد في خير القرون منهجًا أو خطة أو مشروعًا للمدنية المادية المزيفة الغارقة في إرضاء الهوى وإشباع النفس فاقبلوا معاذيرنا بعدم اعتبار هذه الحضارة ومعطياتها غرضًا ربانيًّا، ومن هنا يتضح أن فقدان المعطيات الحضارية العلمية لايؤدي قطعًا إلى انحطاط المسلمين، فإنه لوكان سببًا للانحطاط كان وجودها سببًا للتقدم، مما ينتج أن العصور الزاهية للمسلمين هي التي أحرزوا فيها قصب السبق في الأمور العلمية الحضارية؛ مما ينتج أن المسلمين لم ينالوا في تاريخهم نوعًا من الازدهار والرقي؛ فإنهم لم يعرفوا هذا اللون من الحضارة ذات المخترعات

والأدوات المتوافرة؛ بل هذا يستلزم أن تُعتبر "خير القرون" أحط أدوار المسلمين حضارةً وثقافةً، فإن الصحابة رضي الله عنهم قد حاولوا القضاء على المعالم الحضارية فضلًا عن إقامتها، هذا ما يحوِّل خير القرون إلى شر القرون دينًا وسياسةً، والمعلوم أن الحضارة المعاصرة التي تقتضي أن تكون خير القرون شر القرون لن تكون معيارًا إسلاميًّا، فلايكون العلم الحديث ولا مخترعاته معيار الحق والباطل، ومعيار الصحيح والفاسد، فإن مقتضاه يطمس معالم التاريخ ويذهب برواء خير القرون.

وعلى كل فإن العلم الحديث وتطوره لايمت إلى الإسلام بصلة، فليس تطوره بتطور الإسلام، ولا ضياعه بضياع الهوية الإسلامية، نعم هناك أسباب وعوامل، تدفع المسلمين إلى الانحطاط والتخلف، لا مقام لذكرها هنا.

فإذا كانت مآثر الاختراعات الطبيعية لم تعد مطلوبة شرعًا، فالآن بقي أن نفكر في إمكانية أن تكون مطلوبةً تكوينيًا، وإن كان المطلوب بشكل تكويني لايؤثر في دعواي بعدم كونها مطلوبة شرعًا، فكون الشيء مطلوبا تكوينيا لايلزم أن يكون مطلوبًا شرعيًا، فمن الإمكان بكثير أن يكون الشيء مكروها شرعًا، ومطلوبا تكوينيا، كالكفر، الذي يُكره وجوده شرعا، ويُطلب وجوده تكوينيا، إن الشياطين وأعمالهم جارية تحت إرادة إلهية تكوينية؛ ولكنها غير مرضية شرعًا، وبناءً على ذلك ممكن أن يَّكرهَ الشرع هذه الحضارة ومخترعاتها وتسهيلاتها، وتطلبها الإرادة الإلهية التكوينية، ولسنا مكلفين بإيجاد المطلوب التكويني، فإنا مكلفون بأقوال الله، ولسنا مكلفين بأفعال الله.

وإن قيل: إن العلم الحديث وتطوره من شأنه أن يحقق أهم المقاصد الدينية، ويوضح بالأمثلة الحسية الحقائق الإسلامية المعنوية، ويؤيد الدين الإسلامي بأكثر

من حجة وبرهان، أفلا يكون ذلك بعد هذا كله مطلوبًا شرعيًا؟ قلت: إن كان فجور فاسق يدفع إلى ما يؤيد الدين، فلا يكون ذلك الفجور مطلوبًا شرعيا، إن كان عناد الكفار وجحودهم يأتي دليلًا على القوة المعنوية للإسلام، فلايستحسن ذلك العناد والكفر، وهكذا إن كانت مخترعات العلم الحديث –وهو من أهم معالم الحضارة النصرانية– أتت بما يؤيد الدين بشكل من الأشكال، فلا يعني أن هذه المخترعات مطلوبة شرعًا.

وإن قيل: إن العلم الحديث قد هيمن على جوانب الحياة البشرية كلها، حتى عاد إهمال الوسائل العلمية بمنزلة الانتحار، قلت: ليس عندي دليل معقول أو محكم لهذه الحاجة الماسة إلى العلم الحديث، وقد اتضح بالسطور السابقة أن القضايا والاختراعات العلمية هي التي أفسدت على الإنسانية حياتها، وسلبتها هدوءها، وعرَّضتها للخطر الداهم، مما أبكى أبناء هذه الحضارة، فمن الذي يعتبر اليوم هذه الوسائل المدمرة للحياة والهدوء من حاجيات الحياة البشرية؟، وهل لهذه الوسائل غاية سوى إشباع الغرائز لثوان ودقائق، تتبعها حسرات دائمة، وعبرات قائمة، فنشر هذه المدمرات باسم الحاجيات ليس عندي إلا نوعًا من الجنون، والجنون فنون.

المخترعات العصرية ليست قوام الحياة البشرية:

تدبَّر أن الضرورة تؤدي معناها كلمة "ما لابد منه"، أي ما تتوقف عليه الحياة، أو لا يمكن حفظها بدونه، أو لاتتهيأ الراحة بدونه، ولا شك أن كل إنسان–شرقيًّا كان أو غربيًّا– يضطر إلى اختيار مثل هذه الأمور، ولا يخفى أن المخترعات العلمية ليست بهذه الدرجة من الحاجة أو الضرورة، حتى يضطر كل إنسان إلى اختيارها، وهذه الوسائل متوافرة اليوم في أوربا أكثر منها في آسيا، ثم تتوافر هذه الوسائل في المدن دون الأرياف،

فالريفيون يعيشون على سذاجتهم المتوارثة، فهل فقدان هذه الوسائل أفسد حياتهم أو عرَّضهم للخطر؟ كلا؛ بل التفكير يفيد أن ما تيسَّر للريفيين من هدوء وسكينة وطيب خاطر بلا كهرباء وبواخر، لايتيسر للحضريين، فلو كانت المخترعات الحديثة أشياء لازمة لقُضي على الريفيين، وليس الأمر كذلك؛ بل العكس من ذلك إن الحياة حياتهم، حيث تتحكم السذاجة الفطرية في كل شأن من شؤونهم، فما الذي يمنعني إذًا من تسمية هذه الوسائل بالفضوليات؟ أ لِفقدان هذه الفضوليات تُتَّهم مدارسنا بنقص وخلل في التعليم والتربية، ولأجلها يُتَّهم علماؤنا بضيق الفكر والتخلف؟

المخترعات الحديثة ليست قوام الحكومة والسياسة:

أما أن المسلمين متخلفون ومكبَّلون بأغلال العبودية بسبب فقدان الوسائل العلمية، التي بها هيمن الغرب على العالم كله، فالغرب مدجج بالوسائل العصرية الحضارية من مفرق الرأس إلى أخمص القدم، من المدافع والبندقيات والطيارات والآلات والأدوات، أما المسلمون فيعوزهم كل هذه الوسائل، إن رسا أسطول بحري على مرفأهم، لايجدون أسطولا مدافعا، وإن قصفت طائرة مدينتهم، تحتَّم عليهم الموت، فهُم عبيد ولا محالة، والغرب ذو الخبرة العلمية يبرُزُ فاتحًا منصورًا، أوَ لم يعد حاجة من بعد للتغلب على هذه الوسائل وجبر هذا الخلل؟ ولكني أقول وبكل جلاء ووضوح: إن تخلف المسلمين وخنوعهم ليس ناشئًا من فقدانهم هذه الوسائل؛ بل لتركهم ما نيط بهم من فضائل ومكرمات.

أسباب التخلف الاقتصادي للمسلمين:

إن الدمار الاقتصادي يرجع إلى إسرافنا وتعدينا الحدود في الإنفاق، لا إلى الوسائل الأوربية الحديثة، وإلا فكيف تغلبت أوربا على هذه الوسائل، والواقع أنا

مسؤولون عن هذا كله، إن إسرافنا وخلافاتنا وسوء معاملاتنا وظلمنا ومهادنتنا وفقدان الحمية والغيرة وجهلنا؛ أمور دفعتنا إلى هوة العبودية، وسلبتنا القوة والشوكة، واختطفها الغرب، فتغلب على الوسائل، فحرماننا ليس مصدره الوسائل الأوربية المعاصرة، بل هذه الوسائل الأوربية نشأت في الدنيا بعد أن حُرِمناها، فلولا سوء الأخلاق والإسراف في الإنفاق لما كانت هذه الوسائل بيد غيرنا، بل كانت بأيدينا.

فإن قمنا بالإصلاح ونشدنا الصلاح، وركَّزنا اهتمامنا على السذاجة الفطرية في المأكل والملبس والمنزل، وتركنا التكلف في الحياة، والتأنق في المظاهر، والتخنث في السلوك؛ بل حرصنا على منهج إسلامي سليم، متمثل في القناعة والسذاجة وقلة التكلف، وخشونة العيش والاقتداء بالسلف الصالح، أفضى ذلك طبعا إلى إغلاق المنفذ الخارجي للمال، وخراب المصانع الأوربية على نطاق أوسع (والتي تمتص خيرات الهند ببيع الفضوليات دون الضروريات) وكسر العمود الفقري للتجارة الغربية.

فليس الرأي أن ننافس أوربا في فتح مصانع ومؤسسات الاختراعات الأوربية، ونتوصل إلى النتائج السيئة التي وصلت إليها أوربا عن طريق نشر الفضوليات المدمرة؛ بل يجب أن نبني حياتنا على أسس سليمة تحب الخير، وترفض الشر، ونعمل على تدمير سلاحها وكسر شوكتها؛ مما يجعل أوربا هي الأخرى تتخلص من هذه الآفة غير الطبيعية، التي عادت تبكيها، وننجو نحن أيضا من "جوع الأرض" هذا.

صحيح أن أوربا سيطرت على التجارة العالمية من خلال الاختراعات الحديثة نحو القطارات والطيارات والبواخر؛ ولكن هل اضطرتنا أوربا إلى أن نسلك مسلكها، ونكون عالةً عليها، ونحسب أن رحى الحياة تدور حول قطب الصنائع الأوربية، فالحياة بدونها موت، والممكن بدونها مستحيل؟ كلا، فإن اعتبار هذه الأشياء غير الطبيعية من الضروريات نوع من الخبال الفكري، لايعضده عقل ولا منطق.

وعلى كل فإن كل ما قدموه من دلائل وشواهد على ضرورة العلم الحديث لاتستطيع إثبات مدعاهم، فلا يمكن أن نقبل دعواهم نظرا إلى حسن نياتهم، فإن التجارب والنتائج تردها على الإطلاق، فلا داعي لأن نعتبر التطور العلمي (Scientific) من مقاصد الحياة البشرية، التي تتوقف عليها الحياة وارتقاؤها، فقد أوضحنا أن هذه الوسائل المادية تشكل عارًا وشنارًا على الحياة الإنسانية من حيث النتائج، مما يقتضي أن يكون القضاء عليها من مقاصد الحياة، والمثير للعجب أنه على الرغم مما في هذه الحضارة من ارتقاء صوري وولع تصويري كيف يُنتقد التطور الحقيقي للأمة المسلمة، وكيف يعتبر فقدان الوسائل والحياة الحيادية نوعًا من ضيق التفكير والرجعية، وأنه كيف يشار على العلماء باختيار وسائل وآلات، جعلت أوربا المتطورة تشرف على الهلاك، كما اعترف به الأوربيون بدورهم.

موضع العبرة والعظة للمسلمين:

أَوَلم يعُد منهج السلف الصالح نموذجا يُحتذى به؟ فيتخبط المسلمون اليوم في طرق ذات عوج، وهل كان أسوة كل من سيدنا أبي بكر الصديق وسيدنا عمر الفاروق وسيدنا عثمان الغني وسيدنا علي بن أبي طالب وسيدنا عبد الرحمن بن عوف وسيدنا عبد الله بن عباس – رضي الله عنهم- كانت أسوتهم موقتة ومحلية؟ حتى ندفنها في التراب الحضاري الأوربي؟ وذلك لنختار أسوة قوم، ضاقوا ذرعًا بحضارتهم، ويختارون الانتحار للتخلص منها؟ أَوَليس فلاحنا اليوم في مناهج السلف؛ حتى نتهافت على مناهج الغير المختلفة؟

ما أشد الحيرة على أن هؤلاء الأمم المشركة، التي ظلت محرومة من الكتب السماوية والنور الإلهي، تعتبر منهج سلفنا سببًا للفوز وتستفيد من حضارتنا حق

الاستفادة، ونتنكر نحن المسلمين لهذا المنهج، الذي أورثَنا الله إياه، ونلمس النجاح والفلاح في طرق الغير.

ومن العبرة أن المهاتما غاندي عندما ينصح لوزراء حزب المؤتمر الوطني قال: "ألا تذكرون سير عظماء التاريخ، الذين عرفتهم الدنيا باسم أبي بكر الصديق وعمر الفاروق، سقطت الدنيا كلها على قدميهما، ولكنها لم تؤثر في قناعتهما واستغنائهما، انظروا في تاريخ العالم، لن تجدوا نظيرا للصديق والفاروق إلا نادرًا، كان عمر الفاروق يملك جُزُرَ الثروة؛ ولكنه لم يسمح لأحد من أمرائه باستبدال ملابسهم الخشنة في أراضي الروم والشام الخصبة، بملابس فاخرة، وعلى وزراء حزب المؤتمر الوطني أن يجعلوا هذه الأسوة نموذجًا لحياتهم"[1].

وما أشد العجب عندما نرى أن المهاتما غاندي يشير على الوزراء باختيار أسوة الصحابة رضي الله عنهم، والمثقفون منا يشيرون على المسلمين عبر المقالات والكتب بالإغراق في المناهج العصرية المادية المدمرة، التي تكشف الأيام يومًا فيومًا عن عواقبها الوخيمة.

وقد صدق نبينا الصادق الأمين أعلم الأولين والآخرين عندماقال: "كيف بكم إذا فسق فتيانكم وطغى نساؤكم؟ قالوا: وإنَّ ذلك لكائن يا رسول الله؟، قال: نعم، وأشد، كيف بكم إذا لم تأمر بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر، قالوا: وإن ذلك لكائن يارسول الله؟ قال: نعم، وِأشد، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف"[2].

---

(١) صحيفة مدينة، بجنور الهندية، ٢٥، يوليو، ١٩٣٧م.

(٢) جاء في كنز العمال ما نصه: عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : كيف بكم إذا طغا نساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم ؟ قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟ قال: نعم والذي

وعلى كل فإنه في ضوء ما ذكرت من مزايا الشريعة الإسلامية واعترافات الأوربيين حول الحضارة الغربية يتضح لنا جليا أن الدلائل على ضرورة العلم الحديث ضعيفة جدًا، وهي مرفوضة تمامًا، حتى عند أبنائها فضلًا عندنا نحن المسلمين.

ولذلك إني مازلتُ على موقفي بأن النصارى قد استفادوا من النور القرآني الشامل في العهد القرآني، ثم انشغلوا عن دنيا الروحانية بدنيا المادية، والاختراعات العلمية، فما فعلوا غير أنهم تهافتوا على الجسد دون الروح، مما أدى إلى أن هذا الجسد قد انتهى أمره بعد مدة، والتعفن المنبث من هذه الجثة الهامدة قد أفسد عقولهم وقلوبهم، وجعل الإنسان اللطيف حيوانا كثيفا، لايستقيم له ظاهر ولا باطن، قال الله تعالى: **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٥ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٥** (سورة التين: ٤-٦).

بركات النظام الروحي والأخلاقي للإسلام:

نعم قد استخدم المسلمون النور القرآني للبحث عن الخزائن الروحية بغض النظر عن المادية، فاستفادوا من البركات الروحية والثمار المادية معًا، وأقاموا حضارتهم على الأخلاق الحسنة، والأعمال الصالحة، وتربية خلق الله، وفي رعاية الله، فأقاموا شعائر الدين، من الصلاة والزكاة، وجعلوا إقامة دين الله والأمر بالمعروف

نفسي بيده وأشد منه قالوا : وما أشد منه يا رسول الله ؟ قال : كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون قالوا : وما أشد منه يا رسول الله ؟ قال : كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا ورأيتم المنكر معروفا ؟ قالوا : وكائن يا رسول الله ؟ قال : نعم وأشد منه سيكون يقول الله : بي حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران. (الهندي، علي المتقي، كنز العمال، رقم٨٤٧٠).

والنهي عن المنكر غاية التمكين والسلطة، أخضعوا العالم كله، لا لإشباع الهوى النفساني؛ بل ليعلِّموا الدنيا كيفية اجتناب ملذات الدنيا وشهواتها بعد الاستيلاء الكامل عليها، فقد حصلوا على لذائذ الحياة وأطايبها؛ ولكن لتكون هذه وقودا للتقوى، وأوقدوها ليجعلوا حمَّام التقوى حارًا، كما قال مولانا جلال الدين الرومي:

*شهوتِ دنيامثالِ گلخن است *** كه از وحمامِ تقوىٰ روشن است*

ترجمة: إن شهوة الدنيا كتنور الحمام، الذي يستنير به حمام التقوى[1].

ولما جعلوا الإسلام نصب أعينهم، انقادت لهم الدنيا كلها، رفعوا كنوز الدين فوق رؤوسهم، وركبوا مطية الدنيا، وقطعوا مسافات الآخرة، وألجموا فرس الشهوة، ليكون سمح القياد ذلولًا، ولم يستطع أية أمة من أمم الدنيا التغلب على الحضارة الإسلامية مادام المسلمون رفعوا كنوز الدين والقرآن فوق رؤوسهم، وقصصهم مسجلة بحروف ذهبية في كتب التاريخ.

وليس غاية هذه السطور وما كتبت في سياق الآلات العلمية الطبيعية أني أريد تحريم صنع هذه الآلات واستعمالها، أو أريد إغلاق باب الصناعة، كلا، بل لابأس باستخدام هذه الوسائل والآلات عند الحاجة في مقاصد صالحة؛ بل تأتي أهميتها حسب أهمية المقاصد، وممكن أن يكون استخدامها في بعض الأحيان لازمًا، فالإسلام لايضيق ذرعًا باستخدام الآلات الحضارية، نعم، ولكن يرفض أن تكون الآلات غايةً ومقصدًا، ففي ضوء المقاصد الإسلامية يجوز استخدام جميع الآلات والوسائل العصرية، التي لاتحرمها المبادئ الإسلامية، والظاهر أن الضرورة هي التي حَدَثَت بنفسها بشكل لابد منها، دون التي نُحْدِثُها باختيارنا، ومن هنا أقول:

---

(١) أعطانا الله هذه الشهوة، لنحرقها ونضيء بها حمام التقوى.

إن استخدام الوسائل العصرية من منظور إسلامي جائز إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولا حاجة باستخدامها في غير الحاجة.

فانتقادي لا يتجه إلى نفس الآلات والوسائل؛ بل إلى اعتبارها مقاصد وغايات، أو إلى العقول التي تعتبرها كذلك، وتجعلها أساس الحضارة والمدنية، بحيث يحدث خلل في الحياة بدونها، ويكون الطلبة ناقصين إذا لم يتعلموها، والمدرسون قاصرين ما لم يشتغلوا بها، وقد أثبتُّ بدلائل أن طمآنينة الحياة لاتتصل بعض الاتصال بالغلو في أسباب الحضارة، ووسائلها الحديثة، فضلا أن تكون معتمدة عليها.

والظاهر أن الأمة التي تستخدم هذه الوسائل في ضوء المقاصد الكلية، لاتبالغ في تقديسها، ولا تنقطع إليها، فهي تركز عنايتها على الغاية أولا، وعلى الوسائل ثانيًا، وبذلك يكون قياس هذه الأمة ذات المقاصد والغايات على تلك الأمة ذات الوسائل و الآلات مثالًا قبيحًا من أمثلة القياس مع الفارق، فهما مختلفان تمامًا في المقصد والغاية؛ بل هما طرفا نقيض، لايجتمعان أبدا، وإن كان يجمعهما اشتراك النظام العملي.

وعلى كل فقد رأت الأمتان في ضوء النور القرآني طريقين مختلفين، رأت أمة طريق المادية تحت تربيتها القومية، بينما رأت أمة أخرى طريق الروحانية تحت تربيتها الملية، وبتعبير آخر: نالت أمة الهداية المادية، بينما حظيت أخرى بالهداية الروحية، وكل منهما بلغ في طريقها أوج الكمال والسعادة، بحيث لايوجد لهما نظير في التاريخ البشري.

لن يتحقق كمال الهداية وكمال الضلالة إلا في العصر الإسلامي:

وأذكر هنا لطيفة ربما هي علمية، وهي أنها في ضوء التعاليم الإسلامية الشاملة التي قدَّمها القرآن إذا أمكن للهداية أن تجيء شاملة تعم العالم كله، فكذلك أمكن

للضلالة أن تسود العالم كله، فمن المقرر أن كل مبدأ وجودي في الدنيا يرتبط به ضده المبدأ العدمي، وهذا التقابل بين الأضداد جارٍ في كل من الماديات والروحانيات، فقد ارتبط بالنور الظلام، وبالنهار الليل، وبالبياض السواد، وبالصحة المرض، وبالصدق الكذب، وبالإخلاص النفاق، وبالإسلام الكفر، وبالطاعة العصيان، وبالعمران الخراب، وبالحسنة السيئة، وبالخير الشر؛ وكذلك كل نعمة تلحقها نقمة، فكما أن المبدأ الوجودي يرتبط به المبدأ العدمي، كذلك يجب أن نلتفت إلى الضد عند الالتفات إلى الأصل؛ مما يؤدي إلى أن التعليم إذا جَعَلَنَا نطلع على الحقيقة والأصل، يجعلُنا نطلع كذلك على ضد الحقيقة، والفرق إنما يكون بحيث إن الالتفات إلى الأصل هو التفات تحصيلي، والالتفات إلى الضد هو التفات دفاعي، مثلا، إذا كان التعليم يوجهنا إلى الإخلاص، فالذهن يتوجه طبعًا إلى النفاق أيضا، إلا أن الالتفات إلى الإخلاص يُعَدُّ التفات الحصول، والالتفات إلى النفاق يكون التفات الدفع، فإن الإخلاص لايكون كاملًا بدون دفع النفاق، وكذلك إذا كان التعليم يوجهنا إلى الصدق فالقلب يتوجه طبعا إلى الكذب، فإنه بقدر ما يضيع الكذب يتهيأ الصدق، فالثمرة الطبيعية لكل تعليم أنه كما يفتح نواحي الهداية يكشف أمر الضلال.

والظاهر أن القلوب كلما تأصلت فيها الاستقامة والهداية، بالغت في اجتناب أضدادها من الضلالة والتهور، وأن القلوب التي تمكن فيها الضلال والزيغ كل التمكن رغبت في أضداد الحقائق الأصيلة، فكأن التعليم يخلق في القلوب عناصر الهداية والضلالة بسبب ما فيها من تفاوت خَلقي.

فإن كانت تعاليم الإسلام شاملة –وقد ثبت بدلائل أنها شاملة– فلامحالة أن تنشأ في الأمة أناس مهتدون، كما ينشأ فيهم أناس ضالون، وكلما انفتحت للهداية

جوانب، انكشفت جوانب الضلالة بقدرها، فالقرآن يهدي ويُضل، كما قال تعالى: **يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ** (سورة البقرة: ٢٦).

وجاء في صحيح مسلم من حديث أبي مالك الأشعري: وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ[1].

فإن كانت الأمة تجمع من أنواع الهداية ما تفرق في جميع الأمم، فلا محالة تجتمع في هذه الأمة من أنواع الضلال ما أضلَّ الكثيرَ من الأفراد والطبقات والأمم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ؟[2].

والحاصل أن المطيعين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إن كانوا خاتمي الهدايات، فالمنكرون من هذه الأمة ليكونُنَّ خاتمي الضلالات، وإذا كانت حقيقة الكمال هي الروحانية، فحقيقة الضلال هي فسادها، وإذا كانت الروحانية لاتكتمل أبعادها بدون الإعراض عن المادية، وفساد الروحانية لايكتمل بدون الإغراق في الماديات فقد اتضح أن السبب الأعظم لنشر الضلال من خلال التعليمات القرآنية هي المادية وحدها، التي تنشر الفساد في الجانب الروحي، وبتعبير آخر: إن المسؤول عن الضلال الشامل هو الأمة التي انقطعت إلى الماديات عن الروحانيات، وجعلت الاختراعات المادية نصب أعينها وغاية تطورها، وفيه دلالة كافية على أنه إلى الإغراق في المادية يرجع نشر الزيغ والضلال، وقد سلطتُّ ضوءًا كافيًا على هذا، وذلك أن الصورة ترتبط دائمـًا بالحقيقة لما بينهما من شدة المناسبة، فإن عادت الصورة غايةً مستقلةً عن الحقيقة، خفيت الحقيقة، وحلَّت الصورة محلها، ثم يعتبر

---

(١) أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص ١١٢، رقم٥٥٦.

(٢) اخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١، ص١١٤، رقم٣٤٥٦.

الجهلاء والسطحيون الصورة حقيقةً، ويبتعدون عن الحقيقة، وهذا تكون الصورة حجابًا للحقيقة بدل أن تكون ذريعةً للتعريف بها، وهكذا حال هؤلاء المفتونين بالصورة، حيث يُحرمون من المنافع الدائمة للحقيقة بانشغالهم بالصورة ومنافعها الوقتية، مما يذهب بطمآنينتهم، ويسلبهم هدوءهم، فإنهم رضوا بأن يضحوا بهدوءهم الدائم وراحة بالهم على مركز الفوائد الجسمانية العارضة، فالصورة والاختراعات الصورية ليست إلا أسباب الدجل والتلبيس والفساد، ودوافع الضلال وشرود الفكر وعمى البصيرة وفساد الأمن والهدوء.

صورتان متضادتان للمخترعات الحضارية المعاصرة:

نعم، وقد اتضح من قبل أن هذه النماذج المادية وأساليبها الجديدة قد تشكل هي الأخرى أمثلةً كافيةً على الحقائق الباطنية والمعتقدات الدينية، مما يسبب المعرفة الصحيحة بالحقائق الغيبية بشرط صحة التدبر والتفكير، فإن هذه الصورة لمشابهتها التامة للحقائق قد تكون مرآةً كاشفةً للحقيقة، مما يعكس الحقائق اللطيفة ومعالمها الدقيقة، وهكذا يتيسر لعُشَّاق الحقيقة ورُوَّادُ الروحانية العلم بها وسلوك سبيلها.

نوعان متضادان من مؤهلات القوم بسبب المخترعات العلمية:

ومن هنا نتوصل إلى أن هذه المخترعات الحضارية والاكتشافات المادية تحمل اثنين من الجوانب، أحدهما كونها تصويرية، تلبس الصورة بالحقيقة، وتكتم الحقيقة، وثانيهما كونها تمثيلية، تُمَثِّل الحقيقة، وتكشف عنها، ونظرا إلى هذا إن هذه المخترعات المادية تخلق في الناس نوعين من الاستعدادات، النوع الأول أن تخلق فيهم رغبة جامحة في الإغراق في المادية، تبعدهم عن كل أنواع الحقيقة بشكل يسهِّل توجيههم إلى الدجل والفساد والضلال الأسود، والثاني أن تخلق فيهم رغبة كافية

لقبول الحق، إذا دعاهم الداعي المخلص إلى الحق، وأظهر لهم عوار المادية وزيغها وفسادها، استجابوا لقوله.

والظاهر أن الناس في الصورة الأولى يسيرون على طريق الضلال الشامل، بحيث يتلطخون بالزيغ والهوى، ويفسد أمرهم كليا، وفي الصورة الثانية يملكون صلاحية لقبول الحق العام، ويستجيبون لنداء الضمير والقلب، ويستفيدون من نور الهدى والصدق.

ورود قائدين متضادين:

وإذا كانت هذه الاكتشافات المادية تخلق في الناس نوعين متضادين من الاستعدادات: الهداية والضلال، فلامحالة أن هذه المخترعات تمهد الطريق لظهور قائدين في الآفاق، يتضادان على طول الخط وعرضه، أولهما جامع أنواع الضلالات، وقطب الشرور والفتن، ومنبع الدجل والتلبيس، ولابس الحق بالباطل، وصابغ الباطل بصبغة الحق، حتى يلتصق العالم كله بذيله باعتباره رائدَ الحق والصواب، وثانيهما هو الهادي المستقيم، منبع الحق والصدق، مصدر الوفاء والعطاء، الكاشف عن ستار الباطل، وناشر الحق في العالم بكل قوة وهيبة وبشكل يوضح المحجة، ويقيم الحجة، حتى يرجع العالم كله عن غيه وتيهه في الباطل، ويعود إلى الرشد، فيملك كل من هذين القائدين المتضادين قوة عظيمة، إما أن يجولا في الأرض كلها، وإما تمتد آثارهما في كل شبر من أشبارها، وبذلك يعم مسحهما، ويسمى كل منهما مسيحًا، وإن كان أحدهما مسيح الضلالة، والثاني مسيح الهداية.

وبما أن هذه المخترعات المادية هي التي خلقت في الناس استعدادًا لقبول هاتين الدعوتين المتضادتين، فلامحالة أن يكون كل من المسيحين له مناسبة كافية مع

هذه المخترعات الصورية وأشكالها المتغيرة، نعم، يرتبط مسيح الضلالة بجانبها التلبيسي، حتى يستعملها في الإفساد والتخريب، ويرتبط مسيح الهداية بجانبها التمثيلي، ليستعملها في إحقاق الحق وإبطال الباطل.

ومن هنا لما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بانتشار المسيحية وبروزها في العصر الأخير، أخبر في نهايته بظهور مسيح الضلالة، الذي هو خلاصة التلبيسات الصورية، مما يسمى بالدجال الأعظم، وأنذر الرسول عليه السلام بفتنته العظيمة الشاملة، ثم أخبر في نهاية عصر الدجال بنزول مسيح الهداية، وهو سيدنا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

فكل من المسيحين يستعمل في هدفه استعدادات القوم، التي كانت قد بلغت غايتها بعد استعمال المخترعات المادية.

خاتم الكمالات وخاتم الفسادات:

فكما أن الملائكة يقابلهم الشياطين في عالم الغيب، فإن الملائكة هم منبع الصلاح، والشياطين منبع الفساد، وكذلك الأنبياء في عالم الغيب والشهادة يقابلهم الدجالون، وكما أن كلا من الملائكة والشياطين يوجد فيه "خاتمهم"، الذي تنتهي عليه مراتب كمال ذلك النوع، وهو مصدر الفيض لنوعه، أما الملائكة فجبريل عليه السلام خاتمهم، فهو الذي يقسم كمالات الملَكية بين الملائكة، بينما إبليس اللعين هو خاتم الشياطين، فهو الذي يوزع كل أنواع الفساد على الشياطين، وكذلك يوجد خاتم في كل من الأنبياء والدجاجلة، يسبب لنوعه مصدر الفيض، أما الأنبياء عليهم السلام فخاتمهم نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو ذلك الفرد الكامل والخاتم المطلق، ومنبع كمالات النبوة، فهو الذي رُزق الأنبياء بسببه الكمالات والمواهب، أما

الدجالون فذلك الفرد فيهم هو الدجال الأعظم، الذي هو مصدر الشر والفساد، وجامع جميع أنواع الدجل والمكر والنفاق، وهو الذي يقسم كل أنواع الضلال بين طبقات الدجاجلة، فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم جميع الكمالات البشرية، والدجال هو خاتم جميع الشر والفساد، إن نبينا هو الدرة اليتيمة في بحر الروحانية، والدجال هو سباق غايات المكر والفساد.

التقابل بين الخاتمَين وأماراتهما المتضادة:

ولما كان من غاية النبوة أن العبد يتجاوز هواه إلى تمكين عظمة الله في قلبه، وهي خلاصة العبودية، وهي منتهى الكمال البشري، والغرض الأصلي من الدجالية أن العبد يترك عبادة الله وينغمس في الأنانية والإعجاب بالنفس، حتى لم يبق في قلبه شيء من عظمة الخالق وقدرته على الخلق والكون، ومن هنا لابد لخاتم النبيين أن تنتهي عليه مراتب العبودية كلها، ومعنى خاتميته أنه عبد مطلق كما أن الله معبود مطلق، فيفيض الله عليه من الأفضال والكمالات ما لم يفضها به على غيره من الأنبياء، وفي المقابل، يجب أن تنتهي على خاتم الدجالين جميع مراتب الأنانية والإعجاب بالنفس، ومعنى دجاليته هنا أنه لايوجد في طبقة الدجالين أكثر منه رعونةً ودجلًا ومكرًا، فعامة الدجالين إذا كانوا ينشرون الدجل والفساد عن طريق دعوى النبوة، فخاتمهم يدعي الألوهية، وينشر الفساد العالمي على نطاق أوسع، حتى يأتي بالعجائب والخوارق.

ومن ثم قد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بخروج ٣٠ دجالًا، يدَّعون النبوة، ويلبسون الحق بالباطل، ثم أخبر بخروج الدجال الأعظم، الذي يدعي الربوبية، ولايألو جهدا في نشر المكر والزور.

وكما أن هداية سائر الأنبياء محلية، وهداية نبينا خاتم الأنبياء عالمية، كذلك تكون ضلالات سائر الدجالين محلية، وضلالة خاتم الدجالين عالمية، كانت نبوة سائر الأنبياء تثبت بدعاويهم القولية؛ ولكن نبوة خاتم الأنبياء ظهرت –إلى القول والفعل– عن طريق آثار النبوة في الخلقة الجسدية، وهي خاتم النبوة بين الجانبين، وقد كتب عليه بعض الكلمات التي تدل على النبوة.

وكذلك تماما، إن فساد الدجالين كلهم يظهر بأقوالهم أو أفعالهم؛ ولكن فساد خاتم الدجالين يظهر –مع القول والفعل– بآثار في الخلقة، فقد جاء في بعض الأحاديث أنه يكتب بين عينيه "ك ف ر"، وكأنه خاتم الشر والفساد.

وبعد هذا التقابل بينهما يتجلى أن الدجال الأعظم يقابل في الواقع نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فإن نبينا خاتم الكمالات، والدجال خاتم الفسادات، إن نبينا له عبودية مطلقة، وللدجال رعونة مطلقة، إن نبينا فارق بين الحق والباطل، والدجالُ مشجع التلبيس بين الحق والباطل، ونبينا سعيد بختم النبوة، والدجال متميز بختم الدجل والكفر، ونبينا يدعي العبودية المحضة، والدجال يدعي الألوهية المطلقة، فكما أنه من الضروري أن تظهر جميع الكمالات العالمية في عصر خاتم النبيين، كذلك يجب أن تظهر طبعًا أضداد هذه الكمالات وجميع أنواع الفساد في عصره، ومن هنا لقِّب الدجال بخاتم الدجالين، كما لُقِّبَ نبينا بخاتم النبيين، فإن هذا اللون من الدجل والتلبيس لايمكن أن يقابله إلا النبوة الخاتمة المتميزة، وما كانت جميع أنواع الكمالات والقوة الروحانية لتظهر بدون ظهور أضدادها، والمعنى أنه لابد من ظهور الشر والفساد بأبهى صورهما بيد خاتم الدجالين ليمكن القضاء عليهما كليا.

صورة التقابل:

نعم، لو ظهر الدجال الأعظم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم واستأصل كل أنواع الشر، لكان التقابل بين الخير والشر ناقصًا، فإنه في هذه الصورة لم يتفق لفساد الدجال أن يبلغ الغاية بشكل تدريجي، كما أن الكمالات النبوية لم تكن لتظهر في وقت واحد، فتهزم الفساد شر هزيمة، فكان التقابل ينتهي بدون مقابلة كل جانب من جوانب الخير لكل جانب من جوانب الشر، وكانت الدنيا قد اقتربت من النهاية، مع أن الغرض من الخاتمية هو الإكمال، ولذلك يأتي الخاتم في آخر العصور، فأمهل الله تعالى الدجال الأعظم إلى يوم القيامة، لينشر الفساد الشامل بشكل مستور أو مكشوف، ويلبس الحق بالباطل مباشرة أو بلاواسطة، ليظهر الشر بجميع أنواعه وبكل روائه، ويلفت ضعفاء القلوب إليه، وأبقى ختم النبوة إلى القيامة أيضا، ليفند قوى الشر والفساد في كل عصر ومصر، وبأساليب مختلفة، إن أحدث الفساد شبهةً في العلوم النبوية جاءت القوة الحقانية لتهزمه بنور اليقين، وإن أحدث شهوةً في الأعمال، هزمتها الأخلاق النبوية بالصبر والتسامح، وإن أحدث فتنةً في الشؤون الحضارية تعرضت لها السياسة النبوية، والحاصل أن الدجل والفساد كلما ظهر في صورة ما، ظهرت الكمالات النبوية لتدفعها، حتى اكتمل الفساد واقتضى ظهور الدجال الأعظم، وفي جانب آخر، اكتمل الخير بأبعاده، وتفرعت أغصان الصلاح والكمال لتواجه الشر وتستأصله، ليهزم خاتم النبيين خاتمَ الدجالين.

هزيمة أخيرة:

ولما كان خروج الدجال لم يكن مناسبًا في العهد النبوي؛ بل ناسب خروجه في نهاية الدنيا، فكانت هناك صورة، وهي أن يظهر خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم من

قبره عند خروج الدجال، ليمحو كل أنواع الفساد بدوره، والظاهر أن هذا كان أمرًا أقصر من شأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فكان أجل من أن يأتيه الموت مرتين.

وكان من المتوقع أن يبقيه الله سبحانه حتى خروج الدجال؛ ولكن هذا أيضا كان أحط من مكانة خاتم النبيين، ومن الصورة الأولى، فإنه لو كان الأمر كذلك لكان الغرض من بعثته في هذه الصورة هو مجابهة الدجال لاغير؛ مما يزيد أهميته، ولكان كمالات النبوة في الخفاء والكتمان؛ فإنه بوجود شمس الهداية واليقين لايستطيع نجم أن يسطع، وهذا يستلزم خفاء كل جوهر ومواهب كل طبقة من طبقات الناس، ولم يظهر مصداق قول الرسول صلى الله عليه وسلم: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل[1]، ثم كل هذه الإمكانيات يكون في الحقيقة قلبًا للموضوع، بل يجعل خروج الدجال مستحيلًا، فإن فتنة الدجال إنما تقوى وتظهر بسبب البعد عن العهد النبوي فلو ولد رسولنا قبيل الساعة لما استطاع الشر أن ينتشر، ويسبب خروج الدجال، ففي هذه الصورة لم تنكشف كمالات هذه الأمة، ولما تجلت المقدرة النبوية لدفع الفتن، مما يوضح أن نبوة سيدنا ونبينا صلى الله عليه وسلم العالمية الشاملة كما كانت تنفع السابقين، تنفع اللاحقين، فهذه النبوة ليست كسائر النبوات والروحانية المحدودة في عصر ومصر، التي كانت فبانت، ولم يبق لها أثر.

ولكن بقي سؤال، وهو أنه إذا كان خاتم الدجالين يقابله خاتم النبيين، وليس من المناسب عودة خاتم النبيين لدفعه ولا بقاء الرسول إلى قيام الساعة، ولا ولادته في

---

(١) قال العلامة ملا علي قاري الحنفي، في **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**: وأما حديث علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل فقد صرح الحفاظ كالزركشي والعسقلاني والدميري والسيوطي أنه لا أصل له، ج١٧، ص٤٢٤.

عصر الدجال، ثم لا يمكن دفع هذه الفتنة العظيمة بالروحانية المحدودة ولا بالقوة العلمية القصيرة، التي يتمتع بها العلماء والمصلحون والمجددون؛ بل القوة النبوية هي التي تدفعها وتستأصلها، فكيف يمكن استئصال هذه الفتنة، وتطهير الأرض منها؟

الجواب أنه لايمكن دفعها إلا بإرسال خاتم المجددين، الذي تمتع بكمالات خاتم النبيين، ويحظى بمناسبة تامة معه، تجعله يمثل خاتم النبيين، ولا بد لخاتم المجددين هذا أن يكون قبل كل شيء نبيا، ليمكن له التمتع بكمالات خاتم النبيين، فإن الولي المحض لايستطيع ذلك، ثم لابد له أن يكون فيه نوع من الخاتمية، لتنعكس فيه كمالات خاتم النبيين، ولاتؤثر هذه في ختم النبوة لخاتم النبيين، وكل ذلك يؤكد أن يُبعث من الأنبياء السابقين نبي يحمل نوعًا من ختم النبوة، ولكن يظهر كمجدد لا كنبي، والمعنى أنه يتمتع بجميع كمالات النبوة؛ ولكن لايملك التشريع الجديد ولا تبليغ دينه؛ بل يظهر كواحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ويعمل في إصلاح الأمة، ويستعمل كمالات خاتم النبيين.

وكل هذا كان يقتضي أن يكون النبي المبعوث يملك مناسبة خاصة مع خاتم الأنبياء سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ليمكن له جذب كمالات خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، إضافةً إلى ذلك يتعارض مع الدجال الأعظم كتعارض خاتم الأنبياء معه، فإنه يجب أن يتصف بالتضاد الكامل للمواجهة الكاملة، كما يجب أن يتصف بالتشابه الكامل مع خاتم النبيين، صلى الله عليه وسلم.

مسيح الهداية ومسيح الضلالة:

فلا يوجد من بين طبقات الأنبياء عليهم السلام أحد يتصف بهذه الصفات غير خاتم بني إسرائيل سيدنا المسيح بن مريم، فإنه لايمك مناسبة واحدة مع نبينا؛ بل

مناسبات ظاهرة وباطنة عديدة، لاتتوفر في ماسواه، فله مناسبة في الأخلاق، ومناسبة في المقامات، وتشابه في المدارج، وتوافق في الخاتمية، واقتراب زماني بينهما، وتشابه في أمتيهما، وانسجام إلى حدما في مناهجهما، وغيرها من الأمور، التي تقيم بينهما علاقة، تؤهله لينزل كولي عهد لنبينا خاتم النبيين صلى الله عليهما وسلم، ويكافح الفتنة الدجالية العظيمة.

كما يملك المسيح بن مريم علاقات متضادة عديدة مع الدجال الأعظم، في الظاهر والباطن والأخلاق والخصائل والآثار والأحوال، مما يجعلهما ضدين لايجتمعان بحال.

وأذكر منها على سبيل المثال:

- أن كلا منهما لُقِّب بالمسيح، أحدهما مسيح الهداية، والآخر مسيح الضلالة.
- الدجال الأعظم وُلد ثم أُخْفِي ليخرج آخر الزمان-كما يفيده حديث تميم الداري رضي الله عنه-، وهذا غاية في الضلال، وكذلك رفع المسيح بن مريم عليهما السلام حيا إلى السماء، لينزل آخر الزمان في موعده، لتتضح كونه آية في الهداية.
- ولد الدجال الأعظم بطريقة خارقة للعادة، ولد كذلك المسيح بن مريم عليهما السلام، بشكل خارق للعادة، فقد وُلد بلا أب.
- نظرًا إلى المادية الخلقية الكثيفة حُبس الدجال مشدودًا بالحبل في ناحيةٍ مظلمةٍ ضيقةٍ من الدنيا، فنظرًا إلى اللطافة الروحية بعث المسيح بن مريم إلى السماء اللطيفة.

- الدجال الأعظم يملك مناسبة خاصة مع الشياطين لكونه مظهر صفاتهم وممثل عاداتهم، والشياطين يبسطون عرشهم على الماء في البحر، ولذلك تم حبس الدجال الأعظم في إحدى الجزر البحرية، ليكون قريبًا من الشيطان والعرش الشيطاني، أما المسيح بن مريم فلكونه يملك مناسبة واضحة مع الملائكة، حتى حملت به أمه بنفخ جبريل عليه السلام، وقد تم رفعه إلى السماء وحفظه فيها ليكون قريبًا من الملائكة، فاستقر مسيح الهداية في السماء بعد مجاوزة الخلاء والفضاء، بينما استقر مسيح الضلالة فيما تحت البحر، فأحدهما له فوقية بعد فوقية، والآخر له تحتية بعد تحتية، أحدهما فوق الثريا، وثانيهما تحت الثرى، أحدهما على أسس الجنة، والثاني على أسس جهنم.
- الدجال يؤتى القدرة على إحياء الموتى على سبيل الاستدراج، فهو يحيي بعض الموتى، وقد أوتي المسيح بن مريم معجزة إحياء الموتي، الإحياء في الشكل الأول خطف للأبصار، وفي الثاني حقيقي، وفي تعبير آخر: إن كان المسيح الدجال يؤتَى القدرة على إحياء الموتي فالمسيح بن مريم يؤتى القدرة على إماتة الدجال الأعظم، مما يوضح أن المسيح بن مريم قد أوتي معجزة إحياء الموتي في عصره الأول الجمالي، وقد أوتي معجزة إماتة الإحياء في عصره الثاني الجلالي، ولئن كان بعض الناس اتخذوه إلهًا في عصره الأول، فينزل في عصره الثاني وهو يستشيط غضبًا في هذه القضية إلى حد أن يقتل كل من يدعي الألوهية وأتباعه، ويثبت عبوديته الخالصة لله تعالى شأنه.
- وإن كان الدجال الأعظم يدعي الألوهية ويُضِل الناس، ويأتي ببعض الخوارق، ويؤمن به اليهود، فالمسيح بن مريم قد أوتي بعض الخوارق، حتى

اشتبه الأمر على النصارى واتخذوه إلهًا، ففئة من الناس اتخذت الدجال إلهًا، بينما اتخذت فئة أخرى المسيح بن مريم إلهًا.

- إن من خوارق الدجال الأعظم أنه يسلب ببصره الإيمان من القلوب، فكان المسيح بن مريم عليه السلام أيضا يملك من الخوارق البصرية ما إن وقع بصره على الدجال حتى بدأ يذوب كالشمعة والرصاص، فيضع حربته بين ثندوته[1]، فيقتله وينهزم أصحابه.
- ويجمع بينهما أن الرسول عليه السلام قد أنذر من الفتنة الدجالية بكل شدة، كما بشر بنزول المسيح بن مريم وقتله للمسيح الدجال.

المسيح عليه السلام وتجديد الدين الإسلامي:

الحاصل أنه بين نبينا محمد المصطفى وبين المسيح بن مريم عليهما السلام من العلاقات والمناسبات ما لايوجد بين نبينا وبين سائر الأنبياء، عليهم السلام، وكذلك بينهما وبين الدجال الأعظم من علاقات التضاد والتخالف ما لايوجد عند غيرهم، فكان من الطبيعي أن يكون المسيح بن مريم نائبًا عن رسولنا خاتم الأنبياء في مكافحة الدجال.

ثم إفساد الأمة المسيحية إذا رجع إلى الدجال، بات من الضروري أن يكون إصلاحها بيد المسيح بن مريم عليهما السلام، فإن خضوعها للدجال إنما كان ناشئًا عن سوء استخدام عقليتها التصويرية والمادية، كما اتضح سابقًا، وقد بينت بالتفصيل أن العقلية التصويرية المادية ليست إلا مرآةَ العقلية المسيحية، فكان طبيعيا أن يفوَّض أمر إصلاح سوء استخدام عقليته، فإنه يتولى هذا الأمر بتفانٍ وإتقان، ويؤدي هذه المهمة

(١) ثندوة الرجل: ثديه

بحكمة وبصيرة، وبما أن السبب في عوج هذه العقلية هو التلبيس، الذي تسرَّب إلى الأمة المسيحية بتأثير الدجال، وهو الذي مهَّد الطريق للدجال الأعظم، فكان من المناسب أن يقوم المسيح بن مريم عليه السلام بقتل الدحال، ليخرج من قومه كل أثر من آثار الدجل والتلبيس، وينجيهم وسائر الناس من الضلال والشقاء.

والمعنى أن المسيح بن مريم عليهما السلام تجتمع في شخصيته جميع المميزات التي يحتاج إليها تجديد الدين الإسلامي، فهو الذي يملك تشابهًا وتقاربًا مع نبينا خاتم المرسلين، وتقابلًا وتخالفًا مع المسيح الدجال، وتواصلًا مع الأمة المحمدية، ومن أجل ذلك سيُنزل كخاتم المجددين.

الحاصل أن الاختراعات المادية وجانبها التصويري قدَّمت الصوَر في صورة الحقيقة، ومهَّدت المكر والتلبيس على الأمة، وسهَّلت لها الاستجابة لدعوة الدجال مسيح الضلالة، كما أن الجانب التمثيلي لهذه الاختراعات قد خلق في الناس مؤهلة لمعرفة الحق على وجهه، وقدرة على التأثر بمسيح الهداية المسيح بن مريم عليه السلام، فكأن المسيحية المولعة بالتصوير قد مهَّدت الطريق للمسيحين: مسيح الهداية المسيح بن مريم ومسيح الضلالة الدجال، وبما أن هذين المسيحين بينهما تضاد كامل، فالمعنى أن الأمة المسيحية قد ضلت وحادت عن الطريق جرّاء سوء استخدامها لعقليتها التصويرية، وتأثُّرها بمسيح الضلالة، وبذلك عاد من اللازم أن ينزل مسيح الهداية، ليفند آثار الدجال، ويصلح الناس ويقيم أمرهم على صلاح وسداد، وحكمة وبصيرة.

الآثار القريبة للدين الواحد العالمي:

فهذه الاختراعات المادية إن كانت اليوم تنشر في العالم كله المادية العالمية، والضلالة الشاملة، والتلبيسات الماكرة، فهي سوف تقوم قريبًا بضد هذه الأعمال،

وتسبب الهداية العالمية، وتسير بالناس طريق الحق والصواب، وطريق الإسلام والفطرة، وتضطرهم إلى معرفة الحق وهجر الباطل، فهي التي تؤدي بإذن الله إلى اجتماع الناس على دين واحد، واتحادهم على القاسم الديني المشترك.

إن وسائل المواصلات السريعة نحو القطارات والطيارات والسيارات والبواخر وما إليها من الوسائل، التي يقطع بها الإنسان مسافات شهر وعام في ساعات ولحظات، وصلت الشعوب بالشعوب، ومزجت بينها كل المزج بشكل جعل الشعوب تتخلى عن مميزاتها، وتجتمع على خصائص مشتركة، وبذلك سوف يسهُل عليها الاجتماع على دين واحد ومذهب وحيد.

ثم وسائل التواصل نحو التلغراف والتليفون والهاتف اللاسلكي)Wireless(بلغت بالمجتمع البشري إلى حد أن الإنسان الشرقي يطلع على أنباء الإنسان الغربي في لحظة، واختراع الراديو قد جعل الإنسان يستغني عن الذهاب إلى محطة الأنباء والتلغراف؛ فإن الإنسان قد عاد يستطيع الاطلاع على أنباء العالم وهو قابع في داره، بدون حاجة إلى الخروج، فيستطيع الاطلاع على الأنباء والخطب والمحاضرات، ويطوف على أحوال العالم كله، وهو قائم أو قاعد أو على جنبه، أو ماشٍ أو تحت شمسية.

والظاهر أن كثرة وسائل المعلومات العامة أفضت بالإنسان إلى رفض الجمود على معلوماته الخاصة، وإلى سعة في العلم، وذوق في البحث عن الحقيقة، وهكذا رغبت الدنيا في الاجتماع على نقطة مركزية تجمع بين الجميع، وتربط بين الأمم المتناثرة، فالوسائل المعاصرة تخلق السلوك الإنساني المشترك، والأفكار المشتركة؛ حتى يندمج هذا الاشتراك في الفكر والسلوك في منظومة فكرية حضارية موحدة شاملة في يوم من الأيام، تنخرط فيها جميع البلدان، وينضم إليها كل الأقوام.

لن يكون دينٌ غير الإسلام عالميًا:

وبالنظر إلى ما بين الصورة والحقيقة من علاقة وما لهما من هيمنة على العالم يمكن أن أقول: إن هذه المخترعات المادية تجعل الدنيا تتهافت على الصورة والظاهر، ثم تذهب هذه الصور بالدنيا إلى الحقيقة، والمعلوم أن حب الصورة جزء من الحضارة المسيحية، ومن ثم تأتي الدنيا كلها إلى النظام التصويري والمنهج المادي للأمم المسيحية فتنتشر المادية المسيحية، ولم يبق في العالم إلا الصورة والرسم والظاهر، نعم، وبعد مدة يضيق العالم ذرعا بهذه الظاهرة، فيبحث عن الحقيقة والأصالة، ويلوذ بها بعد معاناة شديدة من الظواهر المادية، وقد ثبت أن التمسك بالحق والحقيقة وتبني المنهج العلمي الأصيل جزء من العقلية المسلمة، فليس من المبالغة أن أقول: إن هذه الأمم كلها ستسقط في يوم من الأيام في حضن الإسلام، وتندمج في الحضارة الإسلامية، وتجتمع على كلمة واحدة، وهي كلمة الإسلام العليا، ليكون الدين كله لله.

مصير اليهود:

نعم، أولئك اليهود الذين عجنت طينتهم بالمكر والفساد، وجُبِلوا على العقلية المدمرة، فليس لهم ذوق تصويري، ولا رغبة في طلب الحق والحقيقة، وليست لهم علاقة بأي من الأمتين العظيمتين: المسلمة والمسيحية، لاصلة لهم بالحضارة المسيحية المادية، ولا بالحضارة الإسلامية الروحية، فقد نصبوا عداء سافرا للأمة المسيحية حتى اضطروا نبيها المسيح بن مريم عليه السلام إلى الهجرة من الأرض إلى السماء حيًا، فقد رفعه الله إلى السماء لينجيه من تآمر اليهود عليه، أما عداؤهم للمسلمين فقد ألجأوهم للهجرة من مكة المكرمة، فما كان اليهود أمة تصويرية، ولا أمة تحقيقية؛ بل هي أمة

تخريبية، فهي في آخر الزمان لاتكون أمة تصويرية كالنصارى ولاأمة تحقيقية كالأمة المسلمة، فلاتندمج في المسيحيين ولا في المسلمين، الذين ينضم في موكبهم جميع الأمم والملل، فاليهود يرتبطون بالمسيح الدجال مدمر العالم، ويصيرون إلى مايصير إليه الدجال من زوال وفناء، ولايجيرهم من الأرض شبر ولا قطعة، حتى الحجر والشجر لايجيران أحدًا من اليهود، وتذوب هذه الأمة بنفس المسيح بن مريم كما يذوب الدجال، وهذا المصير هو مصير حتمي معقول لهذه الأمة الفاسدة المفسدة، التي اعتبرت المسيح بن مريم مسيح الضلالة، فحاولت قتله وصلبه، وتعتبر الدجال الأعظم مسيحَ الهداية، فتؤمن به، وتصحبه، وتتبعه وتواجه معه المسيح بن مريم، وهي في الواقع مواجهة لنبينا محمد صلى الله عليه و سلم، لأن المسيح بن مريم عليهما السلام إنما يأتي لينوب عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في تجديد الدين وإصلاح أمر المسلمين، وكان قتل أمة اليهود بيد المسيح بن مريم كان آخر ختمة على ما ضرب عليهم من ذل ومسكنة ومغضوبية، مما أخبر به الله في القرآن الكريم قبل ثلاثة عشر قرنًا.

وعلى كل فقد آن للعالم كله أن يتحد ويجتمع على رصيف واحد، وهذه الوسائل الحضارية هي التي تدل على قرب شيوع التدين العالمي وظهوره العاجل.

وقد بدأت عالمية الإسلام:

إن المسيرة المعاصرة للمجتمع البشري تدل بكل وضوح على ريح شديدة، أوشكت أن تهب، وهذا يعني أن كثيرًا من أسباب التغير قد توافرت، وأن التعاليم الإسلامية قد تمكنت في عقلية الأمم والأقوام، وأحدثت ثورة عظيمة في الأفكار والسلوك، وسيطرت على عقولها وقلوبها، ولا أدل على تأثير الإسلام في عقلية الأمم

من أن الأطياف المختلفة في الدين والفكر في العالم من ملاحدة أوربا، وعلماء الطبيعة في الغرب، والمبدعين في الصين واليابان، والمنبوذين في الهند أولي ديانة مستقلة؛ عادت تبحث عن الدين الحق، وتنادي بالدين والله، وليس هذا كله إلا دليلًا على تأثير التعليمات الإسلامية في عقلية هذه الأمم، ثم المناداة بنداء الإسلام في ستار العقلية المتغيرة، كل ذلك أثر من آثار التعاليم الإسلامية، وكأن الإسلام قد أروى المناطق المختلفة بتعاليمه الشاملة على مدار ثلاثة عشر قرنًا؛ ثم خلق في عقلية الإنسان المعاصر استعدادًا عالميًا لقبول الإسلام، ليمطر على الناس شآبيب فيضه العام، ويجمع الأمم كلها في إطاره الواسع، فالعقلية المتغيرة التي تجلت اليوم ليست إلا من ثمار المبادئ والتعاليم الإسلامية، فإنها لولا الأمر كذلك لكان الناس خرجوا إلى المسيحية واليهودية والهندوسية، وما إليها من الديانات، فما الذي دعاهم إلى الإسلام وحده؟ والواقع أن العقلية لو تغيرت بتعاليم الديانات الأخرى لمالوا إليها، ولكن القلوب إذا مالت إلى الإسلام ورغبت في عقائدها ومبادئها فهذا يشكل دليلًا على أن الإسلام هو الذي أثار هذه الثورة في عالم القلوب والعقول، فهو يستحق أن يتملك عليها.

المصالح التكوينية لانحطاط المسلمين:

وتعيش الأمة المسلمة أوضاعًا خطيرةً جدًا، غاب مجْدُها وشوكتها، وأُديلتْ دولتُها، وسُلب مُلكها، وذهب رُعبها، وقد ضاعت تلك الملامح والآثار، التي تجلب العقول وتخطف الأبصار، ففي هذه الأوضاع المؤسفة للغاية إذا كانت الأمم التي تستغني اليوم عن الأمة المسلمة؛ بل تهيمن عليها إذا كانت تميل إلى الإسلام وترتمي في حضنها فهذا بلا شك دليل ناصع على حقية الإسلام وتأثير تعاليمه الجذابة.

فيبدو أنه لإبراز ما للتعاليم الإسلامية من تأثير عميق في العقول والقلوب واستمالة الأفكار وتشكيل العقليات قد قدر الله سبحانه في عالم التكوين أن تكون الأمةُ المسلمةُ في هذه الأيام منهوكة القوى، مسلوبة الوسائل، التي تفرض بها الأمة -أية أمة كانت- نفسها على العالم، وذلك ليظهر للإسلام شأن عظيم، يحببه إلى القلوب.

صلة أول الإسلام بآخره:

وهذا كما كان في صدر الإسلام، فإنه لإبراز المحاسن الذاتية للإسلام قد أمر الله سبحانه نبيه ومن معه بالانقطاع إلى تبليغ الإسلام عن جميع الوسائل الدنيوية، وما اصطفى رسولَه في بيت الثراء والنعمة، حتى تؤثِّر الغنى والثروة في التبليغ تأثيرًا إيجابيًّا، وهيأ الله قبل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم أسباب اليتم، حتى لايكون سبب خارجي مؤثِّرا في الدعوة المحمدية، وصارت القبائل عدوًّا لدودًا، حتى لايكون ظهور الإسلام مدينًا للقبائل العربية، وهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وهو مظلوم مطلوب، حتى لايرجع فضل ظهور الإسلام إلى وطنه مكة المحترمة لدى العرب، ومُنِعَ من كل نوع من أنواع الدفاع والتصدي للأذى والأعداء، حتى لا يعتبر أحد الإكراه والقوة سببًا لانتشار الإسلام، وقد أزيلت جميع الأخلاق الفاسدة المنتشرة في العهد الجاهلي منذ قرون، حتى لايكون التمسك بالتقاليد والرسوم سببًا لانتشار الإسلام في العرب، وقد اختير للإسلام بلد، لاتصلح أرضه للزراعة، ولا للتجارة،ولا للصناعة ولا للحضارة ولا لكسب المعاش؛ بل هي عبارة عن وادٍ غير ذي زرع، وجبال جرداء، وصحراء رملية قاحلة، وأشواك وقتاد.

الحاصل أن الله لم يودع أرض الحجاز من ألوان الخصوبة والخضرة وأسباب الازدهار الاقتصادي ما يجلب الرأي العام، ويصادف هوًى في قلوب الناس، حتى لايكون انتشار الإسلام راجعًا إلى الخصائص الوطنية والقومية.

وخلاصة الكلام أن الله سبحانه قد أبعد رسوله صلى الله عليه وسلم في بداية حياته عن كل ما يتعلق بالشوكة والقوة والمنصب والغنى والثروة والعز والمجد، ومنحَهَ حياة اليتم والبؤس والعزلة والتسامح، وبهذا النبي الأمي اليتيم أخضع الله سبحانه جبابرةَ العالم، وأظهر دينه على الأديان كلها، لتعلو كلمته ويبرز جوهر تعاليمه وأثره ونفعه، ويتجلى أن انتشار الإسلام يرجع فضله إلى ما فيه من محاسن ومميزات باهرة، لا إلى أي شيء من أسباب الدنيا من المال والجاه والقوة، وفي آخر الأيام رجع الإسلام إلى ما كان عليه في أوله، لتبرز محاسنه، وتظهر آثار تعاليمه الشاملة، ولذلك تفرقت كلمة المسلمين، حتى لاتكون وحدتهم سببًا لقوة الإسلام، وزالت دولتهم وأموالهم حتى لايرجع الأمر إلى قوتهم وسلطتهم، وحدث ضعف عجيب في أخلاقهم وعلومهم، حتى لايؤثر العلم والأخلاق في ظهور الإسلام، واضطروا إلى الهجرات والإبادات الجماعية، حيث شُرد كثير من المسلمين الإيرانيين بسبب اعتداءات "بالشويك"، وبسبب "الشريف حسين" في مكة، عميل الاستعمار البريطاني قد هاجر عدد كبير من المسلمين في الحجاز إلى بلاد الشام وغيرها، وتضررت مناطق كثيرة في بلاد الشام والحجاز ومصر والعراق والشرق والغرب باعتداءات المسيحيين واضطهاداتهم، وبهؤلاء الذئاب المسيحية قد ذهب رُواء الملك الإسلامي في الهند، وباعتداءات اليابانيين تعرَّض المسلمون الصينيون لأخطار داهمة، واضطرابات عنيفة؛ كل ذلك ليكون ظهور الإسلام غير مدين للمميزات

الوطنية؛ وعلى العكس من ذلك فإن الأمم التي تميل إلى الإسلام وترغب فيه هي التي تملك كل وسائل الهيمنة والتسلط، كما كان مشركو مكة هم الذين يملكون كل وسائل المادة والهيمنة، فكما أن الإسلام كان غريبًا في أول أمره، ولكن أخضع الله الرقاب والوجوه على عتبة الإسلام، لتضطر الأعداء إلى الاعتراف بمحاسن الإسلام، كذلك يجعل الله الإسلام غريبًا من جديد، ويستميل إليه قلوب الأمم، التي تتسلط اليوم على جميع وسائل المادة والتطور، وتشمئز من الإسلام والمسلمين، وهذا عين ما جاء في الحديث النبوي الشريف: بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاء(1).

وبعد هذا كله إذا كان من لايعرف الآثار العميقة للتعاليم الإسلامية فهو أعمى البصر والبصيرة معًا.

خلاصة البحث:

الحاصل أنه كان غرضي وراء جميع ما فصَّلته في السطور السابقة أن الله سبحانه قد جعل نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم مظهرًا تامًا لعلمه، فكان رسولُنا صلى الله عليه وسلم مصدرَ العلوم والمعارف، وبما أن عقلية الأمة تخضع لعقلية النبي، وتستفيد منه فقد غلب على عقلية الأمة المسلمة كل من البحث المستمر عن الحق، والعواطف العلمية، ثم لم ينحصر هذا اللون العلمي في الأمة المحمدية، بل انتشر في كل بقعة من بقاع الدنيا، حل بها المسلمون، وهذا اللون العلمي الغامق هو الذي أحدث ثورةً في عقليات جميع الأمم، فنشأت لديهم رغبة في البحث عن الحق والصدق، ومع أن هذه الأمم أقامت سياجًا للحفاظ على حضاراتها المزعومة ومللها الفاسدة، وأنشأت تفاوتًا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ج٣، ص ١٤٥، رقم ١٦٦٩٠.

طبقيًا في المجتمع الإنساني ليكون حدًا من ظاهرة انتشار الإسلام؛ ولكن زحف الإسلام وتعاليمه الشاملة قد اجتاح الأمم، واكتسح البلاد، فماكانت عروشها الخاوية بالتي تضع الحد من السيل الإسلامي الجارف، فنفذ اللون الإسلامي في قلوب العباد قبل نواحي البلاد، فهو الذي أحدث التيار الإيماني التوحيدي في الأمة المسيحية، حتى نشأت فرقة بروتستنتية، وجرى تيار التوحيد في الوثنيين فنشأت منهم فرقة المجتمع الآري، وبلغ إلى قبائل شمال الهند، فمال السيخ إلى التوحيد، ونفذ إلى الأمم المتحضرة فكان في الفلاسفة والصناع كثير من الموحدين، ودخل في الملاحدة والمنكرين للإلهيات والغيبيات، فاعترفوا بعالم الغيب، والمعني أن المبادئ الإسلامية قد تمكنت في العقول والقلوب، واختلطت بعاداتهم وحضاراتهم، ثم كان منهم من خرج من ظلام دينه وتعاليمه، واعتنق الإسلام، واستنار بنوره، وبعضهم اختار النور الإسلامي لاستخدامه في الشؤون التعليمية، لكنهم لم يدخلوا في الإسلام صراحةً؛ ولكن في كلتا الحالتين لم تبق مللهم الأصيلة على صورتها الحقيقية، وهذه الثورة العقلية دليل على أن نور الإسلام قد مزَّق بعض ظلام هذه الملل، وأوشك أن يمزق بعضَه الآخر، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر بـ"لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ"(1).

وفي هذه الصورة يجب على المسلمين أن يقدِّروا هذا القبول العام للإسلام، ويحافظوا على هذا الكنز العظيم، ولاينشغلوا بالمادة عن الحقيقة، ويستمروا على الحقيقة دون التصوير والرياء، ويرغبوا في الرغائب الشرعية دون اللذائذ المادية،

---

(١) أخرجه احمد في مسنده، ج٦، ص ١٤٥، رقم١٦٩٥٧.

ويدعوا المفتونين بالصور إلى حب الحقيقة، ولا يتأثروا بالحضارة التصويرية الزائفة، ولايقضوا على الخصائص الإسلامية العامة، فإن هذه الأمة أمة علمية، وهمها هو علم الذات والصفات، لا مادة الذات والصفات، فعليهم أن ينشروا تعليم الدين وحقائق الدين، ويكونوا يدًا واحدةً في أداء هذه المهمة، ويربطوا بالدين الخاصةَ عن طريق التعليم، والعامةَ عن طريق التبليغ.

برنامج الوقاية من الآفات المدنية:

ويجب أن نعلم أن مرض الأوربيين المولعين بالتصوير والتزوير قد تسرب إليهم عن طريق التشبه بهم، مع أن النصارى استقبلوا استقبالًا حارًّا كلا من الوضع الإسلامي والمعاشرة الإسلامية، وآداب الإسلام من السلام والكلام واللباس والطعام وغيرها من الجوانب الحياتية العامة؛ ولكن من جهة أخرى عاد المسلمون في الصورة نصارى في الواقع، وتمكن التشبه بهم في العقول والقلوب، فأولع المسلمون أيضا بالصورة والظاهر من حيث لايشعرون، حتى شابهوهم في أوضاع الوجه والملابس؛ بل عاد اللسان والقلم يكشفان عن فضل الوسائل العلمية الغربية وفوائدها، ففي هذه الأوضاع يجب التركيز على بعض المبادئ الإسلامية الهامة، ومنها ما يلي:

النقطة الأولى: ترك التشبه بهم

فالخطوة الوقائية الأولى أن يجتنب المسلمون التشبه بالكفار بصفة عامة، وبالنصارى بصفة خاصة، وقبل عشرة أعوام أي في عام١٣٤٨هـ قد ألفتُ كتابًا باسم "التشبه في الإسلام"، وقد تداوله القراء، وقد سلطت فيه ضوءا كافيًا على حقيقة التشبه بالكفار ومضاره من المنظور العقلي والنقلي، ودعوتُ المسلمين إلى

اجتنابه والابتعاد عن المظاهر الحضارية المسيحية، وقد كان للكتاب صدًى في الأوساط العلمية، ونفع في أوساط عامة المسلمين، واليوم عدتُ بعد عشرة أعوام إلى نفس الدرس بعنوان آخر شامل.

النقطة الثانية: التزام صحبة الصلحاء

ولكن يجب أن نعلم أن النفور من مظاهر الماديين لن يتم بالمعرفة بمضار التشبه بالكفار وحدها؛ بل يجب أن نختار صحبة الصالحين، ومجالستهم؛ فإن العلم يهدي، ولايوصل، والإنسان لايسير ما لم تنشأ في قلبه عاطفة السير، وتشهد التجارب بأن هذه العواطف لاتنشأ بدون صحبة الصلحاء ومجالستهم، كما أكد به القرآن في آية: **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** (سورة التوبة: ١١٩)

فالمسلمون في حاجة إلى تشكيل لجان ومحافل علمية، تجري فيها نقاش علمي جاد حول الإصلاحات الملية والقومية، وينتفع بعضهم بعلوم البعض ولغاتهم، ولابد من عناية شاملة بالتعليمات القرآنية، وتفكير دقيق حول الاستقامة على المنهج القرآني ونشره؛ مما يعطي الأمة الخصوبة العلمية، والعاطفة العملية، وتستبين سبل عملية مناسبة، وإلا فإن من أخطر مضار المعاشرة الدنية المعاصرة أن العلم انحصر في طبقة من المسلمين، والعمل انزوى في طبقة أخرى متضادة، ومن هنا إذا صلح قلب إنسان، وتأثر بالعلم الصحيح، فالمجتمع الفاسد وما فيه من عادات وتقاليد لايدعه يستقيم على العمل الصالح، فإن كان العلماء الصادقون مركز التأثيرات العملية كما كانوا مصدر التأثير العلمي، ذهب الصراع بين العلم والعمل للأبد، وينتهي هذا الولع الطارئ بالصورة والظاهر لدى الأمة المسلمة.

وعلى كل فالأمة المسلمة بعد أن تخلت عن التشبه بالكفار، وتحلت بالتشبه بالصلحاء الأبرار، واستغنى قلبها وقالبها عن الصور المادية الخادعة، تستحق أن تخرج كجنود ربانيين، وتقود الإنسانية إلى الحق والهدى، وتعمل على إعلاء كلمة الله، وتجعله أهم مقاصدها، وتستعين بالله وحده، وتثق بوعوده، وتتقدم في ضوء الدعم الرباني الغيبي، وتستمر في مسيرتها الدعوية الإيمانية، ويجب أن تكون قلوبها عامرة باليقين المحكم والرجاء والخوف، وأيديها خاضعة للبرنامج العملي المقرر، حتى يكون الإيمان والعمل الصالح شعارها، في حين تتبجح الأمم الأخرى المولعة بالصور في عناد الله ومشاقته، أو في إشباع الغرائز الشهوانية، وتغرق فيما سوى الله على حساب الدين والأخلاق الربانية.

النقطة الثالثة: تنظيم الملة وتوحيد الأمة

فإن قامت أمتنا بذلك تحقَّق وعد الله، وانتصر على عدو الله، وإن من أهم وعود الله أنه يؤلف بين قلوب المسلمين، ويقيم رابطة قوية بين المؤمنين، فالوحدة هي أساس كل عمل جماعي مشترك، كما قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** (سورة مريم: ٩٦).

النقطة الرابعة: عاطفة الثورة والتغيير

أما الوعد الثاني فهو يتمثل في الاستخلاف والتمكين في الأرض، فإنه بدون ملك وسلطة وقوة لاتقوم قائمة لأي عمل ديني جماعي شامل، كما قال تعالى: **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ**

أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (سورة النور: ٥٥).

ولا مجال هنا للسؤال عن القلة والكثرة، فإن هذا وباء جرّه علينا الأوربيون المولعون بالصور؛ نعم إنما السؤال الحقيقي هو عن قوة الإيمان والعمل الصالح، فإن كان مئات الآلاف من الأوربيين الصوريين بعد ما جندوا طاقاتهم وكرسوا جهودهم في السيطرة على الهند، حتى استولوا عليها، مع أنهم قد سُلب دينهم وضاع يقينهم، فإذا كانوا مع هذه الحالة استطاعوا أن يستعبدونا، فما الذي يمنع هؤلاء الملايين من المؤمنين الموحدين أن يعيدوا ثقتهم بربهم، ويقلبوا الأمر ظهرًا لبطن.

فهذه المهمة ليست مهمة مستحيلة بالنسبة إلى المسلمين، وليست بدعًا من العمل، فقد حققوا كثيرا من المنجزات المدهشة في الشرق والغرب وفي كل بقعة من بقاع العالم، فقد أحدثوا بسيوفهم وأقلامهم انقلابات وثورات في الدنيا، وقضوا على حكومات وإمبراطوريات، فإن عادوا اليوم إلى منهجهم القديم المتمثل في الصدق والحق والجرأءة الخلقية والتعامل النزيه، وحسن السيرة وخلوص الطوية، والاستقامة على طريق الله ورسوله، بغض النظر عن سياسات الأوربيين المفتونين بالصور واستراتيجياتهم، أمكنهم أن يحدثوا ثورات وتقلبات، وانظروا كيف قام ذالك الرجل التركي المريض، والذي جعله الغرب الماكر مريضًا بمؤامراتهم الخبيثة، كيف قام قومة الأسد الهصور بإثارة واحدة من الجنرال مصطفى كمال باشا، حتى أرعب العالم، وأزرى بالأصحاء الأقوياء، ومثل هذا حدث في مصر والعراق إذا استيقظت شعوبها، وتحقق وعد الله تعالى، وهذه سنة الله تعالى، التي لا تتبدل ولاتتغير، فإذا كان المسلمون في الهند قاموا وأخذوا العدة حقق الله لهم أمنياتهم.

فعلى المسلمين في الهند أن يهبوا من نومتهم، ويحرروا عقولهم وقلوبهم من الأثرات الداخلية والخارجية، لا معتمدين على قوة غيرهم، بل واثقين بنصر الله وقوة الإسلام، لا كجند قومي؛ بل كحزب الله المنصور، وغيروا خريطة العالم الضال كله لا خريطة الهند فحسب، ولا للجاه والمنصب؛ بل لإعلاء كلمة الله ورفع رأية الإسلام، ثم عليهم أن لا يطالبوا غيرهم بحقوقهم فإن التسول يتنافى مع غيرتهم الدينية وعاطفته الإيمانية؛ بل يبتغون وجه الله وحده، ويجعلونه غايتهم النبيلة، والله! إنهم إن فعلوا ذلك لايمنع مانع من نصر الله، ومن ذا الذي يحول دون وعده بالتمكين والاستخلاف، فالإسلام لايتعب بعزائمهم السامية، ولا يبطئ نصر الله على ما يترتب عليها من نتائج سارة.

النقطة الخامسة: إقامة الصلاة وتنظيم الجماعة

على المسلمين أن يكونوا جماعة مسؤولة، مؤثرة مخلصة، منضمة إلى المركز الموحد، ويجمعوا قوتهم المنتشرة، لا بشكل رسمي؛ وإنما بشكل حقيقي، وهذا لايتحقق بدون المساجد والصلوات مع الجماعة، التي وحَّدت صفوف المسلمين في الماضي، وهي التي تستطيع أن تنظم صفوفهم اليوم، وهذا التنظيم هو الذي يمهِّد لهم التنظيم العسكري، ثم هذا لايحتاج إلى سلسلة اختراعية ولا إلى لجان علمية، ولا إلى نواد أدبية، فإن الله قد منحهم في صورة الدين هذا النظام الجامع، الذي يجمع بين حقوق الله ومصالح العباد، ويقيم علاقة قوية بين العبد وربه، وهو الذي يجمع بين الدين والسياسة، فكأن مسجد كل حي لجنته العلمية، يذهبون إليه لعبادة الله، فيزورون إخوانهم ويحصلون على مصالح دينية ودنيوية،فإن كان رجل شريف في قومه يتولى مهمة إمامة المسجد يرغب صغار

الناس في الاقتداء به، ويحضرون المساجد بكل شوق ورغبة، ثم على الإمام أن يراعي مصالح المؤتمين، وعلى المؤتمين أن يرتبطوا بإمامهم، وبذلك يقوم نظام ديني واجتماعي وعسكري من حيث لايشعرون، مما يسهل تحقيق جميع المقاصد الإسلامية.

النقطة السادسة: نظام الزكاة وبيت المال

كما يجب لإحكام هذا النظام إقامة نظام مالي متين، وهذا يتهيأ بالعناية الصحيحة بنظام الزكاة وبيت المال، حيث توضع الزكاة والأموال العامة الأخرى في مصارفها الصحيحة.

النقطة السابعة: النصح والإرشاد

ثم لابد من اهتمامٍ بتبليغ الدين والدعوة إلى الله بشكل جامع ينظم جميع الأعمال الإسلامية في منظومة عملية موصولة الحبال، فيجب على المسلمين أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعارهم، فلايسكتوا عن منكر، يمارسه أحدهم؛ بل يجب أن يكون كل واحد منهم يحاول جهده في النهي عن المنكر، سواء في الجلوة أم في الخلوة، سرًا أو جهرًا، بالحب أو بالتملق، لتظهر شعائر الإسلام، ويعلو ذكره في كل مكان، ويرغب كل صغير وكبير من المسلمين في إعلاء كلمة الله في العالم كله، لينتشر نور الإسلام في كل مكان، وينقطع إلى الله عبادُه، وهذا العمل الدعوي يحتاج إلى الخروج في سبيل الله زرافاتٍ ووحدانًا، وعلى القوى السياسية الإسلامية أن لاتغفل عن هذه المهمة؛ بل تجعل تبليغ الدين غايتها النبيلة، وتعرضها أمام الكفار والمشركين بأسلوب سهل محبب، وهذا لن يتحقق ما لم يمتلئ قلب الإنسان غيرة على الدين، ويتفجر عاطفة لإعلاء كلمة الله وحده، وإظهار الدين الحقيقي على جميع النظم الأرضية البشرية العاجزة لا لإرضاء النفس وإشباع الهوى.

خاتمة الكلام:

تدبروا أن الأمة التي ترفض التشبه بالكفار، فتكون معتدة بالذات، وتقيم الوحدة الملية الشاملة، فتبرز قوية القلب، ثقة بالنفس، وتهتم بأمور الصلوات والجماعات، فتتصل بربها، وتقيم الأخوة الشاملة فتكون منظمة متحدة، وتقيم نظام الزكاة على أسس إسلامية سليمة، فتكون ثرية غنية، وتمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتكون عارفة بحاجات العالم، ومخلصة في النصح، وجليسة وأنيسة، أي تقيم صلتها بالخالق والمخلوق، وتحسن سلوكها وأخلاقها، وتستغني بثرائها الملي عما سواه، وتسعى جاهدة لإعلاء كلمة الله وحده، فتدبروا أن الأمة إذا سلكت هذه السبيل ماذا يكون مصيرها؟ أوليست الأمة هي التي تجني ثمارها اليانعة؟

فإن كان هذا البرنامج هو برنامج كل مسلم، فلانحتاج إلى برنامج آخر، فقد اعتبر الله هذا النظام غاية قصوى لتمكين المسلمين في الأرض، وهي التي تؤدي إلى التمكين أيضا، وبها حصلت الأمم الخالية على السلطة والتمكين.

قال تعالى: **الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** (سورة الحج:٤١).

فقوله تعالى: أقاموا الصلاة يدعو من جهة إقامة الصلة مع الخالق، ومن جهة أخرى إقامة الوحدة والتنظيم من خلال حضور المساجد والجماعات، وقوله تعالى: وآتوُ الزكاة يدل بكل وضوح على التنظيم المالي، وأما قوله تعالى: أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فهو يشير أيضا إلى أن نعتبر الحسن حسنًا والقبيح قبيحًا، وهذا التناصح يستلزم أن يكون بين المسلمين مجالسة ومخالطة على الحب في الله، والبغض في الله، وبذلك يتضح مبدأ وجوب التشبه بالأبرار، وحرمة التشبه بالأغيار.

فهذا هو الأصل في التمكين الذاتي والملي والإصلاحي، الذي من شأنه أن يخلص البشرية من عناء النظم الأرضية المادية الصورية وخداع السراب الحضاري الغربي، الذي قد أحرق الحدائق الروحية، وعرَّض الإنسانية للنتائج المدمرة، التي عاد يبكيها المفكرون الأوربيون اليوم؛ ولكنهم لا يجدون مخلصًا لهم.

وعلى كل فعلى المسلمين أن يتنبهوا من غفلتهم ويستيقظوا من سباتهم، ويعتصموا بحبل الله، ويتمسكوا بالنظام القرآني، فقد هيأ الله كل شيء لصالحهم، والوقت ينتظرنا، والمستقبل المشرق مستعد للترحيب بنظام إسلامي عالمي، فقوموا وخذوا نصيبكم فيما قدر الله للإسلام والمسلمين، وهذا أوان الامتحان، فهل من مدكر؟

والله الموفق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

محمد طيب غفر الله له ولوالديه
رئيس دار العلوم ديوبند، الهند
٣٠/ ١٢/ ١٣٥٦هـ
يوم الخميس

قائمة المحتويات

عن الكتاب

إن هذا الكتاب يقوم بدراسة تحليلية إيجابية لما تميزت به الأمة المسلمة والأمة المسيحية من أحوال العلم والمعرفة والحضارة والاجتماع، ويبحث إيجابيات وسلبيات القاسم المشترك بين الأمتين في ضوء الأصول العلمية، ويخلص إلى أن خصائص اليهود والنصارى الاجتماعية والحضارية والنفسية كما عملت في الماضي في تطوير النظام الكوني بشكل تدريجي، ولكنها الآن تشكل دلائل قاطعة على دعاوى الإسلام. فالكتاب يتناول أساسًا موضوع عوامل بناء مزاج الأمم الثلاث وعناصره، والموازنة بينها على أساس العلم والحضارة، والوصول إلى الحقائق الإيمانية المبهرة من خلال نتائج وآثار هذه الأمم. ويشرح الأمور بترتيب طبيعي، أوله: أن الأنبياء تلاميذ الرحمن، فالرحمن يعلمهم ويربيهم، ومنهم تستفيد الإنسانية في كل مكان، وذلك أن لكل نبي شأنا مميزا، وهذا الشأن المميز يترك أثره في أمته، وبذلك تصطبغ الأمة بصبغة نبيه، وبتعبير آخر: إن كل نبي من أنبياء الله يستفيد من صفة مخصوصة من صفات الله سبحانه. فبهذه الصفة تتشكل شخصيته وبها تفيد أمته وتربيها ذهنيا وعقليا.

(من مقدمة فضيلة الشيخ محمد سفيان القاسمي حفظه الله)
رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف، ديوبند



Ḥujjat al-Islām Academy
Al-jamia al-Islamia Darululoom Waqf, Deoband
Eidgah Road, P.O. Deoband-247554, Distt: Saharanpur U.P. India
M: +91-8439412767, +91-9897076726
Website: www.dud.edu.in
Email: hujjatulislamacademy@dud.edu.in, hujjatulislamacademy2013@gmail.com

